تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، وتحقيق الفروع والاصول، وحل جميع مشكلات الدين، ودحض شبهات الماديين والجاحدين، وإقامة حجج الاسلام، وبيان سياسته المثلى في إصلاح الانام، مع حكم التشريع وسنن الله في الاجتماع، وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان، وحجة الله البالغة وآيته المعجزة الخالدة، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر من الضعف والعجز وقد أعرض أكثرهم عنها، وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة إذ كانوا معتصمين بحبلها، بما يثبت أنها هي السبيل لسعادة الدنيا والدين، مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنبا كثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث تهتدي به العامة، وهو منتهى طلبة الخاصة. وهذه هي الطريقة التي توخاها في دروسه في الازهر حكيم الاسلام الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده قدس الله روحه

الجزء الثاني عشر

﴿ تأليف ﴾

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿ الطبعة الأولى ﴾

﴿ بدىء بها في صفر سنة ١٣٥٣ وحقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف ﴾

﴿ مطبعة المنار بمصر ﴾

١١ـ سورة هود عليه السلام

(وهي الحادية عشرة في المصحف وآياتها ١٢٣ آية)

هي مكية حتما كالتي قبلها ، واستثنى بعضهم منهـا ثلاث آيات : الاولى (١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) الخ والثانية (١٧ أفمن كان على بينة من ربه) الخ والثالثة (١١٤ وأقم الصلاة طرفي النهار) الخ قيل ان هذه الثلاث مدنية وهو خلاف الظاهر ولا يقوم عليه دليل ، الا ماروي في سبب نزول الثالثة من حديث أبي اليسر وغيره وسيأتي بيانه في تفسيرها

وقد نزلت بعـد سورة يونس وهي في معناها وموضوعها الذي بيناه في تفسيرها، وهو أصول عقائد الاسلام في الالهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات، وقد فصل فيها ما أجمل في سورة يونس من قصص الرسل عليهم السلام، وهي مناسبة لها كل المناسبة ببراعة المطلع في فاتحتها، والمقطع في خاتمتها ، وتفصيل الدعوة في أثنائها ، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد (الر) ومثلهما في هذا ما بعدها من السور الاربع الا الرعد فأولها (المر) وذكر رسالة النبي المبلغ له عن الله تعالى، وبيان وظيفته فيها ، وهو الانذار والتبشير ، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة الى ما جاء به الرسول ﷺ وأمره في الاولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين، وفي الثانية بالانتظار - أي انتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه

وذكر في أثناء كل منهما التحدي بالقرآن ، ردا على الذين زعموا أن الرسول ﷺ قد افتراه ، ولـكن هذا الموضوع في الاولى أوفى منه في الثانية ، وكذا محاجة المشركين في أصول الدين كلها ، فقد أجمل في كل منهما مافصل في الاخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فهما باتفاق الموضوع ، واختلاف النظم والاسلوب ، آيتان من آيات الاعجاز ، تخر لتلاوتهما الوجوه للاذقان ، ساجدة للرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الٓر، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (٢) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٣) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٤) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذه الآيات الاربع في أصول الدعوة الى دين الله تعالى وهي القرآن وما بينه من توحيد الله تعالى وعبادته وحده والايمان برسله وبالبعث والجزاء، وعمل الصالحات، خوطب بها الناس من قبل الرسول ﷺ بدون ذكرهم، ولا ذكر لأمره تعالى له به، للعلم بكل منهما بالقرينة، وبنزول هذه السورة عقب سورة يونس التي افتتحت بمثل هذا

١ — ﴿ الر ﴾ تقرأ كأمثالها بأسماء الحروف ساكنة لا بمسمياتها فيقال: ألفْ، لامْ، رَا، ومذهب الخليل وسيبويه انها اسم للسورة، أو للقرآن (وبينا حكمة الابتداء بها في أول تفسير سورة الاعراف) ومحلها الرفع على الابتداء أو الخبرية عند الاكثر

﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ أي هذا كتاب (١) عظيم الشأن (كما أفاده

---

(١) بعض السور المبدوءة بمثل هذه الحروف أشير فيها الى الكتاب باسم «ذلك» كالبقرة، وبعضها أشير فيها الى السورة بكلمة «تلك» كيونس ويوسف وغيرهما، وبعضها قدر في أوله اسم اشارة مذكراً كهذه السورة والاعراف وغيرهما.

التنوين) جعلت آياته محكمة النظم والتأليف،واضحة المعاني بليغة الدلالةوالتأثير ، فهي كالحصن المنيع ،والقصر المشيد الرفيع ، في إحكام البناء، ومايقصد بهمن الحفظ والايواءمع حسن الرواء،فهي لظهور دلالتها على معانيها ووضوحها لاتقبل شكاولا تأويلا ، ولا تحتمل تغييرا ولا تبديلا ، ﴿ ثم فُصِّلت ﴾ أي جعلت فصولا متفرقة في سوره ببيان حقائق العقائد ،والأحكام والحكم والمواعظ ، وسائر ما أنزل الكتاب له من الفوائد ، كما يفصل الوشاح أو العقد بالفرائد،فالاحكام والتفصيل فيه مرتبتان من مراتب البيان مجتمعتان، لا نوعان منه متفرقان يختلفان في الزمان ، أو فصلت بعد الاجمال ، كما ترى في القصص القصار والطوال ، وقد أبهما ببناء فعليهما للمفعول ، ثم بينا بجملها ﴿من لدن حكيم خبير﴾ وهو أبلغ من إسنادهما اليه ابتداء ، أي من عند حكيم كامل الحكمة هو الذي أحكمها ، وخبير تام الخبرة هو الذي فصلها ،ولدن ظرف مكان أخص من «عند» وأبلغ. وهو بفتح فضم (كعضد) مبني على السكون

هذا مايتبادر الى فهم العربي القح من عبارة الآية ، فاذا عرضته على ماجاء في القرآن من حرفي الإحكام والتفصيل وجدت فيه من الحرف الاول ثلاث كلمات (الاولى) قوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٥فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) (والثانية) قوله تعالى في سورة القتال (٤٧ : ٢٠ ويقولون لولا نزلت سورة : فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآية — والثالثة قوله تعالى في سورة آل عمران (٣ : ٧ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ووجدت الإحكام في كل منهن بالمعنى اللغوي الذي بيناه آنفا. وقد حمل المقلدون المحكم في الآية الثانية على ما يقابل المنسوخ في اصطلاحهم ، فقالوا سورة محكمة غير منسوخة ، وهذا الحمل غير صحيح وان كان المراد منه صحيحا ،فان هذا الاصطلاح ليس من أصل اللغة ولا من عرف القرآن، بل وضع بعد عصر نزوله، والآية الاولى حجة على هذا فان النسخ فيها غير النسخ الاصولي، ولا يصح ان يكون المعنى فاذا أنزلت سورة غير منسوخة لا كلها ولا بعضها، لان

إنزال سورة منسوخة محال في نفسه، فلا معنى اذاً لنفيه، وحملوه في الثالثة على مايقابل المتشابه وهو صحيح ، ولكنهم اختلفوا في معنى كل منهما وأشهر الاقوال عند أهل الكلام والاصول فيهما مخالف لمدلول اللغة وللمروي عن جمهور السلف الذي هو الحق. قال السيد الجرجاني في الاول: المحكم ما أحكم المراد به عن التبديل والتغيير أي التخصيص والتأويل والنسخ ، مأخوذ من قولهم : بناء محكم ، أي متقن مأمون الانتقاض ، وذلك مثل قوله تعالى (إن الله بكل شيء عليم) والنصوص الدالة على ذات الله وصفاته لان ذلك لا يحتمل النسخ ، فان اللفظ إذا ظهر منه المراد فان لم يحتمل النسخ فهو محكم ، وإلا فان لم يحتمل التأويل فمفسر ، وإلا فان سيق الكلام لأجل ذلك المراد فنص ، وإلا فظاهر ، وإذا خفي لعارض أي لغير الصيغة فخفي ، وان خفي لنفسه أي لنفس الصيغة وأدرك عقلا فمشكل ، أو نقلا فمجمل ، أو لم يدرك أصلا فمتشابه اه وقال في الثاني : المتشابه ماخفي بنفس اللفظ ولا يرجى دركه أصلا كالمقطعات في أول السور ، وقال التاج السبكي في جمع الجوامع : والمتشابه ما استأثر الله بعلمه وقد يطلع عليه بعض أصفيائه اه وكلا القولين خطأ كما يعلم مما فسرنا به الآية في الجزء الثاني .

وقال السيد في تعريف التأويل : هو في الاصل الترجيع وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله اذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى (يخرج الحي من الميت) ان أراد به اخراج الطير من البيضة كان تفسيرا ، وان أراد اخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا اه وقال التاج السبكي : الظاهر مادل دلالة ظنية ، والتأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح ، فان حمل لدليل فصحيح أو لما يظن دليلا ففاسد ، أولا لشيء فلعب لاتأويل اه

هذا الاصطلاح المفصل لهذه الكلمات فيه ما ترى - في كتب الاصول - من قيل وقال، ومذاهب وجدال، وهو مالم يكن يخطر في بال أحد من العرب عند قراءتها في كتاب الله تعالى، بل كانوا يفهمونها بمدلولها اللغوي المحض، فأما المحكم فهو ماتقدم

وأما التفصيل في الآية فقد جاء مكرراً في أكثر من عشرين موضعاً من عشر سور مكية ، وفي موضع واحد من سورة التوبة المدنية ، وأكثرها في تفصيل الآيات القرآنية والعقلية ، وبعضها في تفصيل الكتاب ، وبعض آخر في تفصيل الأحكام ، ونوع آخر أعم وهو (تفصيل كل شيء) أي مما يتعلق بهداية الدين ، واصلاح أمور المكلفين ، وكلها داخل في المعنى اللغوي الذي حررناه

بقي علينا المأثور في الكلمتين عن مفسري السلف ، وهو قليل مختصر ، فعن ابن زيد في هذه السورة (قال) انها كلها مكية محكمة ، وان التفصيل فيها هو الحكم بين محمد ﷺ ومن خالفه في قوله تعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم) الآية ، ثم ذكر قوم نوح وقوم هود (قال) فكان هذا تفصيل ذلك وكان أوله محكما اهـ بالمعنى وحاصله ان المحكم المجمل وأن المفصل مايقابله بالمعنى اللغوي فيهما ، وعن الحسن البصري : أحكمت بالامر والنهي ، وفصلت بالوعد والوعيد ، وعن مجاهد (ثم فصلت) قال فسرت ، وعن قتادة أحكمها الله من الباطل ثم فصلها الله بعلمه ، فبين حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته ، وهذه الروايات كلها تدخل في المعنى اللغوي الذي بيناه ولا تحيط به

والقول الجامع أن تفصيل الاجمال في القرآن قسمان (الاول) تفصيل أصول العقائد وكليات التشريع العامة ، وأكثره في السور المكية ، كما بيناه متفرقا ثم مجملا في تفسير ما تقدم تفسيره منها ، وهو الانعام والاعراف ويونس (والثاني) ما يعم تفصيل الاحكام العملية من العبادات والمعاملات السياسية والمدنية والحربية كما بيناه في السور المدنية الطول المتقدمة أيضا

---

٢ ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ هذا تفسير أو بيان لأول ما أحكمت وفصلت به وله الآيات ـ أي بأن لا تعبدوا الا الله ، أو لئلا تعبدوا الا الله ، وهو أن تجعلوا عبادتكم له وحده لا تشركوا به شيئا ، وهذا ما تراه قريبا في قصص الرسل المفصلة في هذه السورة ، ويؤيد الجمع بين طرفي التوحيد السلبي والايجابي

قوله تعالى ﴿ انني لكم منه نذير وبشير ﴾ وهو تبليغ لدعوة الرسالة مبين

لوظيفة الرسول وهي انذار من أصر على شركه وما يتبعه من الكفر والمعاصي بالعذاب الاليم ، وتبشير من آمن واتقى بالسعادة والنعيم المقيم ، وقدم الانذار لأن الخطاب وجه أولا الى المشركين كنظيره في سورة يونس وامثالها من السور المكية كسورة الكهف ، والمبلغ هذا هو النبي ﷺ

٣ـ ﴿ وأنِ اسْتغفِروا ربَّكم ﴾ هذا عطف على ماقبله، أي وأن اسألوه أن يغفر لكم ما كان من الشرك والكفر والاجرام والظلم ﴿ ثم توبوا اليه ﴾ أي ثم ارجعوا اليه من كل إعراض ـ عنه وعن آياته ـ يعرض لكم بترك واجب أو فعل محرم ، نادمين منيبين مصلحين لما أفسدتم ، مستدركين ماقصرتم ، عطف التوبة بثم لان مرتبة العمل متأخرة عن مرتبة القول ، فكم من مستغفر وهو مصر على الذنب ، وسيأتي مثله في قصة كل من هود وصالح وشعيب ﴿ يمتِّعْكم متاعا حسنا ﴾ المتاع كل ماينتفع به في المعيشة وحاجة البيوت ، والامتاع والتمتيع إعطاء مايتمتع به تمتعا طويلا ممتداً ، وأما وصفه تعالى لمتاع الدنيا وتمتع أهلها بها بالقليل فهو بالاضافة إلى حياة الآخرة ، والمعنى إن تستغفروا ربكم عند كل ذنب ، وتتوبوا اليه من كل إعراض عن هدايته ، وتنكب عن سنته ، يمتعكم في دنياكم متاعا حسنا مرضياً ممتداً ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ عنده وهو العمر المقدر لكم في علمه، المكتوب في نظام الخليقة وسنن الاجتماع البشري في عباده ، فلا يقطعه اهلاككم بعذاب الاستئصال ، ولا بفساد العمران وسلب الاستقلال ، ولا ينغصه كل ماينغص حياة الكفار، وذلك أن لتنغيص الحياة في الدنيا وسلب النعم من أهلها أسبابا ترجع كلها إلى الاصرار على الكفر والذنوب المحرمة ، وهي لم تكن محرمة إلا لأنها ضارة مفسدة للدين أو مزيلة للحياة أو للعقل أو للصحة أو لنظام الاجتماع المالي والمدني ، وانما تكون مفسدة باصرار فاعليها عليها ، فاذا كان من تعرض له ينـدم ويبادر الى التوبة من قريب ويصلح ما نجم من فسادها بالعمل المضاد له ، امتنع ذلك الفساد وزال أثره ، ولهذا اشترط في التوبة المقبولة ما اشترط ووصفت في القرآن بما وصفت كقوله تعالى (٤ : ١٧ انما التوبة على الله للذين يعملون

السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) وقوله (٥ : ٣٩ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه) وفي معناه آيات أخرى وقوله (٣ : ١٣٥ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) وقد سبق تفسيرها في مواضعها

وهذه السنة الربانية مطردة في ذنوب الامم المقصودة بالقصد الاول من هذا الخطاب ، وهي فيها أظهر منها في ذنوب الافراد (كما بيناه في مواضع عديدة من هذا التفسير) فالامم التي تصر على الظلم والفساد والفسوق والعصيان ، يهلكها الله تعالى في الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران ، حتى تزول منعتها ، وتتمزق دولتها ، فتنقرض أو تستولي عليها دولة أخرى ، فهذا معروف في تواريخ الامم من أحوالها العامة في كل عصر ، وأما أقوام الرسل عليهم السلام في عصورهم فقد أهلك الله المصرين منهم على الكفر والعناد، بعد قيام الحجة عليهم بعذاب الخزي والاستئصال، كما بيناه في مواضعها وأقربها عهداً أواخر سورة يونس عليه السلام، والآية تتضمن نجاة هذه الامة المحمدية من عذاب الاستئصال كما بيناه في تفسير سورة يونس أيضا ، وسنعود إلى بيان هذا في تفسير الآيات (١٠٠ — ١٠٣) التي ختمت بها قصص الرسل من هذه السورة

وأما قوله تعالى ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ فهو عام مطلق في جزاء الافراد في الآخرة ، مقيد في جزائهم في الدنيا ، ومعناه مع الذي قبله إنكم أيها المخاطبون بهذه الآيات من قوم محمد رسول الله وخاتم النبيين ، إن تجتنبوا الشرك وتؤمنوا بالله ورسوله وتستغفروا ربكم ، وتتوبوا اليه عقب كل ذنب يقع منكم ، يمتعكم بجملتكم ومجموعكم متاعا حسنا تكونون به خير الامم نعمة وقوة وعزة ودولة، ويعط كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله في الآخرة مطرداً كاملا ، وأما في الدنيا فقد يكون هذا الجزاء جزئيا ناقصا ، ومشوبا لا خالصا، ولا يكون عاما كاملا مطرداً لقصر أعمار الافراد ، والتعارض والترجيح في سنن الاسباب والمسببات، وهذا من أدلة البعث وجزاء الآخرة الذي يظهر فيه عدله تعالى كاملا شاملا

وبهذا التفسير الذي وفقنا الله تعالى له يظهر ما بيناه مراراً من أن ثمرة الدين سعادة الدنيا والآخرة كلتيهما ، وقد غفل عنه المفسرون الذين يعارضون أمثال هذه النصوص بما جعلوه أصلا يرجعونها اليه بالتأويل كأحاديث ذم الدنيا وتسميتها « سجن المؤمن وجنة الكافر » وما يصح منها كهذا الحديث فهو محمول على النسبة بينهما بالاضافة الى حال كل منهما في الدنيا والاخرة، وحديث « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل » وهو صحيح أيضا ، والبلاء الاختبار ـ يكون في النعم والنقم ، والخير والشر ـ يظهر استعداد الناس لكل منهما كما تراه قريبا في تفسير الآية ٧ فليس مما نحن فيه مما وعد الله به رسله وبلغوه أقوامهم وصدقه الواقع ، فكانت العاقبة للمؤمنين بهم في خلافة الارض وملكها ونعيمها ما ثبتوا على ذلك ، ومنه هذه البشارة ويقابلها قوله تعالى في الانذار

﴿ وإن تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ أي وإن تتولوا (١) معرضين عما دعوتكم اليه من عبادة الله تعالى وعدم عبادة غيره ومن الاستغفار والتوبة من كل ذنب ، فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير هوله ، شديد بأسه ، وهو أن يصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم، أو ما دونه من عذاب المصرين ، في إثر نصر الرسول والمؤمنين ، وهذه براعة استهلال للقصص المفصلة في هذه السورة ، وأكثر المفسرين على أن المراد باليوم الكبير يوم القيامة الذي يكون فيه الجزاء الأكبر وهو المشار اليه في الآية التالية:

٤ ـ ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي اليه تعالى رجوعكم بعد موتكم جميعا أمما وأفرادا

لا يتخلف أحد منكم فتلقون جزاءكم تاما ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ومنه بعثكم وحشركم وجزاؤكم قدم وصف الرسول بالنذير على وصفه بالبشير ، ثم قدم بشارة المؤمنين ، وأخر إنذار الكافرين المصرين تأليفا لهم، لأن توالي الانذار منفر من الاستماع ، مغر بالتولي والاعراض ، على أن هذا التأليف لم يؤثر فيهم كما ترى في قوله تعالى :

(١) « تولوا » هذه أصلها تتولوا تحذف تاء المضارعة فيها وفي أمثالها للتخفيف

(٥) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

هذا بيان مستأنف لحال المشركين وصفتهم عند تبليغهم الدعوة واقامة الحجة، افتتحت باداة التنبيه ليتأملها السامع ويتصورها في صفتها الغريبة الدالة على اعراض الحيرة والعجز ومنتهى الجهل ، يقال ثنى الثوب اذا عطف بعضه على بعض فطواه، وأثناء الثوب اطواؤه ومطاويه ، وثناه عنه لواه وحوّله، وثناه عليه أطبقه وطواه ليخفيه فيه ، وثنى عنانه عني أي تحول وأعرض ، وثنى عطفه أي أعرض بجانبه تكبراً ، ومنه في المجادل في الله بغير علم (ثانيَ عطفه ليضل عن سبيل الله) والاستخفاء محاولة الخفاء ، ومنه (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) واستغشاء الثياب التغطي بها ومنه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) وهو بمعنى ما نحن فيه . ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ فسر بعضهم ثني الصدور هنا بالاعراض التام ، والاستدبار للرسول عند تلاوة القرآن ، وهو أبلغ من ثني العطف والجانب ، وفسره آخرون بطيها على ما هو مكنون فيها من الكراهة والعداوة له ﷺ ، والاقرب أن يكون تصويراً لما كان يحاوله بعض الكفار ثم المنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء بتنكيس الرأس ، وثني الصدر على البطن كما يطوى الثوب ، حتى يخفى فاعله بين الجمع ، خجلا مما فيه من القرع والصداع ، فالمعنى ألا إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رءوسهم كأنهم يحاولون طيّ صدورهم على بطونهم عند سماع القرآن وهو معنى بليغ وواقع وأدنى إلى التعليل بقوله ﴿ليستخفوا منه﴾ أي من النبي ﷺ عند تلاوته للقرآن فلا يراهم عند وقوع هذه القوارع على رءوسهم ، أو ليستخفوا مما هم فيه من الشأن المظهر لخزيهم وجهلهم ، المثبت لعجزهم ، وهو الذي كان يتبادر إلى فهمي كلما تلوت الآية أو سمعتها قبل الاطلاع على شيء

مما قيل في تفسيرها ، على أنه قد يجامع ما قبله فيصدق كل منهما على فريق من الكفار ، ويناسب الاول أن يكون الاستخفاء من الله عز وجل ورواه البخاري عن مجاهد، وروى ابن جرير وغيره عن عبدالله بن شداد قال كان أحدهم اذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره لكي لا يراه فنزلت . وعن أبي رزين قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشي بثوبه، وعن عطاء الخراساني في قوله (يثنون صدورهم) يقول يطأطئون رءوسهم، ويحنون ظهورهم، أي ألا فليعلموا ان ثني صدورهم وتنكيس رءوسهم ، ليستخفوا من الداعي لهم الى توحيد ربهم ، أو من ظهور حجته عليهم، لا يغني عنهم شيئا من ظهور فضيحتهم ، فانهم حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم عند النوم في ظلمة الليل ، ويخلون بخواطرهم وما يبيتون من السوء والمكر ، فان ربهم يعلم ما يسرون منها ليلا ، ثم ما يعلنون نهارا . وعن قتادة قال كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله تعالى . قال تعالى ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا حنى ظهره، واستغشى بثوبه، وأضمر همه في نفسه، فان الله لا يخفى ذلك عليه ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي إنه تعالى عليم محيط بأسرار الصدور ، وخواطر القلوب ، فهم كالذين قال فيهم (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا)

وروي في الآية ما لا يظهر في معناها ولا في قراءتها أنه تفسير لها ، وهو أنها نزلت في أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، وممن رواه البخاري عن ابن عباس، ولعل المراد أنه قال إن هذا يصدق فيهم ، وأقول ان هذا ضرب من مراقبة الله تعالى تذكرهم به رؤية السماء في هذه الحالة التي يقتضي الادب الستر فيها، وان كان الله لا يخفى عليه شيء ، ولا يحجب بصره ثوب ولا ظلمة ليل، وروي عنه أنه قرأ : ألا إنهم تثنوني صدورهم ـ بالمثناة الفوقية وبالتحتية ـ من اثنوني كاحلولى ، وكذا تثنوي كترعوي وفيها قراءات أخرى كلها شاذة لا نعنى بنقلها ولا بتوجيهها

أول الجزء الثاني عشر في المصاحف

(٦) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ

بين الله تعالى في الآية التي قبل هذه إحاطة علمه إثر بيان مايغفل الناس عن علمه به، وبين في التي قبلها شمول قدرته لكل شيء، وبين في الآية الاولى من هاتين الآيتين ما يهم الناس من آثار قدرته، ومتعلقات علمه، وكتابة مقادير خلقه، وهو مايتعلق بحياتهم وشئونهم، وفي الآية التي بعدها خلقه للعالم كله، ومكان عرشه قبل هذا من ملكه، وبلاء البشر خاصة بذلك كله، ليظهر أيهم أحسن عملا، وبعثه إياهم بعد الموت لينالوا جزاء أعمالهم، وإنكار كفارهم لهذا. قال

---

٦ - ﴿ وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها ﴾ الدب والدبيب الانتقال الخفيف البطيء حقيقة كدبيب الطفل والشيخ المسن والعقرب والجراد أو بالاضافة كدبيب الجيش، أو مجازاً كدبيب السكر والسم في الجسم، والدابة اسم عام يشمل كل نسمة حية تدب على الارض زحفا أو على قوائم ثنتين فأكثر، قال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله مايشاء) أي مما تعلمون ومما لا تعلمون مما يدب على الارض ومما يطير في الهواء ومما يسبح في البحار والانهار. وغلبة لفظ الدابة على ما يركب من الخيل والبغال والحمير عرف لا لغة. ورزق الدابة غذاؤها الذي تعيش به. والمعنى: مامن دابة من أنواع الدواب في الارض الا على الله رزقها على

اختلاف أنواعها وأنواعه ، فمنها الجنة التي لاترى بالابصار ، وصغار الحشرات والهوام ،وضخام الاجسام، والوسطى بين الكبير والصغير، وأغذية كل نوع مختلفة من نباتية وحيوانية، وقد أعطى كلا منها خلقه المناسب لمعيشته، ثم هداه الى تحصيل غذائه بغريزته ،فمنها ماخلق له خراطيم يمص بها غذاءه من النبات أو دم الحيوان ، وأعطاها من القوة ما إن خرطوم البعوضة الدقيق ليخترق جلد الانسان وماهو أكثف منه من جلود الحيوان، ومنها ماخلق له مناقير تلتقط الحبوب ،ومنها مايمضغ النبات بأسنانه مضغاً ، وما يبلع الحشرات والطيور والانعام بلعاً ، وما له مخالب يمزق بها اللحوم ، وما له براثن يقتل بها كبار الجسوم ، وتفصيل هذا له كتب خاصة من قديمة وحديثة، ولله تعالى حكم في خلقها وغذائها عجيبة ، فان خفي عليك أمر تغذي الحيات والسنانير ونحوها من خشاش الارض وصغارها، وتغذي الافاعي الكبرى وسباع الوحش والطير من كبارها ، فأول ماينبغي لك أن تفكر فيه من حكمتها ، انه لولا ذلك لضاقت الارض ذرعا بكثرة أحيائها ، أو لأنتنت من كثرة أمواتها ، وإذا أردت زيادة العلم بها وبحكمتها فعليك بالمصنفات المدونة فيها، وقد فتحت هذه الآية وأمثالها لك أبوابها ، وأرشدتك إلى تطلابها

ولا يشكلن عليك التعبير عن كفالة الله لرزقها بقوله (على) وما قيل من دلالتها على الوجوب مع قول المتكلمين انه لايجب عليه تعالى شيء ،فان الممنوع أن يجب عليه تعالى شيء بإيجاب موجب ذي حكم أوسلطان يطالبه به ويحاسبه عليه ، فهذا محال عقلا وشرعا ، وأما ما أوجبه الله تعالى من النظام وسنن التدبير العام للمخلوقات بمقتضى علمه وحكمته ومشيئته ، ونفذه بقدرته واختياره في خليقته ، فهو حكمه وقضاؤه وقدره بسلطانه ،لا حكم عليه بسلطان غيره ، وهو كمال مطلق لاشائبة للنقص فيه

ولا يشكلن عليك فيها أيضا أن يكون في كل نوع من هذه الدواب حتى الانسان أفراد قد تضيق في وجوههم أبواب الرزق حتى يقضي بعضهم جوعا، فليس معناها أن الله تعالى قد كفل لكل دابة من كل نوع أن يخلق لها ماتغتذي به ، ويوصله اليها بمحض قدرته ، سواء اطلبته بباعث غريزتها أو مايهديها اليه العلم من أسباب

كسبها ام لا ؟ وإنما معناها ما فسرناها به من خلقه تعالى لكل منها الرزق الذي تعيش به، وأنه سخره لها وهداها إلى طلبه وتحصيله، كما قال (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وبهذا تعلم جهل بعض العباد والشعراء فيما زعموه من أن الكسب وعدمه سواء، كقول بعض الخياليين الجاهلين، المتواكلين غير المتوكلين:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فهذا الشاعر أحق بصفة الجنون ممن يصفهم بها، فان ما جرى به القضاء منه ما هو مجهول للناس، ومنه ما علم نوعه بالتجارب والاختبار، ويعبر عنه بالنواميس والسنن، ومنها أن الحركة والسكون لكل منهما آثار، فما هما سيان في ذاتهما، ولا في آثارهما ونتائجهما، وان ماقضاه وقدره من رزق الجنين في غشاوته بدم حيض أمه، غير ماقضاه وقدره من رزق من خاطبهم بقوله (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) ونحوه من آيات التسخير والتكليف.

ومن العجيب أن يستدل أحد المفسرين الأذكياء على هذا الجهل بأثر موضوع، ويستحسن في موضوعه خيال ابن أذينة الشاعر المخدوع:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيعييني تطلبه ولو أقمت أتاني لا يعييني

ثم يقول: وقد صدقه الله تعالى في ذلك يوم وفد على هشام فقرعه بقوله هذا، فرجع إلى المدينة فندم هشام على ذلك وأرسل بجائزته اليه، ثم أورد (أي المفسر) في معناه قول من اعترف بأنه ألغى امر الاسباب جداً إذ قال:

مثل الرزق الذي تطلبه مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعاً وإذا وليت عنه تبعك

وقفى عليه — أعني المفسر — بقوله هو: وبالجملة ينبغي الوثوق بالله وربط القلب به سبحانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن هـ

وأقول ان هذه الجملة حق وضع موضع الباطل، ولكن هذا الشعر أوغل في الجهل الباطل مما سبقه، فانه جعل الكلام في الرزق المطلوب، لا في الرزق المكتوب. وجعل

اتباعه بالسعي والطلب مانعا من إدراكه ، والتولي عنه بالقعود والكسل ، والتمني دون العمل ، من الضرورات المقتضية لنيله ، فيكون تأييد زعمه أو تقريبه عما ينبغي بل مما يجب من الوثوق بالله وربط القلب به والايمان بمشيئته ، من ربط العلم بالجهل ، وتأييد الباطل بكلمة الحق ، فالثقة بالله تعالى والايمان بمشيئته لايصحان مع الجهل بمعناهما ومواضع تعلقها ، وقد علم بنصوص القرآن وبسنن الله تعالى في الخلق وأسباب الرزق ، أن مشيئته تعالى لاتكون الا بمقتضى سننه في ارتباط الاسباب بالمسببات وحكمته فيها كما فصلناه مراراً في مواضعه من هذا التفسير ، والجهل بهذا مما أفسد على المسلمين دنياهم ودينهم ، وأضاع جل ملكهم ، وجعل جماهيرهم عالة على غيرهم

﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ أي وما من دابة في الارض إلا ويعلم الله مستقرها حيث تستقر وتقيم ، ومستودعها حيث تكون مودعة الى حين ، فهو يرزقها في كل حال بحسبه وقد بينا معنى الكلمتين في اللغة وما ورد في تفسيرها من الآثار في تفسير (٦ : ١٠٠ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع) فراجعها إن شئت في ص٦٣٨ـ٦٤٠ من الطبعة الثانية للجزء السابع من التفسير ، وقد لخص البيضاوي جملة الاقوال في مستقرها ومستودعها كعادته بقوله: أماكنها في الحياة والممات أو الاصلاب والارحام أو مساكنها من الارض حين

وجدت ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ﴿ كل في كتاب مبين ﴾ أي كل واحد من الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم في كتاب مبين ولوح محفوظ ، كتب الله فيه مقادير الخلق كلها فهو عنده تحت العرش كما ثبت في الصحيح . وقد بينا ماورد في هذا الكتاب مجملا في تفسير (٦ : ٣٨ وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء) ثم مفصلا في تفسير آية مفاتح الغيب وهي ٥٩ من هذه السورة (الانعام) فراجعها في ج ٧ أيضا

---

٧ ﴿ وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ﴾ من أيام الله تعالى في الخلق والتكوين وما شاء من الاطوار ، لا من أيامنا في هذه الدار التي وجدت

بهذا الخلق لا قبله، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامنا كما توهم الغافلون عن هذا وما يؤيده من قوله (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقوله (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) وقد ثبت في علم الهيئة الفلكية ان أيام غير الارض من الدراري التابعة لنظام شمسنا هذه تختلف عن أيام هذه الارض في طولها، بحسب اختلاف مقادير أجرامها وأبعادها وسرعتها في دورانها ، وأن أيام التكوين بخلقه من الدخان المعبر عنه بالسديم شموسا مضيئة، تتبعها كواكب منيرة ، يقدر اليوم منها بألوف الالوف من سنينا بل من سني سرعة النور أيضا ، وقد سبق مثل هذه الجملة في سورتي الاعراف ٧: ٥٤ ويونس ١١: ٣ وذكر بعدها استواء الخالق تعالى على عرشه، وتدبيره لأمر ملكه . وأما هنا فقال بعدها فيهما ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ أي وكان سرير ملكه في أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء. وقد بينا في تفسير آيتي الاعراف ويونس المشار اليها آنفا أن المعنى الكلي المفهوم من العرش انه مركز نظام الملك ومصدر التدبير له، وان المتبادر في الاستعمال اللغوي استعمالهم: استوى على عرشه بمعنى ملك أو استقام أمر الملك له ، و: ثُلَّ عرشه بمعنى هلك وزال ملكه، ونحن نعلم أن عروش ملوك البشر تختلف مادة وشكلا وهي من عالم الشهادة وصنع أيدي البشر ، كذلك يختلف النظام للتدبير الذي يصدر عنها، وهو من جنس ما يعلم البشر في عالمنا هذا، فعرش ملكة سبأ العربية العظيم ، كان أعظم من عرش سليمان ملك اسرائيل، ولكن تدبيرها وحكمها الشوري (الديمقراطي) كان دون حكمه الشرعي الديني ، ورب عرش من الذهب، وعرش من الخشب، وأما عرش الرحمن عز وجل فهو من عالم الغيب الذي لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصوره بأفكارنا، فأجدر بنا أن لا نعلم كنه استوائه عليه، وصدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم عنه ، وحسبنا أن نفهم الكناية، ونستفيد العبرة، فما أجهل الذين تصدوا لتأويل هذه الحقائق الغيبية، بأقيستهم وآرائهم البشرية! وما أحسن ما روي عن أم سلمة (رض) وربيعة ومالك (رح) من قولهم : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، الخ ما تقدم في تفسير آية الاعراف

وأما قوله تعالى (وكان عرشه على الماء) فنفهم منه أن الذي كان دون هذا العرش

من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والارض أو في أثنائه هو هذا الماء، الذي أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلا لخلق جميع الاحياء، إذ قال (٢١: ٣٠ أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ؟) الرؤية هنا علمية والمعنى ألم يعلموا ماينبغي أن يعلموه من أن السموات والارض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال — وهي ما يسمى في عرف علماء الفلك بالسديم وبلغة القرآن بالدخان — ففتقناهما بفصل بعضها من بعض، فكان منها ما هو سماء ومنها ما هو أرض، وجعلنا من الماء في القابلة لحياة الاحياء كل شيء حي، أفلا يؤمنون والامر كذلك بأن الرب الفاعل لهذا هو الذي يعبد وحده ولا يشرك به شيء، وأنه قادر على إعادة الخلق كبدئه ؟

فيفهم من هذا وذاك أن الذي كان تحت العرش فيتنزل اليه أمر التدبير والتكوين منه هو الماء، الذي هو الاصل لجميع الاحياء، لا ما تخيله بعض المفسرين الفنيين في الماء والعرش، مما تأباه اللغة والعقل والشرع، والعبارة ليست نصا في أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء كالسفن التي نراها راسية فيه الآن كما قيل، فان فائدة الاخبار بمثل هذا إن كان واقعا في ذلك العهد هو دون فائدة ما ذكرنا من معنى العرش الذي بيناه، وهو الذي يزيدنا معرفة بربنا وبحكمه في خلقه، وهو الذي يتفق مع نظريات علم التكوين وعلم الحياة وعلم الهيئة الفلكية وما ثبت من التجارب فيها، ويخالف أتم المخالفة ما كان معروفا عند أمم الحضارة من قواعد علم الفلك القديمة ونظرياته المسلمة. وبهذا يعد من عجائب القرآن، التي تظهر في كل زمان بعد زمان

ثم علل سبحانه وتعالى خلقه لما ذكر ببعض حكمه الخاصة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن فقال ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ أي ليجعل ذلك بلاء أي اختبارا وامتحانا لكم فيظهر أيكم أحسن إتقانا لما يعمله، ونفعا له وللناس به، وذلك أنه سخر لكم كل شيء وجعلكم مستعدين لابراز ما أودعه فيه من المنافع والفوائد المادية والمعنوية، ومن حكم خالقه ورحمته بعباده فيه، ومستعدين للافساد والضرر به، ليجزى كل عامل بعمله وانما يتم ذلك في الآخرة، وقد سبق لنا تفصيل هذا البلاء في تفسير (٦: ١٦٥ وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع

بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وغيره ﴿ ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ أي وتالله لئن قلت للناس فيما تبلغهم من وحي ربهم: انكم ستبعثون من بعد موتكم ليجزيكم ربكم بعملكم فيما بلاكم به (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) فانه ماخلقكم سدى، ولا سخر لكم هذا العالم واستخلفكم فيه عبثا ﴿ ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي ليجيبنك الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله قائلين: ما هذا الذي جئتنا به من هذا القرآن لتسخرنا به لطاعتك الا سحر بين ظاهر، تسحر به العقول، وتسخر به الضمائر والقلوب، فتفرق به بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وعشيرته التي تؤويه، معتقدين بسلطان بلاغته انهم سيموتون ثم يبعثون، ويجزون بكل ما يفعلون (هيهات هيهات لما توعدون)

(علاوة في آيات التكوين وما فيها من اعجاز القرآن العلمي)

ان الله تعالى ذكر عرشه مع خلق السموات والارض في بضع آيات بين في كل منها شأنا من شئونه: ففي سورة الاعراف ذكر سنته في إغشاء الليل النهار وطلبه طلبا حثيثا، وتسخير الشمس والقمر وهو النظام الذي يجري عليه هذا النظام الشمسي بدوران الارض حول شمسها، ودوران القمر حول أرضه. وفي آية يونس ذكر التدبير العام من غير حاجة الى شفيع اذ أمر الشفعاء موقوف على اذنه، ثم وضحه بآية جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل، وفي آية هود ذكر الماء من الشأن في خلق الاحياء، ولهذا الماء ثلاثة مظاهر أوسطها السائل الذي يشرب منه الحيوان ويسقى به النبات وهو مايكون عليه في حال اعتدال الحرارة فاذا نقصت الى درجة معينة صار ثلجا أو جليدا، فاذا ارتفعت صار بخارا، فاذا كثف سمي ضبابا وسديما، فاذا خالطه غيره سمي دخانا. وفي آية الرعد جمع بين تسخير الشمس والقمر الى أجل مسمى وتدبير الامر وتفصيل الآيات، وآية طه ذكر بعدها ان له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى، وآية الفرقان ذكر بعدها انه جعل في السماء

بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، فذكر البروج تفصيل لنظام الزمان، وآية ألم. السجدة نفى فيها أن يكون لأحد من دونه ولي أو شفيع، وقفى عليها بتدبير الامر من السماء الى الارض ينزل منه ثم يعرج اليه في يوم مقداره ألف سنة مما تعدون، وقال في آية الحديد (يعلم مايلج في الارض وما يخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها) الخ

وقد بينت في آخر تفسير آية الاعراف أن بعض المتكلمين تكلفوا تفسير السموات السبع والكرسي والعرش العظيم أو تأويلهن بالافلاك التسعة عند فلاسفة اليونان المخالف للقرآن، وان علم الفلك الاوربي قد نقض في القرون الاخيرة تلك النظريات الخيالية، بالادلة العلمية من رياضية حسابية هندسية، ومن طبيعية عملية، كتحليل النور وسرعته ووزن الحرارة، وإن ما ثبت في علم الفلك الحديث ومباحث التكوين قريب من نصوص القرآن، كبعده عما يخالف من نظريات اليونان،

وأزيدك هنا أن هذه الارض في اصطلاح الهيئة القديمة هي مركز العالم كله ويحيط بها فلك القمر فهو سماؤها ويحيط به فلك عطارد فأفلاك الزهرة فالشمس فالمريخ فالمشتري فزحل ففلك النجوم كلها فالفلك الاطلس المحيط بكل ذلك فعلى هذا لم يخلق الله الا أرضا واحدة في قلب تسع سموات، والسماء في اللغة العربية ما سما وعلا فكل ما في جهة العلو فهو سماء، ونقل الراغب عن بعضهم: كل سماء بالاضافة الى دونها فسماء، وبالاضافة الى فوقها فأرض الا السماء العليا فانها سماء بلا أرض وحمل على هذا قوله (٦٥ : ١٧ الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) والسبع مثل والعدد لامفهوم له

وأعجب من هذا أن العلم العصري بسنن التكوين العامة يرتقي في هذه الاجيال درجة بعد درجة، وأن بعض ماينكشف منها للعلماء من النظريات والاصول قد ينقض بعض ما سبقه منها، ولكن لم ينقض شيء منها شيئا مما ثبت في القرآن، على لسان النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، فأصل السديم المشار اليه بقوله (٤١ : ١١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين) وأصل خلق الاحياء النباتية والحيوانية من الماء، لايزال كل منهما ثابتا عند جميع العلماء وقد عبر به عن مادة التكوين التي هي مادة خراب العالم الذي ترجع به هذه

الاجرام الى مادتها الاصلية بقوله تعالى (٤٤ : ١٠ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وعبر عنه كذلك بالغمام في قوله (٢٥ : ٢٥ ويوم تَشَقَّقُ السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا) وقوله (٢ : ٢١٠ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) والغمام في اللغة السحاب الرقيق. فالدخان والغمام والبخار والسديم كلها مظاهر لهذه المادة اللطيفة (الماء) قال حكماؤنا : البخار جسم مركب من أجزاء مائية وهوائية، والدخان مركب من أجزاء أرضية ونارية وهوائية. والغبار مركب من أجزاء أرضية وهوائية اه وأرقه الهباء قال تعالى (٥٦ : ٤ اذا رجت الارض رجا ٥ وبست الجبال بسا ٦ فكانت هباء منبثا) ويصح التعبير بالدخان عن العناصر البسيطة للبخار والدخان كالايدروجين وهو مولد الماء والاكسجين وهو مولد النار، والاسم العرفي لجنس هذه البسائط (الغاز). والسديم في اللغة الغمام والضباب، واختاره علماء الفلك على الدخان وغيره ولا مشاحة في الاصطلاح

والخلاصة ان التنزيل أرشدنا في كل آية من آيات التكوين التي ذكر فيها عرشه العظيم، الى نوع من أنواع ما جعله مصدرا له من سنن التكوين وأنواع التدبير، وفي آيات التكوين التي لم يذكر فيها العرش أنواع أخرى من سننه ونعمه وحكمه، ولم تكن العرب ولا شعوب الحضارة والفنون تعرفها، ومنها ما لم يعرفه علماء الافرنج الا في عصرنا هذا.

من ذلك أصل خلق جميع الاحياء النباتية والحيوانية بالتوالد بين الازواج المنصوص في قوله في الارض (٢٢ : ٥ وأنبتت من كل زوج بهيج) وقوله (٥٠ : ٧ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) وقوله (٢٦ : ٧ أولم يروا إلى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) وقوله (٣١ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وبثّ فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) فالزوج البهيج والكريم هو المنبت المنتج. والمراد بالازواج في هذه الآيات كلها أنها ذكر وأنثى كما قال (٥٣ : ٤٥ وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى) ومثله في آخر سورة القيامة (٧٥ : ٣٦-٣٩)

فان قيل إن آخر ما انكشف للبشر من علم التكوين في هذا القرن أن المنشأ

الاول للخالق الذي كان قبل وجود الحيوان والنبات وما يسمى بالجماد من طبقات الارض ،هو اتحاد ذراته الكهربائية الايجابيـة بالسلبية المعبر عنهما في لغة العلم (بالألكترون والبروتون) فهل لهذا من أصل من القرآن العظيم ؟

قلت نعم إن هذان إلا زوجان منتجان ، والقرآن لم يحصر سنة الزوجية في النبات والحيوان، بل قال تعالى (٥١: ٤٩ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وأبلغ من هذا في العموم ، وأدهش لاولي الالباب والفهوم ، وأعظم عبرة للمستقلين في العلوم ، قوله عز وجل(٣٦ ٣٦ سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لايعلمون) فهو يشمل الكهربائية وغيرها مما علم ومما قد يعلم في المستقبل ، وإن هذا التعبير ،لايعقل صدوره إلا عن عالم الغيب والشهادة العليم الخبير ، وما كان مثله ليخطر ببال محمد العربي الامي الناشيء بين الاميين ، ولا في خلد أحد من الفلاسفة العقليين والطبيعيين ،

على أنه قد جاء في الآيات والاحاديث من ذكر النور والنار في الكلام على الخالق وسنن الابداع مايدل على هذه الكهرباء دلالة واضحة وأظهره آية النور العظمى في سورته (الله نور السموات والارض) وقوله في مثله منها (يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور) وفي عدة آيات من عدة سور ان الله خلق الجان (من مارج من نار) أو (من نار السموم) وهي من مخلوقات الارض ، وقد كانت في أحد أيامها كتلة نارية مشتعلة ، وراجع ما ورد من الاحاديث في هذا الموضوع من تفسير آية الاعراف (٧ : ١٤٣) في رؤيته تعالى

فان قيل : ولم لم تذكر هذه السنن العجيبة في موضع واحد من القرآن فتكون أظهر للناس،ويكون المؤمنون بها أسبق الى ما أظهره العلم منها في هذا الزمان؟

قلنا : أولا — إن أسلوب القرآن في بيان أصول الدين وفروعه المقصودة لذاتها هو إيرادها في آيات متفرقة في السور ممزوجة بغيرها من أنواع المسائل والفوائد لا في مكان واحد،وقد بينا حكمة هذا في مباحث الوحي المحمدي من سورة يونس التي صدرت في كتاب مستقل .

ثانياً — إن هذه السنن قد ذكرت في سياق الآيات الدالة على عقيدتي التوحيد والبعث فكان المناسب أن تذكر معها في مواضعها

ثالثاً — إن العلم التفصيلي بها ليس من مقاصد الوحي الذاتية وانما هو من العلوم التي يصل إليها البشر بكسبهم وبحثهم، وانما يكون الوحي مرشداً لهم اليها

رابعا — لو جمعت هذه الآيات في موضع واحد على انها بيان تام لجميع أطوار التكوين لتعذر فهمها قبل تحصيل مقدماته بالبحث العلمي ولكانت فتنة لبعض من فهمها بالجملة، وان دلالة القرآن على كروية الارض ودورانها واضحة كآية الاعراف التي أشرنا اليها آنفا (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا) وفي غيرها ولا يزال أكثر المسلمين يجهلونها

خامسا — ولو لم يعرض للحضارة العربية الاسلامية من المصائب والفتن الاجتماعية والحربية والشقاق الديني والسياسي ما اوقف بتر في العلم والبحث لسبقوا إلى ما وصل اليه غيرهم من الافرنج بعدهم باتباعهم والجري على آثارهم ، فان المعارف الكونية يمد بعضها بعضا ما لم يعرض لها ما يوقف سيرها

هذا وإن مؤلف هذا التفسير الضعيف قد صرح في مقصورته التي نظمها في عهد طلب العلم بطرابلس الشام ، بسنة الله تعالى في جعل الازواج مصدر التكوين العام ، وأشار إلى شواهد ذلك من العلم الحديث وما يناسبه من مولدات الفكر و الخيال فقال :

تَبَارَكَ البَارِيءُ مُبْدِعُ الوَرَى ... بِالحَقِّ وَالحِكْمَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى(١)

أَحْكَمَ رَبِّي مَا بَرَاهُ فَانبَرَى ... مُسْتَحْصِفَ المِرِ مَشْدُودَ العُرَى(٢)

أَنْشَأَ فِي الدُّخَانِ كُلَّ صُورَةٍ ... فَسَمَكَ السَّمَاءَ وَالارْضَ دَحَا(٣)

---

(١) تعالى الخالق وتزايدت بركاته الذي ابتدأ الخلق على غير مثال سابق ولا اقتداء بأحد وهو غني عنه اتم الغنى وأظهره (٢) أتقن كل ما برأه فكان قويا محكما، والمرر ما اشتد فتله من الحبال، والمرة الطاقة والقوة منه، واستحصفه أحكمه اتم الاحكام ومنه الحصيف الكامل العقل والرأي (٣) سمك السماء رفعها وجعلها سمكا اي سقفا، ودحا الارض يدحوها ويدحيها فصلها من السماء وجعلها مستقلة متحركة، من دحا المطر الحصى عن وجه الارض اي جرفه ، ودحا الفرس والنعام التراب حوله بما يحفر في الارض، ومنه أدحية النعام ما يحفره لبيضه

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ) الَّذِي أَنْشَأَ مِنْهُ كُلَّ حَيٍّ وَبَرَا
وَخَلَقَ الأَشْيَاءَ أَزْوَاجًا وَمِنْ ذُرِّيَّةِ الزَّوْجَيْنِ يَذْرُو مَا يَشَا(١
ثُمَّتَ (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) بِقَدَرِ اسْتِعْدَادِهِ (ثُمَّ هَدَى)(٢
فَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ لا أُنُفٌ مُبْتَدَأٌ وَلاَ سُدَى (٣
فَابْعَثْ رَسُولَ الطَّرْفِ مِنْكَ رَائِدًا يَجُوبُ أَجْوَازَ البِحَارِ وَالفَلا
وَاسْرِ بِهِ لِلأُفْقِ فِي مَرَاصِدٍ مِعْرَاجُهَا يُدْنِي إِلَيْكَ مَا نَأَى
وَسَرِّحِ الفِكْرَ رَبِيئًا ثَانِيًا لِمَسْرَحِ الأَرْوَاحِ يَسْعَى وَالنُّهَى (٤
حَتَّى إِذَا جَاسَا خِلاَلَ الدَّارِ مِنْ حِسٍّ إِلَى نَفْسٍ وَرُوحٍ وَحِجَا
سَائِلْهُمَا هَلْ ثَمَّ مِنْ تَفَاوُتٍ أَوْ خَلَلٍ فِي البَدْءِ كَانَ أَوْ عَرَا

---

(١) ذرأ الخلق اوجدهم وأظهرهم بشخوصهم وتخفف الهمزة ، وذراهم يذروهم بثهم وفرقهم ، والذرية صغار الاولاد والنسل وقد يطلق على كبارهم معهم

(٢) تجد معنى الآية المقتبسة هنا في تفسير (ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها)

(٣) القدر المقدار المعين لا نزيد ولا ينقص وهو النظام الثابت. والانف بضمتين الجديد ، وكان شعار منكري القدر الالهي من المبتدعة (الامر أنف) اي يخلق الله كل شيء ويدبر كل امر مبتدأ جديداً لا على ترتيب ونظام سبق في علمه وربط المسببات فيه بالاسباب والسنن. والسدى بالضم الباطل وأصله الابل المسيبة لا راعي لها

(٤) الربيء والربيئة الطليعة من الجيش تسبق فتكشف له ما أمامه . ومعنى كونه ثانيا انه يتلو رسول الطرف وهو الرائد الاول. والمراد انظر بفكرك وبصيرتك في حكم المخلوقات المعنوية وهي الارواح والعقول ، بعد النظر ببصرك في المخلوقات الحسية في براري الارض وبحارها ونيرات الافق تسري اليها ليلا مستعينا بمراصدها وهي الآلات التى تقرب الاجرام السماوية وتكبرها للرائي

أنّي وتلك مَظهرٌ للحقّ في ... صِفاتِه وما تسمّى من سُما(١)
(فليْسَ في الإمْكانِ)أنْ يجري بها ... (أبْدعَ ممّا كانَ)قبْلُ وجرَى(٢)
(ثمّ ارْجعِ الطرْفَ إليْها ينقلِبْ ... إليكَ خاسِئًا حسيرًا) قدْ عشَا
يتْلُ عليكَ الآيَ(صُنْعَ اللهِ) منْ ... (أتْقنَ كلَّ) ما رأيْتَ وترَى
ثمتَ يتْلُ (قدْخلتْ منْ قبْلِكُمْ) ... منْ سُننَ الحكيمِ في هذا الورَى
وأنّهنّ سننٌ ثابتةٌ ... مثلَ نظامِ الشّمْسِ فاتْلُ(والضُّحَى)
قامَ بهنّ أمْرُ كلّ عالَمٍ ... في أرْضِنا وفي السّمَوَاتِ العُلَى
ما ثمّ تبْديلٌ ولا تحْويلَ عنْ ... شيْءٍ ولا قوْمٍ فهمْ فيها سوَى
ناهيكَ بالإنْسانِ في اجْتماعِهِ ... طرْدًا وعكْسًا وأماما وورَا
يجْرِي على حكْمِ تنازُعِ البقَا ... في أرجحِ الأمْرين نَشْأً وارْتقا

---

(١) هذا تعليل لكون خلقه تعالى تاما كاملا لا نقص فيه ولا خلل ، وهو ان كل شيء فيها متعلق صفة من صفاته الكاملة ومظهر من معاني أسمائه الحسنى . وسما لغة بالضم في الاسم (٢) هذه الكلمة (ليس في الامكان أبدع مما كان) من كلمات الامام أبي حامد الغزالي التي انفرد بها وأنكرها عليه بعض العلماء بأنه يفهم منها عجز الخالق عن خلق ما هو اكمل من هذا العالم ، وأجاب عنه آخرون من وجوه كانت مجالا للجدال ، والمنكرون عليه متفقون معه على أن القدرة لا تتعلق إلا بالممكن فلا يقال ان الخالق لا يقدر على إيجاد شريك او ولد له او على ذاته ، وغلط بعضهم في هذا فأساء في التعبير، كما قاله الجلال في تفسير (وهو على كل شيء قدير) وما علمنا به المسألة اقوى ما يقال فيها مع تعظيم الخالق وتنزيهه عما لا يليق به ، وخلاصته انه لا يمكن وجود عالم ابدع وأكمل مما هو مظهر لصفاته وأسمائه الحسنى عز وجل ، ويؤيده ما أشرنا اليه من الشواهد القرآنية في الابيات التالية

كَرَاسِبِ الإِبْلِيزِ وَالإِبْرِيزِ إِذْ ... يَذْهَبُ طَافِي زَبَدِ المَاءِ جُفَا(١)
وسنَّةِ النِّتَاجِ بالزَّوَاجِ بَلْ ... كُلُّ تَوَالُدٍ تَرَاهُ فِي الوَرَى
يَظْهَرُ هذَا فِي المَوَالِدِ وفِي الْ ... جَمَادِ وَالتفكِيرِ ربما بدا
فاجْلُه فِي الحيوانِ ناطقًا ... وأَعجمًا وفي النَّبَاتِ المُجْتَنَى
بَلْ كُلُّ ذَرَّةٍ بِجِسْمٍ نَبْتَتْ ... زَادَ بِهَا الجِسْمُ امْتِدَادًا ونَمَى(٢)
خَلِيَّةٌ يُقْرَنُ فِي عُضْوِهَا ... نُوَيَّتَانِ تَنْثَنِي وَهِيَ زَكَا(٣)
والكَهْرَبَا زَوْجَانِ إِمَّا اقْتَرَنَا ... تَأَلَّقَ البَرْقُ وشِيكا وخَفَا(٤)
كالزَّنْدِ والزَّنْدَةِ إمَّا ازدَوَجَا ... بالاقتِدَاحِ أنتجَا نارَ الصَّلَى
والمُعْصِراتُ عند ما أَلْقَحَهَا الثَّ ... ائبُ جاءتْ بوليدِها الحَيَا(٥)
ولامَسَ البحارَ في سُكونِها ... فاعْتَلَجَ الآذيُّ فيها وطَمَا
والماءُ والتربةُ إذْ تقارنا ... تولَّدَت صمُّ الصخورِ والحَصَى
وافترَشَ الارضَ الحيا فانفتقتْ ... عن كل زَوجٍ يُرتعَى ويُجتنَى

(١) الابريز الذهب الخالص والابليز بوزنه هو الطين الذي يحمله النيل في فيضانه (طمي النيل) وفيه الاشارة إلى الآية الكريمة التي استدللنا بها على هذه السنة وهي قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية اومتاع زبد مثله، كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض، كذلك يضرب الله الامثال) والجفاء بالضم ما يرمي به الوادي والقدر على جوانبه من الرغوة والغثاء، وأنبيق الصائغ مثل القدر في ذلك (٢) نما ينمي نماء أفصح من ينمو نموا (٣) المراد بالخلية هنا معناها الاصطلاحي عند علماء النبات وهي هنة دقيقة لا ترى إلا بالآلة المكبرة تحوي السائل الحي الذي يكون به النمو، وقد ثبت انه يوجد فيه نواتان صغيرتان جدا تقترنان فتلدان خلية أخرى وهلم جرا. فهذا معنى: تنثني وهي زكا أي زوج (٤) خفا يخفو ظهر، وخفي (كرضي) يخفى استتر (٥) الثائب الرياح الشديدة التي تلقح السحاب الممطر، وتسمى المعصرات فتكون في اول المطر ومن البحر ماء المد الذي يفيض بعد الجزر

(٨) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (١٠) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١١) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

هذه الآيات معطوفة على قوله تعالى (ولئن قلت انكم مبعوثون) الخ وهي كلها بيان لحال الناس تجاه مابلغوه من دعوة الاسلام الحق من أول هذه السورة وهو التوحيد وبعثة محمد ﷺ نذيراً وبشيراً وما أنذر وبشر به من جزاء في الدنيا والآخرة ، والرجوع إلى الله بعد الموت وكمال الجزاء فيه ،وقد استدل على هذا بخلقه تعالى للسموات والارض إذ كان عرشه على الماء ، الذي هو الاصل لجميع الاحياء ، وعلله باختبار المكلفين بما يظهر به أيهم أحسن عملا . بعد هذا بين قصارى ما يقوله المنكرون للبعث منهم وقد تقدم ، ثم عطف عليه مايقوله المنكرون لانذار الرسول ﷺ إياهم عذاب الدنيا والآخرة بتكذيبهم له فقال :

---

٨ ـ ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ الآية شرطية مؤكدة بالقسم والمراد بالعذاب ماتقدم من قوله (وإن تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) على مااخترناه فيه ، والامة هنا الطائفة أو المدة من الزمن ومثله في سورة يوسف (وادّكر بعد أمة) وأصلها الجماعة من جنس أو نوع واحد أو دين واحد أو زمن واحد ، وتطلق على الدين والملة الخاصة والزمن الخاص . أي والئن أخرنا عنهم العذاب إلى جماعة من الزمن معدودة في علمنا ومحدودة في نظام تقديرنا ، وسنتنا في خلقنا ، المبين في قولنا (لكل أجل كتاب) أو إلى أمة قليلة من الزمن

تعد بالسنوات، أو مادونها من الشهور أو الايام ﴿ ليقولُنَّ : مايحبسه ﴾ يعنون أي شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقا كما يقول هذا النذير ؟ وانما يقولون هذا ويستعجلون بالعذاب انكاراً له واستهزاءاً به ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ﴾ أي ألا إن له يوما يأتيهم فيه إذ تنتهي الامة المعدودة المضروبة دونه ، ويومئذ لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه حابس ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾ وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزءون به من العذاب قبل وقوعه، فلا هو يصرف عنهم ولا هم ينجون منه، عبر بحاق الماضي للايذان بتحقيق وقوعه حتى كأنه وقع بالفعل، وعبر عن الفاعل بما الموصولة بفعل الاستهزاء المستمر للايذان بعليته وسببه ، وهذا الموضوع قد تقدم في سورة يونس مفصلا في الآيات ٣٩ و ٤٥ـ٥٥ وبينا في تفسيرها حكمة إبهام هذا العذاب بما يحتمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة مع الشواهد من السور

٩ ـ ﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ﴾ هذا وما بعده بيان لحال الانسان في اختبار الله له في قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي لئن أعطيناه نوعا من أنواع النعمة رحمة منا مبتدأة أذقناه لذتها ، فكان مغتبطا بها ، كالصحة والامن وسعة الرزق والولد البار ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ بما يحدث من الاسباب بمقتضى سنتنا في الخلق من مرض وعسر وفتن وموت ﴿ إنه ليئوس كفور ﴾ أي إنه في هذه الحال لشديد اليأس من الرحمة ، قطوع للرجاء من عودة تلك النعمة، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها ، فضلا عما سلف منها ، فهو يجمع بين اليأس مما نزع منه ، والكفر بما بقي له لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر

١٠ ـ ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ النعماء بالفتح اسم من أنعم عليه إنعاما ـ كالنعمة بالكسر والنعمى بالضم ـ وهي ما يقابل بالضراء من الضر الذي يقابل به النفع ، ولم ترد النعماء في التنزيل إلا في هذه الآية . وهذه الاذاقة أخص

مما قبلها ، وهي تتضمن كشف الضراء السابقة وإحلال ماهو ضدها محلها، كالشفاء من المرض وزيادة العافية والقوة السابغة ، والخروج من العسر والفقر ، الى سعة الغنى واليسر ، والنجاة من الخوف والذل ، الى بحبوحة المنعة والعز ، يقول تعالى ولئن منحنا هذا الانسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها ونعمتها ، بعد ضراء مسته باقترانه لأسبابها، إثر كشفها وإزالتها ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي ذهب ما كان يسوءني من المصائب والضراء فلن تعود ، فما هي إلا سحابة صيف تقشعت فعلي أن أنساها بالتمتع باللذات ﴿ انه لفرح فخور ﴾ أي إنه في هذه الحالة لشديد الفرح والمرح الذي يهيجه البطر بالنعمة، ومبالغ بالفخر والتعالي على الناس والاحتقار لمن دونه فيها ، فهو لايقابلها بشكر الله عليها

روي أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقيل في عبد الله ابن أمية المخزومي ، والمراد أنها موافقة لحالها ، وهي انما نزلت في ضمن السورة لبيان حالة الناس العامة ولذلك استثنى منها قوله تعالى

١١-﴿ إلا الذين صبروا ﴾ هذا استثناء من جنس الانسان فيما ذكر من حاليه في الآيتين قبله : الكفر بأنعم الله واليأس من رحمته عند زوال شيء منها، وفرح البطر وعظمة الفخر بها عند اقبالها ، يقول إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانا بالله واحتسابا للأجر عنده ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ عند كشفها ، وتبديل النعماء بها ، من شكره تعالى باستعمال النعمة فيما يرضيه تعالى من عمل البر وغير ذلك من عبادته وشكره ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ واسعة من ربهم تمحو من أنفسهم ماعلق بها من ذنب أو تقصير ﴿ وأجر كبير ﴾ في الآخرة على ما وفقوا له من بر وتشمير ، فان الانسان وإن كان مؤمنا باراً لايسلم في الضراء والمصائب من ضيق صدر ، قد ينافي كمال الرضى أو يلابس بعض الوزر ، وفي حال النعماء من شيء من الزهو والتقصير في الشكر ، وكل منهما يغفر له بصبره وشكره ، وإنابته إلى ربه.

ويناسب هذه الآيات من سورة يونس (١٠: ١٢ واذا مس الانسان الضر

دعانا) الخ . وقوله (٢١ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم) إلى آخر الآية ٢٣ فراجع تفسيرهن [1] مع تفسير (٥٨ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) [2] تعلم أن هذه المعاني المكررة بالاساليب المختلفة البليغة ما أنزلت إلا لهدايتك لما تزكي به نفسك وتثقف طباعها وعاداتها الضارة ، والجامع للمراد هنا بأخصر عبارة وأبلغها سورة (والعصر إن الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

---

(١٢) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ؟ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟

بدئت هذه السورة بذكر القرآن وموضوع دعوته العامة وحال الناس فيها ، وبيان طباعهم وشئونهم الرديئة إلا ماهذبته هداية الدين منها ، وهذه الآيات خاصة بتكذيب المشركين للرسول ﷺ والقرآن ، وقد بدئت ببيان غمه وحزنه وضيق صدره ﷺ من تكذيب قومه وتأكيد تبليغه ، ويليه تحديه به لاثبات وحيه .

---

١٢ ﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك ﴾ المتبادر إلى الفهم من جملة لعل بحسب موقعها هنا الاستفهام الانكاري المراد به النهي أو النفي ،

---

١) راجع ص ٣١٣ و ٣٢٣ وما بعدها من ج ١١ تفسير (٢) راجع ص ٤٠٥ منه

أي أفتارك أنت أيها الرسول بعض مايوحى اليك مما يشق سماعه على المشركين من الامر بالتوحيد والنهي عن الشرك والانذار والوعيد الشديد لهم والنعي عليهم وضائق به صدرك أن تبلغهم إياه كله كما أنزل كراهة ﴿ أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ﴾ أي هلا أعطاه ربه كنزا من لدنه يغنيه في نفقته ويمتاز به على غيره ، فالكنز مايدخر من المال في الارض ، عبروا به عما ينال بغير كسب ، وبانزاله عليه على كونه من عند الله يخصه به ﴿ أوجاء معه ملك ﴾ يؤيده في دعوته ، وهم قد قالوا ذلك كما جاء في سورة الفرقان (٢٥ : ٧ وقالوا ماهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً ٨ أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ؟) أي ان ضيق الصدر وكتمان بعض الوحي مما يخطر بالبال ، وشأنه أن تقتضيه الحال بحسب المعهود من طباع الناس ، فهل أنت مجترح لهذا الترك ، أو مستسلم لما يعرض لك بمقتضى البشرية من ضيق الصدر ؟ كلا لا تفعله ، فهو كقوله (١٦ : ١٢٧ ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) وقوله (٧ : ١ المص ٢ كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) وقوله (١٨ : ٦ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقوله (٢٦ : ١ طسم ٢ تلك آيات الكتاب المبين ٣ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ٤ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي لعلك قاتلها غما وانتحاراً ؟ أي لا تفعل ، وحاصله أن عنادهم وجحودهم واعراضهم عن الايمان وشدة اهتمامك بأمرهم فيما ليس أمره بيدك مما شأنه أن يفضي الى ذلك لولا عصمتنا إياك وتثبيتنا لك ، فهل تصر عليه حتى تبخع نفسك ؟ لا لا . ويوضح هذا المعنى في كون الارشاد مبنياً على بيان الواقع في تلك الوقائع قوله تعالى (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا)

﴿ إنما أنت نذير ﴾ فعليك أن تبلغ جميع ما أمرت أن تبلغه وتنذر به في وقته وإن ساءهم وأطاق ألسنتهم ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ أي هو الموكل بأمور

العباد والرقيب عليهم فيها وليس عليك منها شيء، لأنها من أمور الخلق والتدبير، لا من موضوع التعليم والتبليغ ، الذي هو وظيفة الرسل كما قال في آيات أخرى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء * فذكر انما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)

ومن مباحث اللغة في الآية ان كلمة (لعل) للترجي والتوقع وفي لسان العرب انها رجاء وطمع وشك . وقالوا انها من الله تعالى للقطع في مثل قوله (واتقوا الله لعلكم تفلحون) وقال شيخنا انها للإعداد والتهيئة ، أي ليعدكم ويؤهلكم للفلاح بالتقوى . وحققنا انها قد تكون لاطماع المخاطب واحداث الرجاء عنده وهو مروي عن سيبويه . وحصر ابن هشام معانيها في ثلاث (١) التوقع وهو ترجي المحبوب والاشفاق من المكروه (٢) التعليل قال وحملوا عليه قوله تعالى في فرعون (لعله يتذكر أو يخشى)(٣) الاستفهام وأسنده الى الكوفيين (أقول) واذا كانت للاستفهام يدخل فيه أنواعه كاستفهام الانكار المراد به النهي أو النفي واختاره بعضهم في هذه الآية قبلنا

١٣ـ ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ أي بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة ان محمداً قد افترى هذا القرآن ؟ قل لهم أيها الرسول : إن كان الامر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم لا تدعون انها من عند الله ، فانكم أهل اللسن والبيان ، والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة ، وفنون الشعر والخطابة ، ولم يسبق لي شيء من ذلك في هذا العمر الطويل الذي عشته بينكم ، وهو أربعون سنة ، فان كان من جنس كلام البشر فأنتم به أجدر ، وإن كانت أخباره عن الله تعالى وعن عالم الغيب عنده وقصصه عن الرسل وأقوامهم مفتريات فأنتم على مثلها أقدر، فانكم تعلمون أني أصدقكم لسانا لم أكذب على بشر قط، فكيف أفتري على الله عز وجل؟ وأنتم تفترون عليه؟ باتخاذ الآلهة معه والبنات له والشفعاء عنده، وتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام، وغير ذلك من الزرع

والانعام . وان كنتم تزعمون ان لي من يعينني على وضعه ممن لا وجود لهم بالفعل ولا بالامكان ، فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله ومن جميع خلق الله ليساعدوكم على الاتيان بهذه السور العشر، ولتكن مثله مفتريات ان كنتم صادقين في دعواكم، بأن تكون مشتملة على مثل ما فيه من تشريع ديني ومدني وسياسي وحكم ومواعظ وآداب وأنباء غيبية محكية عن الماضي وأنباء غيبية على أنها ستأتي ، بمثل هذه النظم البديعة ، والاساليب العجيبة ، والبلاغة الحاكمة على العقول والالباب ، والفصاحة المستعذبة في الاذواق والاسماع ، والسلطان المستعلي على الانفس والارواح ، اذا كان ما تحديتكم به أولا من سورة واحدة لا يتسع لكل الاجناس والانواع ، أو فأتوا بنوع مما تدعون افتراءه كالقصص في علومها وحكمها وهدايتها ، مكررا كتكراره لكل أنواعها ، هذا التكرار الذي لا تبلى جدته ، ولا تمل إعادته

هذه الآية كالآية ٣٨ من سورة يونس إلا ان التحدي في تلك بسورة مثله مطلقا، وفي هذه بعشر سور مثله مفتريات، وقد وعدت في تفسيرها (١) بالكلام على حكمة التحدي بعشر سور عندما أصل الى تفسير آية سورة هود هذه، ثم بدا لي أن أبينها هناك مجملة لئلا تخترمني المنية قبل بلوغ هذه الآية فبينتها في جواب ما يرد من الشبهة على المتكلمين في اعجاز البلاغة (٢)

بل سبق لي أن بينت حكمة التحدي بعشر سور مثله مفتريات في تفسير آية سورة البقرة التي هي آخر آيات التحدي نزولا (٣) ووضحت ذلك في الفصل الملحق به الذي عقدته لبيان وجوه الاعجاز ولا سيما الوجه الاول منه وهو اعجازه بأسلوبه ونظمه بل نظمه العديدة وأساليبه الكثيرة في سوره المائة والاربع عشرة (٤)

خلاصة ما تقدم ان المفسرين الذين لم يؤتهم الله تعالى حكمة التحدي بعشر سور مفتريات زعموا ان الله تعالى تحدى فصحاء قريش الذين هم أفصح العرب ومن دونهم من سائر الخلق بالاتيان بمثل هذا القرآن في جملته ، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور مثله ، فلما عجزوا تحداهم بسورة واحدة مثله ثم بسورة من مثله، ولكن هذا الترتيب

(١) راجع ص ٣٦٨ من الجزء الحادي عشر
(٢) ص ٣٧١ ج ١١ (٣) ص ١٩٣ ج ١ (٤) ص ١٩٨ منه

لم يصح به نقل ، بل المروي في ترتيب نزول السور يخالفه فان سورة هود نزلت عقب سورة يونس ، وأجاب بعضهم بأن نزول سورة قبل أخرى لايقتضي نزول جميع آياتها قبل جميع آياتها ، وهذا الجواب انما يقال فيما تصح الرواية في تأخر نزوله وتقدمه ، ولا يصح بالتحكم المحض ، فيما هو خلاف الاصل الثابت بالنقل ، وأبعده عن التصور أن يكون في موضوع واحد في سورتين متعاقبتين

وسبب غفلتهم عن هذه الحكمة أنهم لم يطلبوها من التأمل في سور القرآن وما فيها من وجوه الاعجاز المكررة في سوره لانهم اعتادوا أن يطلبوا معانيه من الروايات المأثورة على قلتها وقلة مايصح منها ، ومن مدلول كل آية منها وحدها في مفردات اللغة وجملها ، بمقتضى القواعد الفنية أو الفقهية وأصولها ، وقد بينت في تفسير آية البقرة ان أقوى شبهة للمعترضين على دعوى الاعجاز بالفصاحة والبلاغة أن المعنى الواحد الذي يمكن التعبير عنه بعبارات مختلفة قد يسبق بعض الفصحاء الى أعلى عبارة له وأبلغها ، بحيث يكون كل ماعداها دونها ، وانه لايدل على ان السابق لها قد تلقاها بوحي من الله تعالى . فان مثله يوجد في كل اللغات ، وذكرت مثلا لهم من القرآن على هذا وأجبت عنها بأن القرآن يعبر عن المعاني الكثيرة بالعبارات المختلفة التي تعد كل منها في أعلى الدرجات ويعجز عنها جميع البلغاء . ثم بينت في مباحث الوحي من تفسير سورة يونس ان القاموس الاعظم لاعجاز القرآن اللفظي هو تكرار المعنى الواحد بالعشرات والمئات من العبارات المختلفة في النظم والاسلوب وبلاغة العبارة وقوة تأثيرها في قلوب القارئين والسامعين لها ، وعدم وقوع الاختلاف بالتناقض أو التعارض في شيء منها كما قال (٤ : ٨٢ أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وانما يظهر هذا الاعجاز بنوعيه في السور المديدة ، وبينت في تفسير آية يونس وجه وصفها بمفتريات

وأعود هنا الى بسط المسألة وفاء بالوعد فأقول

الضمير المنصوب في افتراه يعود الى القرآن للعلم به من سياق تبليغه وقد حكى عنهم هذه التهمة في سور أخرى منها ما تقدم قريبا في سورة يونس، وفيها وجهان (١) انه افتراه في جملته باسناده الى الله تعالى وادعائه انه كلامه أوحاه اليه وقدمت الجواب عنه آنفا (٢) انه افترى أخباره التي يدعي انها من عند الله اذ لا يعلمها غيره وقد استدل بها على نبوته كما بينته في مباحث الوحي وفي تفسير آية يونس. وقد حكى الامرين عنهم في سورة الفرقان بقوله (٢٥ : ٤ وقال الذين كفروا : إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاؤا ظلما وزورا (٥) وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٦) قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما) فأساطير الاولين قصصهم وأكاذيبهم التي سطروها، وكانت العرب تسلي نفسها عن جهلها بالأديان والتواريخ بزعمهم أنها خرافات وأكاذيب، فالتحدي بالسور العشر هو الذي يفند هاتين التهمتين الموجهتين اليه ﷺ بأنهض حجة علمية عملية، لاجدلية

وبيانه أن هذا التحدي بالعشر يثبت به من بطلان دعواهم مالا يثبت بالعجز عن سورة واحدة، ولا سيما اذا كانت قصيرة، ولهذا حسن مجيئه بعد التحدي بسورة واحدة مطلقاً، خلافا لرأي الجمهور الذين غفلوا عن هـذا المعنى فظنوا أن التحدي بالعشر بعد العجز عن الواحدة لا وجه له، لأن من عجز عن واحدة كان أعجز عن اثنتين فضلا عن عشر، فتفصوا من هذا بدعوى الترتيب المتقدم، وهو إنما يصح اذا كان موضوع التحدي متحدا مطلقا وهو هنا مختلف ومقيد

ذلك بأن افتراء الاخبار المدعى في القرآن نوعان (أحدهما) أنباء الغيب الماضية وهي قسمان (١) قصص الرسل مع أقوامهم وقد تحدى بها من ناحية كونها غيبا لم يسبق له ﷺ علم بها كما بيناه في محله ومنه مايأتي التصريح به في هذه السورة وما بعدها وفي غيرهما (٢) اخبار التكوين كخلق السموات والارض وما فيهما وما بينهما كخلق الانسان والجان، ولا أذكر انه صرح بالتحدي بها

تحديا خاصا ، ولا انهم كذبوا بها وأنكروها ، فهي لم تكن موضع نزاع ؛ وكذلك أخبار السنن العامة في الخلق الواردة في سياق تعداد النعم كما تراه في سورة النحل، أو سياق آيات الله تعالى وحججه على عباده كما تراه في سورة الروم ، وإنما جعلت هذه كلها قسما واحدا في هذا البحث لانها ليست داخلة في تهمة الافتراء

(وثانيهما) أنباء الغيب الآتية وهي قسمان أيضا (١) وعد الله بنصر رسوله والمؤمنين وجعل العاقبة لهم واستخلافهم في الارض ، وبخذلان أعدائه وأعدائهم الكافرين والانتقام منهم وتعذيبهم في الدنيا قبل الآخرة وهو ما كانوا يمارون به ويكذبونه (٢) القيامة وبعث الخلق وحسابهم وجزاؤهم بعقائدهم وأعمالهم ، وهو ما كانوا ينكرونه ويستبعدونه

فأخبار الغيب التي كانوا يكذبونها ويزعمون أنها مفتراة هي ثلاث (١) اخبار الآخرة (٢) أخبار وعد الله لرسوله وللمؤمنين ووعيده لاعدائه في الدنيا، وكلاهما من أنباء الغيب المستقبلة التي لا يظهر صدقها الا بتأويلها أي وقوع مدلولها (٣) قصص الرسل عليهم السلام وهي أمور قد وقعت بالفعل، وهاك كلمة تفصيلية في عدد العشر في كل منها، يعلم بها ترجيح الثالث الذي سموه أساطير الاولين وهو المختار عندنا

فأما آيات البعث والجزاء فكثيرة في جميع أنواع السور من أطولها الى أقصرها التي هي سور قصار المفصل . وقد تكلمنا على وجه الاعجاز بتكررها المبثوث في مئات المواضع من السور الكثيرة المختلفة النظم بالاساليب العجيبة والبلاغة الدقيقة في الركن الثالث من أركان المقصد الاول من مقاصد القرآن، وأقول هنا ان قصار المفصل المكية التي نزلت قبل سورة هود ويحتمل ان تكون مرادة من هذه العشر كلها أو بعضها هي التين والعاديات والقارعة والتكاثر والهمزة واللهب، فلا بد من تكميلها مما قبل سورة الضحى ، ولا يظهر للتحدي بعشر مفتريات منها معنى لا يوجد في السورة الواحدة ولا سيما اذا كانت طويلة ، فهي غير مرادة بالعشر

وأما آيات وعد الله لرسوله وللمؤمنين بالنصر، ووعيده الدنيوي للكافرين بالخذلان والعذاب ، فلا يوجد في قصار المفصل شيء صريح منها ولكن اشارات في بعضها (منها) سورة الكوثر وهي أقصر سورة في القرآن، ففيها الوعد الصادق

للنبي ﷺ باعطائه الخير الكثير الديني والدنيوي ومنه الغنى بعد الفقر الذي كان أغنياء قومه يعيرونه به ، والوعيد الصادق لعدوه العاص بن وائل الذي سماه أبتر عند موت ابنه القاسم ، بأنه هو الابتر الذي سينقطع ذكره بنسله وغير نسله ، ويتضمن هذا الحصر الاضافي بقاء ذكره (ص) بذريته وبآثار هدايته . وكل ذلك وقع بالفعل ، وقد بينت خلاصة تفسيرها في بحث إعجاز السور القصار من تفسير التحدي بآية سورة البقرة[1] (ومنها) سورة اللهب بناء على أن الجملة الاولى منها خبر بهلاك أبي لهب وامرأته ، واذا قيل إنها دعاء فمعناه الخبر وقد صدق ، فقد مات أبو لهب شر ميتة خارج مكة وبقي ملقى حتى تفسخ وأنتن ، وكان ذلك بعد غزوة بدر بأيام ، وهي أول انتقام الله من عتاة قريش وتصديق وعده لرسوله في قوله (يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) ومثلها الوعيد في سورة العلق ، وقد نزل في أبي جهل وصدق بقتله في غزوة بدر أشر قتلة . وفي معناها الوعيد في سورة المدثر من وسط المفصل وقد نزل في الوليد بن المغيرة وهو يشمل وعيد الدنيا والآخرة وقد صدق ووقع ـ فهذه أربع سور من قصار المفصل ووسطه ، والوعد والوعيد فيها خاص بالنبي ﷺ وأشد العتاة الذين بارزوه العداوة ، ولكن لم يكن أحد من قريش بعد ذلك ـ ممن كانوا ينكرونه ـ من الوعد له والوعيد لهم لانه جزئيات متفرقة مجملة ، لا وقائع فاصلة ، فهي غير مرادة بالعشر أيضا

ومن الوعيد العام للكفار كلهم في وسط المفصل قوله تعالى في سورة الجن من تبليغه ﷺ الدعوة (حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا * قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا) الخ وهذا بعد الوعد فيها بقوله (وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا)

وجملة القول انه ليس في قصار المفصل ولا في أوسطها عشر سور ناطقة بالوعد والوعيد الدنيويين فتكون هي المرادة بالتحدي

وأما طوال المفصل ففيها شيء من الوعد والوعيد المبهم في سورة الذاريات والطور والنجم والقمر بمناسبة ذكر أقوام الرسل الذين انتقم الله منهم في الدنيا ،

(١) ص ٢٢٦ ج اول

ثم في سور الملك والقلم والحاقة والمعارج ، ومجموع مافيه يزيد على عشر ، إن أريد التحدي بها أو دخولها فيما يتحدى بها في الآية، وانما الصريح من الوعد والوعيد الذي هو الاحرى بأن يكون المراد فاعاهو في السور الطويلة مما فوق المفصل، ولكن هذا النوع كالذي قبله لايظهر فيه تخصيص التحدي بعشر مفتريات لانه مشترك مع الذي بعده في سوره ، ولان موضوعه مما لايعرف صدقه لذاته الا بوقوعه

وجه التحدي بعشر سور من قصص القرآن

وأما قصص الرسل عليهم السلام فهي التي تظهر فيها حكمة التحدي بالسور العشر على اتمها وأكملها من الوجوه اللفظية والمعنوية المختلفة ، ويكون العجز عن معارضتها أقوى حجة وبرهانا على كونها من عند الله تعالى لا مفتراة من عند محمد ﷺ وحده ، ولا مما أعانه غيره عليه كما تصوروا وزوروا ، لان العجز عن مثلها عام كما سنفصله ، على أن محمدا ﷺ بدأ بهذه الدعوة بالقرآن وحده وكان يتبعه الواحد بعد الواحد من أصدق الناس وأسلمهم فطرة مستهدفين باتباعه للايذاء والاضطهاد ، ولولا الايمان بوعد الله لهم ووعيده لاعدائهم لما كان لأحد منهم أمل بالسلامة من الهلاك ، فأي باعث يبعثهم على التعاون معه على تزوير كتاب على الله عز وجل يعادون به كبراء قومهم وعصبية أمتهم بما يفرقون به كلمتها ويضعفونها ويذلونها ؟ وكيف يعرضون أنفسهم للهلاك ، ويعرض المتمول منهم ماله للزوال لتأييد الكذب والافتراء ، على فرض انهم غير مؤمنين، وانهم قادرون على الاتيان بمثل هذا القرآن ؟ كل ذلك بديهي البطلان

والفرق بين هذه القصص وسائر أخبار الغيب المستقبلة المكرر منها كوعيد الدنيا ووعدها وجزاء الآخرة ، وغير المكررة كالأمثال المضروبة لايضاح الحقائق أو للعبرة في سور النحل والكهف والقلم وغيرهن، أن موضوعها وقائع بشرية تاريخية لها روايات متواترة في جملتها، بعضها مدون عند أهل الكتاب وغيرهم، وبعضها محفوظ عند العرب كأخبار عاد وثمود وابراهيم واسماعيل ، فدعوى افترائها من أصلها مكابرة ظاهرة البطلان ، والكلام فيها بغير علم عرضة لضروب من الخطأ

اللفظي ، وتكراره مزلة في مداحض التعارض والاختلاف المعنوي ، والتفاوت والخطل البياني ، ويظهر ذلك لكل أحد منهم ، لانه من جنس معارفهم وما يعهدونه بينهم ، لا كأمور الغيب في غير عالمهم ، فتحديهم بعشر سور من جنسها كالتحدي بمعارضة مقامات الحريري لمقامات بديع الزمان وأمثالها ، يمكن لاهل اللسان أن يحكموا فيه بالتفاضل بينهما في بيانهما وحكمتهما ومعانيهما (*)

---

*) أسلوب مقامات البديع عربي عادي سهل جعل فيها اللفظ وسيلة لفهم المعنى المراد ، وهو الاصل في كل اللغات ، وأسلوب مقامات الحريري صناعي متكلف لم يعهد مثله في كلام العرب ، جعل اللفظ فيه مقصوداً لذاته ، والمعنى تابعاً له ، ووسيلة لحفظه ، فمن الجمع فيه بين المهمل والمعجم ، مالا يسيغه الاذوق الاعجم ، ومن تكلف الجناس الذي صنع لزيد الألفاظ حسناً ، ما يشوه المعاني ويزيدها قبحاً ، كالجناس المصحف في أبياته التي أولها :

زينت زينب بقد يقد وتلاه ويلاه نهد يهد

فلو سمع هذا الشعر فحول الشعراء الجاهليون ، وقرومهم المخضرمون ، وفرسانهم المولدون ، لولوا فراراً منه وهم يجمحون ، وانما أعجب بمقاماته بلغاء الأدباء ، وكبار العلماء ، لجمعه فرائد اللغة بعبارات مرصوفة يسهل حفظها ، وهذا إبداع قد يعسر على أحفظ رواتها ، ولذلك قال الزمخشري فيها :

معجزة تعجز كل الورى ولو سروا في ضوء مشكاته

فهذا النوع المدعى من الاعجاز فيه إنما هو مبالغة في استحسانه في بابه ، وهو مما يقال في كل زمان في كل كلام له مزية ، وما هو بمعجز في نفسه ، وقد عورض كل ما يؤبه له من ذلك بمثله أو بما يفوقه ، وهو في مكان بعيد من إعجاز القرآن كما فهمه العرب السليقيون ، والمولدون الجامعون بين ذوق اللغة وفلسفتها الصناعية . وإن بقي موضع خفاء وشبهة عند من بعدهم ، حتى تجرأ بعض جهلة المقلدين من الاعاجم كالباب والبهاء والقادياني على دعوى إعجاز بعض هذيانهم من كلام سخيف قلدوا فيه القرآن بفواصل متكلفة لا تستحق إلا السخرية ، وقد أشرنا الى هذا في الكلام على التحدي من كتاب (الوحي المحمدي) وغيره وسنبسطه في موضعه كما وعدنا

وقد جاءت أخبار الانبياء مكررة في السور المكية على درجات في قلتها وكثرتها تبتدئ بالآية والآيتين والثلاث لبعض هؤلاء الرسل في بعض السور، وترتقي في بعضها الى منتهى جمع القلة أو تزيد قليلا، كما تراه في آل حم من فصلت الى الاحقاف، وفي أثناء سور الفرقان و (ق) والذاريات والنجم، وفي أول الحاقة والفجر وآخر البروج، فهذه سور تزيد على عشر فيها جميع أنواع الاعجاز اللفظي والمعنوي، ولكن هذه الاخبار فيها عبر لا تبلغ أن تكون قصصا

وأما القصص فقد تبلغ في بعض سورها عشرات الآيات كيونس وابراهيم والحجر والمؤمنون والعنكبوت، وتمد في بعضها بالصفحات لا بالآيات، ومنها ما أكثره في هذه القصص كالاعراف ومريم والنمل. ومنها ما ليس فيه من غيرها الا خاتمة مختصرة كيوسف وطه والانبياء والشعراء والقصص، أو فاتحة هي براعة مطلع وخاتمة هي براعة مقطع، كهود والصافات وص، وفي قصة نوح عليه السلام سورة في المفصل خاصة به وبقومه سميت باسمه على تكرارها في السور المختلفة، وكذلك سورة يوسف عليه السلام خاصة بقصته. كما ان سورتي طه والقصص في قصة موسى عليه السلام وحدها، على كثرة تكرارها في غيرها

بيد ان التحدي بالسور التي فيها القصص انما يراد به التحدي بها كلها، لا بالقصص التي فيها دون غيرها، وقد علمت انه لا يوجد في القرآن عشر سور ولا خمس ليس فيها شيء سواها، وان أكثر السور التي فيها القصص الحقيقية وسط بين الطُوَل والمفصَّل، فالاولى منها في المصحف وهي الاعراف من السبع الطول وآياتها ٢٠٦ وآيات القصص فيها ١١٢ آية، وقبلها قصة النشأة الانسانية وافتتاحها وختامها في دعوة الاسلام، وبعدها فيه سورة يونس وهي ١٠٩ آيات وقصصها ٢٣ آية، وتتلوها سورة هود، وآياتها ١٢٣ أكثرها في القصص وهي أشبه السور بها في فاتحتها وخاتمتها وتحديها في إبطال الافتراء، والمأثور انها نزلت بعدها متممة لها كما تقدم، فجملة ما نزل قبل سورة هود من سور القصص : الاعراف ويونس ومريم وهي ٩٨ آية وطه وهي ١٢٥ والطواسين : الشعراء وهي ٢٢٧ والنمل وهي ٩٣ والقصص وهي ٨٨ وآياتهما أطول من آيات

الشعراء ونزلن متعاقبات . ويليهن سورة القمر وهي ٥٥ وسورة ص وهي ٨٨ وقد نزلتا متعاقبتين بعد ماتقدم كله، فهذه تسع سور وسورة هود هي العاشرة لهن

مزايا قصص القرآن في اعجاز عباراتها

وجميع هذه السور تختلف أناظيم سورها في أوزانها وفواصلها ، وفي أساليب الكلام فيها ، مع اتفاقها وتشابهها في الفصاحة والبلاغة البيانية ، في الفصل والوصل ، والقصر والحصر ، ومواضع حروف العطف ، وصيغ الاستفهام والنفي والشرط ، والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، ودرجات التأكيد ، والاطلاق والتقييد ، والعموم والتخصيص ، والاجمال والتفصيل ، والايجاز والتطويل ، والحذف والتكرير ، وفنون المجاز والكناية والتعريض ، وغير ذلك من ألوان التعبير ، كالالتفات والتضمين ، وصيغ الافعال وتعديتها ، والقراءات التي تختلف معانيها ، فان لعبارات القرآن في ذلك كله من الدقة الغريبة ، والمعاني العجيبة ، مالا يقرب منه شيء من كلام بلغاء البشر ، ومن شأن اختلاف القصة الواحدة فيه ان تتعارض وتتناقض بتعدد التكرار وهي محفوظة منه وقد عرضت لنكت الاختلاف بينها في المقابلة التي أوردتها في قصص سورة الاعراف مع غيرها

ثم انك تجد لكل لون من هذه الالوان من التعبير ، نغما خاصا به في الترتيل ، ولكل منهما نوعا جديدا من التأثير ، فاستمع لمرتل قصة موسى في سورة طه ساعة (زمانية لا فلكية) وفي سورة الشعراء ساعة ثانية ، وفي سورة القصص بعدها وهي الثالثة الاخرى ، وتأمل ما تجد من الفرق بينهن في سمعك ، متدبرا ماتشعر به من الخشوع والعبرة في قلبك ، والقصة واحدة ، ثم جرب هذه المقارنة في القصص المتعددة من السور المختلفة في النظم والاسلوب كهود والنمل ومريم والانبياء والصافات وص والقمر ، تجد العجب العجاب ، ولا تنس أنها جاءت على لسان رجل لم يكن من رجال البيان في يوم من الايام

اذا فطنت لما ذكر كله بدا لك ان عجز البشر عن معارضة هذه القصص في جملة سورها ، بفصاحتها وبلاغتها في كل أسلوب من أساليبها ، وكل نظم من

أناظيمها . لايتحقق في سورة واحدة أو ثنتين أو ثلاث منها ، وها أنذا قد ذكرت لك عشرا منها مختلفات متفقات ، متشابهات غير متشابهات ، ولكن حكمة العشر إنما تظهر على أكملها في الاعجاز المعنوي ، فألق السمع الى ماألقيه اليك منها

مزايا قصص القرآن في اعجازها العلمي

ان وراء هذه الالوان والاشكال من الاعجاز الصوري ، لأشعة من ضياء العلم والهدى والاعجاز المعنوي ، هي أظهر وأجلى ، وأدق وأخفى ، وأجل وأعلى ، ومجيئها على لسان كهل أمي لم يكن منشئا ولا راوية ولا حافظا ، أدل على كونها من عند الله تعالى ، فتأمل ماأذكرك به من مزاياها الدينية والعلمية وغيرها المتشعبة منها

(١) بيان أصول دين الله العامة المشتركة بين جميع أنبيائه المرسلين من الايمان بوجوده وتنزيهه وتوحيده وعلمه وحكمته ، ومشيئته وقدرته ، وعدله ورحمته ، وغير ذلك من صفاته ، والايمان بالبعث والجزاء ، والامر بالمعروف والبر والاحسان وسائر الاعمال الصالحات ، والنهي عن الفواحش والمنكرات العامة

(٢) بيان ان وظيفة الرسل تبليغ وحي الله تعالى لعباده وانهم لايملكون فيما وراء التبليغ نفعاً للناس ، لادينيا كالايمان والتقوى ، ولا دنيويا كالرزق والصحة ، ولا كشف ضر عنهم كذلك ، فقد كان أبو ابراهيم وابن نوح وامرأته وامرأة لوط من الكافرين

(٣) شبهة الاقوام على رسلهم بأنهم بشر ، وان آياتهم سحر ، واقتراحهم عليهم نزول الملائكة والآيات الكونية الحسية ، وردهم عليهم بأن آياتهم من فعل الله تعالى لا من كسبهم بقدرتهم

(٤) بيانهم لأقوامهم ان هداية الدين سبب لزيادة النعم في الدنيا وحفظها كما أنها هي التي تنال بها سعادة الآخرة ، وان كلا منهما من كسبهم الاختياري

(٥) آيات الله وحججه على خلقه في تأييد رسله وطرق الانذار والتحدي وما أكرم الله به أنبياءه من الخوارق الخاصة كالاولاد لابراهيم وزكريا ومريم ، وما ابتلى الله تعالى به يوسف عليه السلام وما آتاه من العلم والحكم وتأويل الاحاديث (الرؤيا) وما كان من عاقبة اصطفائه له ومن ادارته لملك مصر ، وقصته مع أبيه واخوته وما فيها من العبرة والموعظة

(٦) نصائح الانبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم كقوم نوح في غوايتهم وغرورهم، وآل فرعون وملئه في ثروتهم وعتوهم، وقوم لوط في فحشهم، وعاد في قوتهم وبطشهم، وثمود في اشرهم وبطرهم، ومدين في تطفيفهم واخسارهم لمكاييلهم وموازينهم، وبني اسرائيل في تمردهم وجحودهم،

(٧) بيان سنن الله تعالى في استعداد الناس النفسي والعقلي لكل من الايمان والكفر، والخير والشر، والهدى والضلال، واستكبار الرؤساء والزعماء المترفين والمقلدين للآباء عن الايمان والاصلاح، وكون أول من يهتدي به المستضعفين والفقراء، وفي عاقبة الكفر والجحود، والبغي والظلم والفسوق

(٨) ما في قصص الاقوام من المسائل التاريخية والوضعية والوطنية كفرعون وحال قومه معه في خنوعهم وخضوعهم، وفنونهم وسحرهم، وعمرانهم وعظمة ملكهم، وحال بني اسرائيل معه في استعباده إياهم وظلمه لهم، ثم في إرثهم الارض المقدسة بصبرهم وصلاحهم، ثم في سلبها منهم بكفرهم وفسادهم، وحال عاد قوم هود في قوتهم وبسطة خلقهم وجبروتهم وثمود قوم صالح في استعمارهم الارض ونحتهم الجبال واتخاذهم منها بيوتا حصينة أمينة، ومن سهولها قصورا جميلة، وغير ذلك، وكون كل ذلك لا يغني عن هداية الوحي الالهي في إصلاح أنفسهم وتزكيتها واعدادها لسعادة الآخرة الباقية، ولم ينج أولئك الاقوياء من عذاب الله لهم في الدنيا، وتنجية رسله والذين آمنوا لهم واتبعوهم

(٩) بيان سنن الله تعالى في الطباع والاجتماع، والتقدير والتدبير العام، وما في خلقه للعالم من الحكمة والرحمة والنظام، والعدل العام، وعدم محاباة الافراد ولا الاقوام في نعم الدنيا ونقمها، ولا في الجزاء على الكفر والمعاصي والايمان والطاعات في الآخرة، فقد كان الرسل عليهم السلام يصرحون بكل ذلك. ومنه ان أحدهم لو عصى الله لعذبه ولما كان له من ناصر ينصره أو يمنعه من عقابه تعالى، خلافا لتعاليم الاديان الوثنية التي جعلت الرؤساء آلهة أو انصاف آلهة أو وكلاء للرب في تدبير خلقه، وتقسيم رزقه

(١٠) الاحتجاج بكل ذلك على قوم خاتم النبيين ثم على سائر من تبلغهم دعوته من حقية رسالته ، وكون العاقبة له ولمن اتبعه

فقد علم من جملة هذه القصص في هذه السور، ان هؤلاء الرسل كانوا خير البشر ، وأهداهم الى أصح العقائد وأكمل الفضائل وأصلح الاعمال، وان آثارهم في الهدى كانت أجل الآثار ، وأنها كانت أفضل قدوة لاهل الارض، وعلم منها ان ما جاء به محمد ﷺ في هذا القرآن هو عين ما جاءوا به من ذلك كله، إلا انه أتم وأكمل، وأعم وأشمل، فانه مبعوث الى جميع الامم الى نهاية بقاء الاحياء في هذا العالم . وكانت رسالة كل منهم الى قومه خاصة

فان أمكن ان يكون هذا حديثا مفترى فان مفتريه يكون أكمل منهم كلهم علما وعملا وهداية واصلاحا ، سواء أكانوا رسلا من الله تعالى أم لا ، ويكون أجدر باتباع قومه وغيرهم له واهتدائهم بهديه ، ولن يكشف حقيقة أمره، إلا من يستطيع ان يأتي بحديث مثله ، ولو مفترى في صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، فان الاحتذاء والاتباع ، أهون من الابتداء والابتداع ، اذا كان لا يتجاوز القيل والقال ، ولكن افتراء الامي لهذه العلوم الالهية والنفسية والتشريعية والاجتماعية محال أي محال، وقد عجز عن مثلها حكماء العلماء ، أفكهذا يكون الافتراء ، والحديث المفترى الذي ينهى عنه العقلاء ، حرصا على الشرك والجهل الذي كان عليه أولئك السفهاء ؟

ثم انك تجد هذه المعاني أو المعارف التي أجملتها في عشرة أنواع كلية (ويمكن تفصيلها والمزيد عليها، بما قد يفتح الله تعالى على المتدبرين لكتابه) متفرقة في جميع تلك القصص من تلك السور ولا تجد فيها على تكرارها تناقضا ولا تعارضا ، ولا في عباراتها اختلافا ولا تفاوتا، على ما فيها من ايجاز وقبض، ومساواة وبسط ، وهذا مما يعجز عنه البشر أيضا ولا يتحقق الا بالتعمد ، واذا كانت لا توجد كلها مجتمعة في سورة ولا سورتين ولا ثلاث مما ذكرنا ، فأحر بمن يدعي انها من علم البشر وكلامهم أن يفسح له في التحدي بأن يأتي بعشر سور مثلها ، تشتمل على هذه المزايا كلها ، فالتحدي بهذه السور توسيع على المنكرين إن تصدوا لمعارضتها لا تضييق

عليهم، كما زعم من لم يفقه ما قررته لزعمهم أن إعجاز القرآن انما هو ببلاغته التي فسروها بمطابقة الكلام لمقتضى الحال فقط، ولو صح هذا الزعم هنا، لما كان للتحدي بالعشر بعد الواحدة وجه، بل لكان مشكلا من أول وهلة، لأنه يكون من قبيل التجربة من غير العالم بعجزهم عن سورة واحدة، فضلا عن كونه لم يضرب له أجلا، ولم ينقل أنه كان له أجل علم بالفعل، ولا يرد شيء من هذا على قولنا: فان مثله كمثل من يكلف شاعراً ان ينظم قصصاً مختلفة بقصيدة واحدة، ومن يوسع عليه بتكليفه ان ينظمها بعدة قصائد مختلفة الروي والقوافي. واني لأعجب لدهاقين البلاغة الفنية كيف سكتوا عن حكمة هذا العدد إلا قول بعضهم إنه انتهاء الى آخر جمع القلة ؟

واني أجزم هنا - بعد التأمل في جميع آيات التحدي وتاريخ نزول سورها - أنها لم يكن مراعى بها الترتيب التاريخي في مخاطبة المشركين كما زعم جمهور المفسرين، بل ذكر كل منها بمناسبة سياق سورته، فسورة الطور التي فيها (٥٢: ٢٣ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ٢٤ فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) وهو تحد بجملته — قد نزلت بعد سورتي يونس وهود اللتين تحداهم فيهما بالعشر بعد الواحدة. وسورة الاسراء نزلت قبلهن وفيها ذكر عجز الانس والجن عن الاتيان بمثله (١٧: ٨٨) ولكنه لم يكن تحديا. وكان آخر ما نزل في التحدي آية سورة البقرة (٢: ٢٣) وهو تحد للمرتابين فيما نزله الله على عبده بأن يأتوا بسورة من مثله. إذ كان نزولها في السنة الثانية للهجرة

الخلاصة أن مشركي مكة المعاندين لم يجدوا شبهة على القرآن - بعد شبهة السحر القديمة التي لم تلق رواجا عند العرب لانه كلام بلغتهم عرفوه وعقلوه وأدركوا علوه على سائر الكلام - الا زعمهم أن محمدا ﷺ قد افتراه في جملته، وما هو وحي من عند الله تعالى، فتحداهم بالاتيان بمثله بالاجمال، وبسورة مثله في جملة مزاياه من نظمه وأسلوبه، وبلاغته وعلومه، وتأثير هدايته، وسلطانه الالهي على الارواح والعقول فعجزوا، وبقيت لهم شبهة عليه في قصصه إذ ادعى انها من أنباء الغيب أوحاه الله اليه، فزعموا انه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون،

وانه أساطير الاولين اكتتبها لنفسه فهي تملى عليه ويلقنها لئلا ينساها ، وهذه شبهة خاصة موجهة الى قصصه المتفرقة في سوره الكثيرة ، لا يدحضها عجزهم عن الاتيان بسورة واحدة مثله في بلاغتها التي حصروا الاعجاز فيها ولا إبداع نظمها ولا طرافة اسلوبها أيضاً ، ولا سيما اذا كانت قصيرة ، فتحداهم بعشر سور مثله مفتريات ، أي مثل هذه القصص التي زعموا انها أساطير الاولين ، وانما تكون مثلها اذا كانت جامعة لمزاياها المعنوية العلمية التي بينا أظهرها في الجمل العشر آنفاً

وجملة القول أن التحدي بعشر سور مثله مفتريات قد كان لابطال هـذه التهمة الخاصة من الافتراء ، وقد بينا معناها ، والسور المفصلة فيها التي تمت عشراً بهذه السورة (هود) وكلفهم دعوة من استطاعوا من دون الله تعالى ليظاهروهم فعجزوا ، ولم يجدوا من آلهتهم ولا من فصحائهم ولا من اعداء النبي ﷺ من أهل الكتاب من يستجيب لهم ، فقامت عليهم الحجة وعلى غيرهم الى يوم القيامة ، فهذه حكمة هذا التحدي الظاهرة هنا

وله حكمة أخرى باطنة لازمة للاولى هي التي تمت بها الفائدة ، وهي أنه يوجه الانظار ويشغل الافكار بالتأمل في القرآن ، وتدبر ماحواه من حكمة وعرفان ، وما لها في القلوب والعقول من تأثير وسلطان ، فياحسرة على الغافلين الذين زعموا ان إعجازها محصور في فصاحة المفردات والجمل وبلاغة البيان ، على مافي دلالة الفصاحة والبلاغة على النبوة من الخفاء على الافكار والاذهان ، وقد اختلف المتكلمون في وجه دلالة المعجزة على الرسالة وقال الغزالي انه لاعلاقة بينها وبين ابراء الاكمه والابرص أو انقلاب العصا حية ، ودلالة القرآن ببلاغته مثلها بخلاف دلالته العلمية فانها عقلية كدلالة مدعي علم الطب على علمه بكتاب ألفه فيه يعالج به المرضى فيبرءون . فالبلاغة تكون بالسليقة ، ولكن لا تظهر فجأة وكاملة في سن الكهولة ، والعلم لا يكون الا بالتعلم قبل هذه السن ، وعلم الغيب خاص بالله تعالى ، فثبت بهذا أن علم محمد ﷺ وحي برز بكلام معجز للخلق . والحمد لله الذي آتى هذا العبد الضعيف المتأخر من هذه الحكمة والفهم في كتابه مالم يؤت أولئك الجهابذة الاقوياء من أئمة العلم وفرسان الكلام ، اثباتا لما وصف به من كونه لاتنتهي عجائبه ، ولا يحيط

أحد به علما، وان فضله على عباده لا ينحصر في زمان ولا مكان

ويؤيد مااخترته قوله عز وجل في تقرير هذا الاحتجاج من ان العجز عن المعارضة دليل على ان القرآن من العلم الالهي قوله تعالى:

١٤ — ﴿ فان لم يستجيبوا لكم ﴾ في هذا الخطاب وجهان صحيحان (أحدهما) أنه تتمة لما أمر النبي ﷺ أن يتحدى به المشركين فهو يقول لهم فان لم يستجب لكم من تدعونهم من دون الله ليظاهروكم على الاتيان بالعشر السور المماثلة لسور القرآن، من آلهتكم الذين تدعون وتعبدون، وهواجسكم الذين يلقنونكم الشعر كما تزعمون، وقرنائكم من فحول الشعراء، ومصاقع الخطباء، ومن علماء أهل الكتاب العارفين بأخبار الانبياء، لعجز الجميع عن ذلك ﴿ فاعلموا انما أنزل بعلم الله ﴾ أي فاعلموا أنما أنزل على محمد ﷺ بمقتضى علم الله ملابسا له مبينا لما أراد أن يبلغه لعباده من دينه على ألسنة رسله، لا بعلم محمد ولا غيره ممن تدعون زوراً أنهم أعانوه عليه، لانه في جملته من علم الغيب الذي لا يعلمه الا من أعلمه الله تعالى به، كما قال (٧:٧ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) وكما تراه في آخر قصة نوح من هذه السورة (الآية ٤٩) ومثلها في آخر سورة يوسف. ومثلهما في سورة القصص (٢٨: ٤٤ — ٤٦)(١٢: ١٠٢) وقال في آية أخرى بعد ذلك (٤: ١٦٦ لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) وقال (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول) الخ وما فيها من العلم الكسبي لم يكسب منه محمد ﷺ شيئا

الاستجابة للداعي الى الشيء كاجابته اليه، وعدم الاستجابة لهم داحضة لدعواهم مثبتة لكون هذه العلوم التي فيه من علم الله لا من علم البشر، وهو صريح في أن المراد انما هو التحدي بما في هذه السور من العلم لانه هو الذي دحض دعواهم إن محمدا افتراها « وأنما » المفتوحة الهمزة تدل على الحصر كالمكسورة على التحقيق.

﴿ وان لا إله إلا هو ﴾ أي واعلموا أنه لا إله يعبد بالحق الا هو، لان من خصائص الاله أن يعلم ما لا يعلمه غيره، وان يعجز كل من عداه عن مثل مايقدر هو عليه، كما ظهر بهذا التحدي عجزكم وعجز آلهتكم وغيرهم عن الاتيان بعشر

سور مثل سور كتابه بالتفصيل وعن سورة واحدة بالاجمال ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي فهل أنتم بعد قيام هذه الحجة عليكم داخلون في الاسلام الذي أدعوكم اليه بهذا القرآن ، مؤمنون بعقائده ، وحقية أخباره ووعده ووعيده ، مذعنون لاحكامه ؟ اي لم يبق لكم محيص من الاسلام والانقياد ، وقد دحضت شبهتكم ، وانقطعت معاذيركم ، الا الجحود والعناد واعراض الاستكبار ، فهذا الاستفهام يتضمن طلب الاسلام والاذعان بأبلغ عبارة فهو كقوله بعد وصف الخمر والميسر والانصاب والازلام بأنها رجس من عمل الشيطان لا يريد لا إيقاع الشقاق والبغضاء بين الناس في الخمر والميسر وصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة وبعد هذا كله قال (فهل أنتم منتهون) أي عنهما بعد علمكم بهذا الرجس والمخازي التي فيهما أم لا ؟ وأي انسان يملك مسكة من عقل وشرف لا يقول عند نزول هذه الآية في سورة هود : أسلمنا أسلمنا ، كما قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (رض) عند نزول تلك الآية : انتهينا انتهينا ؟

(الوجه الثاني في الآية) ان الخطاب فيها للنبي صلى الله عليه وسلم وجمع الضمير في « لكم » للتعظيم بناء على انه غير خاص بضمير المتكلم ، أو له ولمن معه من المؤمنين إذ كانوا كلهم دعاة الى الاسلام معه صلى الله عليه وسلم وقيل انه لهم وحدهم ، وهذا مروي عن مجاهد . والمعنى فان لم يجبكم هؤلاء المشركون الى ما تحديتموهم به من الاتيان بعشر سور مثله ولو مفتريات لا يتقيدون بكون اخبارها حقا كاخبار القرآن ـ وما هم بمستجيبين لكم لعجزهم وعجز من عسى أن يدعوهم لمظاهرتهم عليه ـ فاثبتوا على علمكم انه انما أنزل بعلم الله ، وازدادوا به إيمانا ويقينا بهذه الحجة ، وانه لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه ، فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والاخلاص فيه ؟ أي اثبتوا عليه ، والوجه الاول أظهر واقوى وعليه الامام ابو جعفر بن جرير الطبري واشار الى ضعف الثاني ، ولكن رجحه كثيرون ، والحق انه صحيح ولكنه خلاف الظاهر المتبادر

(١٥) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

بعد أن قامت الحجة القطعية على إعجاز القرآن ، وحقية دعوة الاسلام، بما يقطع ألسنة المفترين ويبطل معاذيرهم ، بين لهم في هاتين الآيتين الصارف النفسي لهم عنه وكونه شراً لهم لاخيراً ، وهو انه لاحظ لهم من حياتهم إلا شهوات الدنيا وزينتها ، والاسلام يدعوهم إلى إيثار الآخرة على الاولى ، قال عز وجل :

١٥ــ ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ أي من كان كل حظه من وجوده التمتع بلذات هذه الحياة الاولى التي هي أدنى الحياتين اللتين خلق لهما وهي الطعام والشراب والوقاع ، وزينتها من اللباس والاثاث والرياش والاولاد والاموال، لا يريد مع ذلك استعداداً للحياة الآخرة ولقاء الله تعالى بالبر والاحسان، وتزكية النفس بباعث الايمان ﴿ نوفِّ اليهم أعمالهم فيها ﴾ أي نؤد اليهم ثمرات أعمالهم التي يعملونها وافية تامة بحسب سنتنا في الأسباب والمسببات ونظام الاقدار، وقد فصلنا هذا المعنى في التفسير مراراً ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ وهم لا ينقصون فيها شيئاً من نتائج كسبهم لأجل كفرهم ، فان مدار الارزاق فيها على الاعمال السببية، لا على النيات والمقاصد الدينية ، ولكن لهداية الدين تأثيراً فيها من ناحية الامانة والاستقامة والصدق والنصح ، واجتناب الخيانة والزور والغش ، وغير ذلك من الصبر والتعاون على البر والتقوى ، ولأهلها العاقبة الحسنة فيها . وكرر لفظ فيها للتأكيد والاعلام بأن الآخرة ليست كالدنيا في وفاء كيل الجزاء وفي بخسه ، فانه فيها منوط بأمرين : كسب الانسان ونظام الاقدار ، وقد يتعارضان، وأما جزاء الآخرة فهو بفعل الله تعالى مباشرة (ولا يظلم ربك أحدا)

١٦ ﴿ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار، لان الجزاء فيها كالجزاء في الدنيا على الاعمال، وهم لم يعملوا لنعيم الآخرة شيئاً، فان العمل لها انما هو تزكية النفس بالايمان والتقوى التي هي اجتناب المعاصي والرذائل ، وأعمال البر والفضائل،

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وفسد ما صنعوا مما ظاهره البر والاحسان كالصدقة وصلة

الرحم فلم يكن له تأثير في تزكية أنفسهم والقربة عند ربهم، لأنه انما كان لأغراض نفسية من شهوات الدنيا كالرياء والسمعة والاعتزاز بأولي القربى على الاعداء ولو بالباطل، فهو كالحبط وهو بالتحريك أن تكثر الانعام من بعض المراعي التي تستطيبها حتى تنتفخ وتفسد أحشاؤها، فظاهر كثرة الأكل أنه سبب للقوة فكان في هذه الحالة سبباً للضعف، كذلك ماظاهره البر والاحسان من أعمال الناس اذا كان الباعث عليه سوء النية مما ذكرنا ﴿ وباطل ماكانوا يعملون ﴾ أي وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا، لانه لاثمرة له ولا أجر في الآخرة، وانما الاعمال بمقاصدها، والنتائج تابعة لمقدماتها، فان كان في عملهم خير ونية حسنة يجازون عليه في الدنيا

قال تعالى في تفصيل هذا الاجمال (١٨:١٧ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً ١٩ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ٢٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وقال معلم الخير الاعظم ﷺ « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه » رواه البخاري في سبعة مواضع من صحيحه مختلفة الالفاظ ومسلم وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الدين يبيح الطيبات من المآكل والمشارب غير الضارة ويبيح الزينة في غير اسراف ولا خيلاء، وانما يذم من يحتقر المواهب الانسانية من عقلية وروحانية فيجعل كل همه وحظه من وجوده في الشهوات الحيوانية التي تفضله بها الانعام والحشرات فيفضله الثور في كثرة الأكل، والبعير في كثرة الشرب، والعصفور في كثرة السفاد، والطاوس في زينة الالوان ولمعان اللباس. ومن اختبر أهل أمصارنا في هذا العصر علم من اسرافهم في هذه الشهوات والزينة ماهو مفسد لصحتهم وأخلاقهم وبيوتهم حتى نسائهم وأطفالهم، وماحق لثروتهم، ومضعف لأمتهم ودولتهم، وما بعد ذلك إلا إضاعة آخرتهم، وترى مع هذا ان حكومتهم

ومدارسهم لاتقيم للتربية الدينية وزنا وتجعل الصلاة التي هي عماد الدين اختيارية لايلزمها أحد من معلميها ولا من تلاميذها

ومن العجيب أن تختلف الروايات في الآيتين هل نزلتا في المشركين أم في كفار أهل الكتاب أم في المنافقين ، وما نزلتا منفردتين في طائفة خاصة ، بل في ضمن سورة مكية حيث لامنافقون ولا أهل كتاب، وموضوعهما عام فيمن لايؤمن بالآخرة ولا يعملون لاجلها

---

(١٧) أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

هذه الآية في المقابلة والموازنة بين من يهتدي ويهدي بالقرآن على علم وبينة ومن يكفر به على جهل وتقليد، أو عناد وجحود، فهي صلة بين ماقبلها وما بعدها

١٧ ـ ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي على حجة وبصيرة من ربه فيما يؤمن به ويدعو اليه هاديا مهتديا به، فالبينة مايتبين به الحق في كل شيء بحسبه، كالبرهان في العقليات ، والنصوص في النقليات ، والخوارق في الالهيات ، والتجارب في الحسيات ، والشهادات في القضائيات ، والاستقراء في إثبات الكليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل كلهم قد جاءوا بالبينات ، وان كل نبي منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه ، وانه جاءهم ببينة من ربهم ، كما ترى في قصصهم من سورة الاعراف وهذه السورة. وكانت بيناتهم قسمين: حججا عقلية ، وآيات كونية، وكان من لم يقتنع ببينة الرسول او يكابرها يقولون (ماجئتنا ببينة) وكان من جحد الآية الكونية بعد التحدي والانذار بالعذاب يهلكون بعذاب الاستئصال، وتجد هذا وذاك مفصلا في قصصهم من هذه السورة، وفرق بين قول الرسول منهم

« إني على بينة من ربي » وقوله « قد جئتكم ببينة من ربكم » فالاولى ما علم هو به انه رسول من ربه بوحيه اليه ، وباظهاره على ما شاء من رؤية ملك الوحي وغيره من عالم الغيب ، والثانية ما آتاه من الحجة العقلية على قومه كقوله (٦ :٨٣ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) أو ما آتاه من آية كونية تستخذي لها أنفسهم ، وتنقطع بها مكابرتهم.

وكان نبينا ﷺ يطلق البينة تارة على الحجة والبرهان ، وتارة على آيته الكبرى الجامعة للبراهين الكثيرة وهي القرآن ، قال تعالى له (٦ :٥٧ قل إني على بينة من ربي وكذبتم به) وأمره ان يقول لهم بعد ذكر موسى والتوراة (٦ :١٥٥ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ١٥٦ أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ١٥٧ او تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) فهذا السياق يشبه سياق الآية التي نفسرها

وفي المراد بصاحب البينة فيها وجهان : أحدهما انه عام قوبل به ما قبله وهو من لا يريدون من حياتهم إلا لذات الدنيا وزينتها ، وان البينة هي نور البصيرة الفطرية والحجة العقلية التي يميز بها الانسان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال . والمعنى : أفمن كان على بينة وبصيرة في دينه من ربه — فهو كقوله (٣٩ :٢٢ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أي ويتبع هذا النور الفطري والبرهان العقلي المراد بالبينة وأعاد الضمير عليها مذكراً باعتبار معناها ، ويؤيده نور آخر غيبي إلهي منه تعالى يشهد بحقيته وصحته ، وهو هذا القرآن ، الذي هو مشرق النور والهدى والبرهان ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ﴾ ويتبعه ويؤيده شاهد آخر جاء من قبله وهو الكتاب الذي أنزل على موسى (ع.م) حال كونه إماما متبعاً في الهدى والتشريع ، ورحمة لمن آمن وعمل به من بني اسرائيل ، وشهادته له من وجهين : شهادة مقال وشهادة حال ، فالاولى تصريحه بالبشارة

بنبوة محمد ورسالته وقد بيناها مفصلة في تفسير (٧:١٥٧)(١)والثانية ما بين رسالة موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام من التشابه

وحاصل المعنى أفمن كان هـذا شأنه في كمال الفطرة والعقل ، الذي عرف به حقية الوحي العام الاخير، وما فيه من كمال الهداية والنور ،وعرف تأييده بالوحي السابق الذي اهتدى به بنو اسرائيل ، فاتسقت له أنوار الحجج الثلاث في هداية دينه، كمن كان يريد من حياته الحياة الدنيا الناقصة الفانية وزينتها الموقتة،محروما من الحياة العقلية والروحية العالية ، الموصلة إلى سعادة الآخرة الباقية .

﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الجمع بين البينة الوهبية، وشهادة الوحي لعقائدهم وأعمالهم الكسبية، يؤمنون بهذا القرآن إيمان معرفة واذعان، على علم بما فيه من الهدى والفرقان، وانه ما كان ان يفترى من دون الله ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب ﴾ الذين تحزبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصد عنه ، وقال مقاتل هم بنو أمية وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي وآل طلحة بن عبيد الله ، والذين سيتحزبون لمثل ذلك من أهل الكتاب ﴿ فالنار موعده ﴾ اي فان نار جهنم هي الدار التي ينتهون اليها بمقتضى وعده تعالى آنفا (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار) وما في معناه في السور الكثيرة ، فالموعد اسم مكان ﴿ فلا تك في مرية منه ﴾ اي فلا تكن أيها المكلف العاقل في شك من هذا الوعد، أو من أمر هذا القرآن ﴿ إنه الحق من ربك ﴾ إنه هو الحق الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من ربك وخالقك الذي يربيك بما تكمل به فطرتك ويوصلك إلى السعادة في دنياك وآخرتك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ هذا الايمان الكامل ، أما المشركون فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم ، وتقليد مرءوسيهم ودهمائهم ، وأما أهل الكتاب فلتحريفهم وابتداعهم في دين أنبيائهم، قال ابن عباس المراد بالناس في مثل هذه الآية أهل مكة، وقال غيره جميع الكفار

(١) ص ٢٥١ — ٢٩٩ جزء ٩

ولكن أكثر أهل مكة او كلهم كانوا قد آمنوا في عهد ابن عباس (رض) فاذا صحت الرواية عنه كان مراده بيان حالهم عند نزول السورة ، وان فعل المضارع ، لبيان الحال الواقع

(الوجه الثاني) في الآية ان المراد بمن كان على بينة من ربه فيها رسول الله ﷺ ويجوز ان تكون البينة على هذا علمه اليقيني الضروري بنبوته كما تقدم ، وسيأتي مثله في هذه السورة حكاية عن نوح في الآية ٢٨ وعن صالح في الآية ٦٣ وعن شعيب في الآية ٨٨ ويكون الشاهد الذي يتلوه منه تعالى القرآن ، وهو الاظهر عندي ، وروي عن ابن عباس ومجاهد والنخعي والضحاك وعكرمة وابي صالح وسعيد بن جبير ان البينة القرآن والشاهد جبريل عليه السلام. وقوله (يتلوه) على هذا من التلاوة لا من التلو والتبعية ، فهو الذي كان يقرؤه على النبي ﷺ عند نزوله به وكان يعارضه ويدارسه في رمضان من كل سنة جميع ما نزل منه ، حتى اذا كان آخر رمضان من آخر عمره ﷺ عارضه القرآن مرتين. وفي الشاهد روايات أخرى ضعيفة الرواية والدراية « منها » انه ملك آخر غير جبريل كان يحفظه القرآن ان ينسى منه شيء « ومنها » انه لسانه ﷺ الذي كان يتلوه به على الناس « ومنها » انه علي (رض) ترويه الشيعة ويفسرونه بالامامة . وروي انه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره وفسره بأنه لسانه ﷺ وقابلهم خصومهم بمثلها فقالوا انه ابو بكر ، وهما من التفسير بالهوى ، وأنت ترى ان بقية الآية لا تظهر على هذا الوجه بالجلاء والضياء الذي يظهر به الوجه الاول ، بل يحتاج الجمع في قوله تعالى (أولئك يؤمنون به) إلى تأويل متكلف

---

(١٨) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي

ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ : يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢١) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ

(٢٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٤) مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟

هذه الآيات السبع بيان لحال كل فريق من الفريقين المدمجين في الآية التي قبلهن : الذين يكفرون بالقرآن والذين يؤمنون به ، ما كانوا عليه في الدنيا وما يكونون عليه في الآخرة ، وبدأ بوصف الاول فقال :

١٨ ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ اي لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى على الله كذبا في وحيه وأقواله ، أو أحكامه أو صفاته او أفعاله . وقد تقدم مثل هذه الجملة في الانعام [1] والاعراف [2] ويونس [3] وسيأتي في الكهف والعنكبوت والصف ، ويفسر الافتراء في كل آية بما يدل عليه السياق ، وأظهره هنا اتخاذ الشركاء والاولياء والشفعاء له بدون اذنه ، وزعم من زعم انه اتخذ له ولداً من الملائكة كالعرب الذين قالوا الملائكة بنات الله ، والوثنيين الذين قالوا ان كرشنا ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح بن الله ، وكذا من افترى عليه بتكذيب ماجاء به رسله من دينه ، لصدهم الناس عن سبيله ﴿ أولئك يعرضون على ربهم ﴾ يوم القيامة لمحاسبتهم وتعرض عليه أعمالهم وأقوالهم ﴿ ويقول الاشهاد ﴾

---

(١) الآيات ٦ : ٢١ و ٩٣ و ١٤٤ (٢) ٧ : ٣٦ (٣) ١٠ : ١٧ فراجع تفسيرهن إن شئت

الذين يقومون بأمره للشهادة عليهم من الملائكة الكرام الكاتبين ، والانبياء المرسلين، وصالحي المؤمنين« الاشهاد جمع شاهد كأصحاب، أو شهيد كأشراف»

﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ أي يشيرون اليهم بأشخاصهم فيفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة ، الدالة على خروجهم في ذلك اليوم من محيط الرحمة ، وجملة اللعنة يجوز أن تكون من كلام الأشهاد ، وان تكون مستأنفة من كلام الله تعالى وفي معنى هذا قوله تعالى (٤٠ : ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ٥٢ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وفي حديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يدني المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى اذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال : فاني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) وقد بينا مسألة الشهادة والشهداء يوم القيامة في مواضعها من سور البقرة والنساء والانعام والاعراف مفصلة تفصيلا ، فراجع تفسيرها في مواضعها من أجزاء التفسير مستدلا عليها بألفاظها في فهارسها

١٩ ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ صفة للظالمين الملعونين، أي هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن سبيل الله الموصلة الى معرفته وعبادته وهي دينه القيم وصراطه المستقيم ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ أي يصفونها بالعوج والالتواء للتنفير عنها، أو يريدون ان تكون ذات عوج، أي موافقتها لاهوائهم من الشرك وإباحة الظلم والفسق

﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي والحال انهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء ، وانما الدين عندهم رابطة دنيوية، وشعائر قومية، فقد يتعصبون لها تعصبهم لقوميتهم ، وتقليداً لآبائهم ، وهكذا شأن الملاحدة والمبتدعة من أهل الاهواء، المدعين لدين الانبياء ، كما تراهم في هذا الزمان . وزيادة «هم» بين المبتدإ والخبر للتأكيد.

وقد تقدم نص هذه الآية بدون هذه الزيادة في الآية ٢٤ من سورة الاعراف (٧) فراجع تفسيرها في الجزء التاسع

٢٠ ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الارض ﴾ أي لم يكونوا معجزين الله في الدنيا ان يعاقبهم بظلمهم وصدهم عن سبيله وكفرهم بكتابه ورسوله ولقائه ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ وما كان لهم فيها أولياء من دونه يتولون أمورهم عنده ، ولا أنصار يمنعونهم من عقابه وينصرونهم، ولكن سبقت كلمته واقتضت مشيئته وحكمته أن يؤخرهم إلى هذا اليوم ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ فيه بالنسبة الى ما كان يكون من عقابهم في الدنيا لو عوقبوا فيها ، لا بالزيادة عما يستحقونه منه بمقتضى سنته تعالى في إفساد كفرهم لارواحهم ، وتدسية ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الجملة استئناف بياني . قرأ الجمهور يضاعف من المضاعفة وابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف بالتشديد من التضعيف . وعلل هذه المضاعفة بقوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ أي ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم الى القرآن إصغاء لدعوة الحق وكلام الله عز وجل لاستحواذ الباطل على أنفسهم ، ورين الكفر والظلم على قلوبهم بل كانوا ينهون عنه وينأون عنه (٦ : ٢٦) ومن ذلك قوله فيهم ٤١ : ٢٦ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ﴿وما كانوا يبصرون ﴾ مايدل عليه من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ، أي أنهم لشدة انهماكهم في الكفر ولوازمه من الباطل واتباع الهوى والشهوات ، صاروا يكرهون الحق والهدى كراهة شديدة بحيث يثقل عليهم سماع ما يبينه من الآيات السمعية ، وما يثبته من الآيات البصرية ، وليس المراد انهم فقدوا حاستي السمع والبصر فصاروا صما وعميانا بالفعل . بل هم كما يقول أمثالهم فيما يبغضون : انني لا أطيق رؤية فلان، ولا أقدر أن أسمع كلامه وتذكر أو راجع قوله تعالى لنبيه في سورة يونس (١٠ : ٤٢ ومنهم من يستمعون اليك) الخ

وأمثالهم مشاهدون في كل زمان ومكان ، أعطى رجل مؤمن رجلا متفرنجا منهم كتاب الوحي المحمدي الذي شهد له من قرأه من طبقات الناس المختلفة بطلاوة عبارته

وحسن بيانه ، وموافقة أسلوبه وترتيبه وتبويبه لذوق هذا العصر ، ثم سأله بعد أيام كيف رآه ، ظانا انه قرأه كله بشغف وانه سيشكر له هديته ؟ فقال انني لم أستطع ان أقرأ منه صفحة واحدة ، واعترف بأنه يقرأ كتب أشهر الملاحدة الطاعنين في القرآن بلذة ورغبة كما يقرأ القصص (الروايات) الغرامية !!!

٢١ ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ اي أولئك الموصوفون بما تقدم هم الذين خسروا أنفسهم بافترائهم على الله ، واشتراء الضلالة بالهدى ، فانهم دسوها وما زكوها في الدنيا ففقدوها في الآخرة ، وأي وجود لمن يصلى النار الكبرى ، فلا يموت فيها ولا يحيا ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من اتخاذ الشفعاء عند الله ، والاولياء الذين زعموا انهم يقربونهم اليه زلفى ، وقد سبق بهذا المعنى من سورة الاعراف في سياق نداء أصحاب الجنة أصحاب النار (٤٤:٧ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ٤٥ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون)

٢٢ ﴿ لاجرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون ﴾ كلمة « لاجرم » تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها ، قال الفراء هي في الاصل بمعنى لابد ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى « حقا » ولهذا تجاب باللام نحو لاجرم لأفعلن كذا ، أي حقا إنهم في الآخرة لأشد الناس خسرانا . وترى مثل هذا في أول سورة النمل ، بهذا وصف الفريق الذي لا يؤمن بالقرآن هنا ، وان كان فيه من يقول بلسانه انه يؤمن به ، ويليه الفريق الاخر جعلنا الله من خياره وانصاره ، وهو :

٢٣ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ أي خشعوا له واطمأنت نفوسهم بالايمان ، ولانت قلوبهم الى ذكره ، فلم يبق فيها زلزال ولا اضطراب . وأصل الاخبات قصد الخبت وهو المكان المطمئن المنخفض من الارض والنزول فيه ، يقولون أخبت الرجل كما يقولون أنجد وأسهل وأتهم . ويقال أخبت اليه وأخبت له ، ومن الثاني (٥٤:٢٢ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم)

وذكر هؤلاء العلماء المخبتين في سورة الحج وسطا بين الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم من إلقاء الشيطان ، وبين الكافرين الذين لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ، فعلم منه أنه ليس للشيطان عليهم من سبيل وما أحسن ما فعله الراغب من التنظير بين هؤلاء المخبتي القلوب وبين من قال فيهم (وإن منها لما يهبط من خشية الله) ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أولئك المتصفون بما ذكر أصحاب الجنة المستحقون لها بالذات الخالدون فيها أبداً

٢٤ ﴿ مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع ﴾ أي مثل الفريقين من الكافرين والمؤمنين الذين تقدم وصفهما وبيان حالهما في هذه الآيات المبينة لابتلائه تعالى للناس ليظهر أيهم أحسن عملا ، والصفة الحسية المطابقة لحالها كمثل الاعمى الفاقد لحاسة البصر في خلقته ، والاصم الفاقد لحاسة السمع كذلك في حرمانه من مصادر العلم والعرفان الانسانية والحيوانية ، ومن هو كامل حاستي البصر والسمع كلتيهما ، فهو يستمد العلم من آيات الله في التكوين والتشريع بما يسمع من القرآن وبما يرى من الاكوان ، وهما الينبوعان اللذان يفيضان العلم والهدى على عقل الانسان ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ أي هل يستوي الفريقان صفة وحالا ، ومبدأ ومآلا ؟ كلا إنهما لا يستويان ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أتجهلون أيها المخاطبون هذا المثل الحسي الجلي او أتغفلون عنه فلا تتذكرون ما بينهما من التباين فتعتبروا به؟ أي يجب ان تتفكروا فتتذكروا فتعتبروا وتهتدوا

شبه فريق الكافرين أولا بالاعمى في عدم استعمال بصره فيما يفضل به بصر الحيوان الاعجم من فهم آيات الله التي تزيده علما وعقلا وهدى روحياً ، ثم شبهه بالاصم كذلك بدليل عطفه على الاعمى ليتأمل العاقل كل تشبيه وحده ، وأما قوله تعالى في المنافقين (صم بكم عمي) بدون عطف فالمراد به من أول وهلة التهويل بجمعهم للنقائص الثلاث كلها دفعة واحدة فلم يبق في استعدادهم منفذ للهدى ، ولذلك عطف عليه بفاء السببية قوله في الآية (٢ : ١٨ فهم لا يرجعون) وفي الآية (٢ : ١٧١ فهم لا يعقلون) . ومن الايجاز في الآية عطفه هذه الصفات المتقابلة للفريقين ، وتركه للسامع والقارىء التوزيع والتفريق بين ما لكل منهما من التشبيهين المتضامنين .

قصة نوح عليه السلام

(٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦)
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٧)
فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ
اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا
مِنْ فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ

تقدم ذكر خلاصة من هذه القصة في سورة يونس مختصرة مبدوءة بقوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح) الخ وبينت في تفسيرها نكتة هذا العطف فيها ووجه اتصال الكلام بما قبله فكان متمما وشاهدا له ، وتقدمت قبل ذلك في سورة الاعراف مختصرة أيضا مبدوءة بقوله تعالى (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) وأشرت في تفسيره إلى وجه التناسب واتصال الكلام بما جاء في أول السورة من ذكر بعثة الرسل عامة .
وقد جاءت في هذه السورة مفصلة مناسبة لما قبلها بما نبينه فيما يلي فنقول :

٢٥ـ ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ قال المعربون من المفسرين ان الواو هنا للابتداء ، أي لأن معنى الجملة لا يشترك مع ماقبله بما يصح جعلها معطوفة عليه .
وأقول ان هذا سياق جديد في السورة أكد به ما قبله من الدلائل على أصول الدين من التوحيد والبعث والنبوة ، فهو يشترك معه في جملته لا مع آخر آية منه ، وعندي أن هذه القصة معطوفة على ما في أول هذه السورة من ذكر بعثة محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده وبعثه نذيراً وبشيراً والايمان بالبعث والجزاء، ليعلم قومه أنه ﷺ ليس بدعا من الرسل ، وان حاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم إجمالا

وتفصيلا ، كماقال في سورة الاسراء (٧٧:١٧ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) فكأنه قال لقد أرسلناك يامحمد الى قومك والى الناس كافة بما تقدم بيان أصوله ، ولقد أرسلنا نوحا الى قومه بمثل ما أرسلناك الخ

وافتتحت القصة بصيغة القسم لانكار المخاطبين بها لبعثة الرسل ، وقدمنا بيان ما كان للقسم عند العرب من التأثير في تأكيد الكلام ، وناهيك به في كلام الله المنزل على من عرف عندهم بالصدق من أول نشأته وهو محمد عليه الصلاة والسلام،

﴿ اني لكم نذير مبين ﴾ أي أرسلناه ببيان وظيفته من الانذار لهم ، أو قائلا لهم: إني لكم نذير بين الانذار ظاهره ، وهو الاعلام بالشيء مع بيان عاقبة من خالفه فلم يذعن لما فيه من الامر والنهي. ثم فسر هذا الارسال والانذار بقوله :

٢٦ ـ ﴿ أن لاتعبدوا الا الله ﴾ بأن لا تعبدوا الا الله ، بل اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا (وهذا عين ماتقدم في الآية الثانية) وكانوا أول قوم أشركوا بالله واتخذوا له الانداد، وكان أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الارض كما تقدم في قصته من سورة الاعراف ﴿ اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أي شديد الالم وهو يوم القيامة أو يوم عذاب الاستئصال بالطوفان ، وصف بالألم للمبالغة ، وانما يشعر بالالم من يعذب فيه من الكافرين الظالمين ، وفي قصته من سورة الاعراف (عذاب يوم عظيم) أي ألمه وهوله، وهو أقرب إلى قوله في الآية الثالثة من هذه السورة (عذاب يوم كبير) والمراد واحد

ويجوز أن يكون ماقاله نوح جامعا لمعنى الالم ومعنى العظمة والكبر اذ القرآن يبين المعاني المحكية بالالفاظ المختلفة في السور المتعددة كما قلنا من قبل، ويأتي في بعضها بما يغني عن بعض، ومن ذلك قول نوح في سورة المؤمنين بعد الأمر بعبادة التوحيد وتقريره (أفلا تتقون) ومثله فيها عن الرسول الذي بعده . وكان كل رسول يأمر قومه بالتقوى كما كرر حكايته عنهم في سورة الشعراء إذ التقوى ملاك الأمر كله

٢٧ ـ ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أي فبادر الملأ أي الاشراف والزعماء الذين كفروا من قومه الى الجواب ليكون الدهماء تبعاً لهم كعادتهم ،

واقترن جوابهم هنا بالفاء لانه هو الاصل في الرد السريع ، ومثله في سورة المؤمنين. وتقدم في سورة الاعراف مفصولا وهو (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) لانه هو الاصل في باب المراجعة بقال . . قال ... ويسمى الاستئناف البياني ، والفرق بينهما في الموضعين من هذه القصة ان الموصول بالفاء أريد به المبادرة إلى الرد على نوح بما يبطل دعوته بزعمهم ، والمفصول ليس إلا طعنا وتخطئة هو من جملة ما رموه به لا يعلم متى وقع منهم ، وليس جوابا متصلا بالدعوة ، فيالله العجب من هذه الدقة في بلاغة القرآن! ﴿ ما نراك الا بشراً مثلنا ﴾ في الجنس لا مزية لك علينا تكون بها نذيراً لنا نطيعك و نتبعك مذعنين لنبوتك ورسالتك ﴿ وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا ﴾ أي أردياؤنا وأخساؤنا . يقال رذل الشيء أو المرء بضم الذال (كضخم) فهو رذل بسكونها (كضخم) وجمعه أرذل بضم الذال وجمع الجمع أراذل أو هو جمع « أرذل » بصيغة التفضيل ، ويؤيده في سورة الشعراء (واتبعك الارذلون) ويعنون بهم من دون طبقة الاشراف والاكابر كالزراع والصناع والعمال ، وهم الذين يقبلون الحق اذا فهموه لعدم استكبارهم عن اتباع غيرهم ﴿ بادي الرأي ﴾ أي اتبعوك في بادي الرأي أي ظاهره الذي يبدو للناظر فيه ، قبل العلم بما وراء قوادمه من خوافيه ، والتأمل في باطنه ، والغوص في أعماقه ، او في بدئه وما يظهر منه أول وهلة قبل تكرار التفكر فيه ، والنظر في عواقبه وتواليه . فالياء على هذا منقلبة عن همزة لانكسار ما قبلها . ويؤيده قراءة أبي عمرو بالهمزة (بادىء) وقراءة الجمهور أبلغ لاحتمالها الجمع بين المعنيين ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ أي وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أدنى فضل تمتازون به في جماعتكم كالقوة والكثرة والعلم والرأي يحملنا على اتباعكم ، والنزول عن جاهنا وامتيازنا عليكم بالجاه والمال لمساواتكم ، ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي بل الامر شر من ذلك وهو أننا نظنكم كاذبين في جملتكم : المتبوع في دعوى النبوة ، والتابعون في تصديقه ، فهي اذاً ائتمار بنا تحاولون به أن تقلبوا الحقيقة فتجعلوا الفاضل مفضولا ، والشريف مشروفا ،

وقد كرموا أنفسهم بعدم الجزم بالتكذيب فعبروا عنه بالظن

أجابوه بأربع حجج داحضة (إحداها) أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة ، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته وفي شخصه ، وهكذا كان كل رسول من وسط قومه، ووجه الجواب أن المساواة تنافي دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر بجعل أحدهما تابعا طائعا، والآخر متبوعا مطاعا ، لأنه ترجيح بغير مرجح

(والثانية) أنه لم يتبعه منهم إلا أراذلهم في الطبقة والمكانة الاجتماعية بادي الرأي،لا بدليل من العقل والعلم ، وبهذا تنتفي المساواة فينزل هو عن رتبة الطبقة العليا الى رتبة من اتبعه من الطبقات السفلى، وهذا مرجح لرد دعوته والتولي عنه

(الثالثة) عدم رؤية فضل له مع جماعته هؤلاء عليهم من قوة عصبية أو كثرة غالبة أو غير هذا من المزايا التي ترفع الاراذل من مقعدهم في السفلة ، فيهون على الاشراف مساواتهم في اتباعه

(الرابعة) أنهم بعد الاضراب أو صرف النظر عما ذكروا من التنافي والتعارض يرجحون الحكم عليه وعليهم بالكذب في هذه الدعوى، وهذا هو المرجح الأقوى لرد الدعوة ،وقد أخروه في الذكر لأنهم لو قدموه لما بقي لذكر تلك العلل الاخرى وجه ،وهي وجيهة في نظرهم لا بد لهم من بيانها،وهذه الاخيرة طعن لهم على نوح عليه السلام أشركوه فيه مع أتباعه ولم يجابهوه به وحده، ولم يجزموا به، كما أنهم لم يجعلوه في طبقتهم من الرذالة ، ونحن نرى ملاحدة هذا العصر كقوم نوح ومن بعده في حججهم الداحضة ، وغرورهم وعمى قلوبهم،لا يفضلونهم بشيء الا الغرور بفنون الافرنج وقوتهم وجعلها حجة على تقليد أراذلهم في شر رذائلهم ، وتحقير أنفسهم وأمتهم ولغتهم ، فهم شر من قوم نوح اذ كان تقليد قوم نوح لآبائهم تعظيما لهم، والبلاء كل البلاء عندنا من فساد أمرائنا وباشاواتنا وأغنيائنا فهم في مجموعهم أو أكثرهم كلأ نوح شر طبقات هذه الامة وأشدها فسادا وافسادا

(٢٨) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ (٢٩) وَيَـٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٣٠) وَيَـٰقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ (٣١) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ

تضمنت هذه الآيات الأربع دحض تلك الشبهات الأربع التي ردوا بها عليه وشبهات أخرى من لوازمها ، وربما صرحوا بها واستغنى عن حكايتها بالعلم بها من الرد عليها ، وهو من دقائق إيجاز القرآن المعجز للبشر فتأمله

٢٨ - ﴿ قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي ﴾ خاطبهم عليه السلام بلقب القوم مضافا الى ضميره (ياقومي ، وحذف الياء من الرسم مراعاة للنطق) استعطافا وإيذانا بأنه يدعوهم الى ما هو خير لهم ، وكلمة (أرأيتم) تستعمل عند العرب بمعنى أخبروني عن رأيكم فيما يأتي بعدها كما تقدم في سورة يونس (١٠ : ٥٩ و ٦٥ وغيرها) والبينة ما يتبين به الحق وتقدم الكلام عليها آنفا في تفسير الآية ١٧

أي اخبروني ياقومي الاعزاء ما رأيكم وقولكم في حالي معكم ان كنت على حجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به تبين لي بها أنه الحق من عنده لا من عندي وكسبي البشري

الذي تشاركونني فيه وإنما هي فوق ذلك ﴿ وآتاني رحمة من عنده ﴾ وهي النبوة وتعاليم الوحي التي هي سبب رحمة الله الخاصة لمن يهتدي بها فوق رحمته العامة لعباده كلهم ﴿ فعميت عليكم ﴾ قرأ الجمهور عميت بالتخفيف كخفيت وزنا ومعنى ، ومثلها (٢٨ : ٦٦ فعميت عليهم الانباء) وقرأها حمزة والكسائي وحفص بالتشديد والبناء للمفعول ، أي فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بمالكم وجاهكم فلم تستبينوا بها ما تدل عليه من التفرقة بيني وبينكم إذ جعلتموني بشراً مثلكم ، والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت لأنه مأخوذ من العمى المقتضي لأشد أنواع الخفاء . ويجوز عود الضمير الى البينة لاقتضاء خفائها خفاء الرحمة كما هو : أن الدليل مع المدلول ، ويجوز عوده الى الرحمة باعتبار ذكرها بعد البينة كأنه قال فخفيت عليكم رحمة الله لكم بهذه النبوة لخفاء البينة الدالة عليها ، أو لان البينة خاصة به عليه السلام

وهي العلم الضروري الذي يعلم به النبي انه نبي ﴿ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ أي أنلزمكم إياها بالجبر والاكراه والحال أنكم كارهون لها إنكاراً ، وجحوداً واستكباراً ؛ أي لا نفعل ذلك فان الاسلام لا يصح إلا بإيمان الاذعان ، وما على الرسول إلا البلاغ ، وهو أول نص في دين الله تعالى يدل على أنه ما كان ولا يصح أن يكون بالاكراه ، وأما ما فعله نصارى الافرنج في سابق تاريخهم ــ وما لا زال يفعله بعضهم في مستعمراتهم ــ من التنصير باجبار الاقوام على النصرانية ، فهو مما امتازوا به على أمم الشرق في ظلمهم وتعصبهم . وهذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ورد لانكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم الاولى في أنه بشر مثلهم . وهي مبنية على أن المساواة في البشرية تقتضي استواء أفراد الجنس ، ويدفعها ما هو معلوم بالحس والخبر (بالضم أي الاختبار) من التفاوت العظيم بين أفراد البشر في العقل والفكر والرأي والاخلاق والاعمال بما هو أبعد من التفاوت بينهم وبين بعض الحيوان الأعجم ، حتى إن واحداً منهم ليأتي من الاصلاح لقومه بالعلم والعمل ما يعجز عن مثله الألوف الكثيرون في القرون المتوالية ، وكل هذا في محيط التفاوت العادي ، والعلم والعمل الكسبي ، وفوقهما ما اختص

الله به من شاء من عباده بما لا كسب لهم فيه فجعلهم أنبياء ورسلا له كما بيناه بالتفصيل في مباحث الوحي المحمدي

---

٢٩ ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ أعاد نداءهم بقوله « ياقوم » استعطافا وتكريراً للتذكير بأنه انما يدعوهم لخيرهم ومصلحتهم ، وصرح لهم بأنه لا يسألهم على ما دعاهم إليه مالا ، فيكون متهما فيه عندهم لمكانة حب المال من أنفسهم ، واعتزازهم به عليه وعلى الفقراء من أتباعه. والمال ما يملك ويقتنى من نقد وماشية وغيرها ، وعبر في سورة الشعراء بالاجر ويدل عليه هنا ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ أي ما أجري على تبليغه والقيام بأعبائه إلا على الله الذى أرسلني به ، وكل رسول بعده أمر أن يبلغ قومه هذا ، كما تراه في سورة الشعراء محكيا عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وتكرر مثله بأمره تعالى عن محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وما اتصل به من الاستثناء في قوله (٤٢ : ٢٣ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) فهو – أي الاستثناء – منفصل معناه لكن أسألكم مودة أولي القربى لكم ، وصلة الارحام التي تبالغون فيها وتقاتلون لاجلها . فهذه الجملة دفع لشبهة أخرى على نبوة نوح كغيره لا بد أن تكون حاكت في صدور قومه وقد يكون بعضهم تكلم بها ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ أي وليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من قربي وجواري لاحتقاركم لهم ، ووصفكم إياهم بالاراذل جهلا منكم ، فهذا رد على الشبهة الثانية في كلامهم بنفي لازمه وهو الطرد ، وقد يكونون صرحوا بذكر هذا اللازم ، وهذه سنة أكابر مجرمي الكفار من جميع أقوام المرسلين ، بينها هنا وفي سورة الشعراء في قوم نوح أولهم ، وتكرر معناها في قوم خاتمهم ، ومنه في ذكر الطرد قوله تعالى في سورة الانعام (٦ : ٥٢ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) الآية . وفي معناها قصة الأعمى في سورته ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ هذا تعليل مستأنف لنفي الطرد معناه أنهم يلاقون ربهم

يوم القيامة فهو يتولى حسابهم وجزاءهم ، وليس على الرسول من هذا شيء ، إن عليه إلا البلاغ ، فليس يضركم ما هم عليه والله أعلم به وبهم ﴿ ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾ أي تسفهون عليهم ، من الجهالة المضادة للعقل والحلم، أو تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم على بعض من اتباع الحق والتحلي بالفضائل، وعمل البر والخير، وتظنون ان الامتياز إنما يكون بالمال المطغي ، والجاه بالباطل المردي، وفي قصته من سورة الشعراء (٢٦ : ١١١ قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون ١١٢ قال وما علمي بما كانوا يعملون ١١٣ إن حسابهم الا على ربي لو تشعرون ١١٤ وما أنا بطارد المؤمنين ١١٥ إن أنا إلا نذير مبين) وفي معنى ما هنا من ان حسابهم على الله تتمة الآية (٦ : ٥٢) المشار إليها آنفا ، وهو بمعنى قوله تعالى

٣٠ - ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم ﴾ كرر هذا النداء لما سبق بيانه آنفا ، والاستفهام بعده إنكاري، أي لا يوجد أحد ينصرني من الله بأن يمنع عني ما أستحقه من عقابه إن طردتهم بعد إيمانهم لي واتباعهم إياي فيما بلغتهم عنه، وهو ظلم عظيم يقتضي العقاب الشديد بعدل الله تعالى مهما تكن صفة من اقترفه ، كما يصرح به في الآية التالية وكما قال في آخر آية الانعام (فتطردهم فتكون من الظالمين)

﴿ أفلا تذكرون ﴾ أصله تتذكرون حذفت إحدى التاءين منه للتخفيف وهو قياسي ويقدر بعد همزة الاستفهام فعل عطفت عليه الجملة ، أي أتصرون على جهلكم أو أتأمرونني أن أطردهم فلا تذكرون ان لهم ربا ينصرهم وينتقم لهم ؟

٣١ - ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ﴾ هذا معطوف على قوله « لا أسألكم عليه أجراً » ولهذا لم يكرر النداء فيه. وهذه الثلاث التي نفاها نوح عليه السلام عن نفسه هي التي كان يظن المشركون من قومه ومن بعدهم أن ثبوتها لازم لمن كان نبياً مرسلا من الله تعالى إن صحت دعواه، والا كان كسائر البشر لا فضل له عليهم ، ومن ثم كان نفيها متضمناً لرد شبهة حجتهم الثالثة ، ولهذا أمر الله تعالى خاتم النبيين ﷺ بنفيها عن نفسه في سورة الانعام (٦ : ٥٠) ونختصر في تفسيرها هنا لتفصيله هنالك .

أما خزائن الله تعالى فالمراد منها أنواع رزقه التي يحتاج اليها عباده للانفاق منها كما قال (١٧ : ١٠٠ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتوراً) والمعنى لا أقول لكم بادعائي للنبوة والرسالة ان عندي خزائن رزق الله تعالى أتصرف فيها بغير وسائل الاسباب المسخرة لسائر الناس ، بحيث أنفق على نفسي وعلى من اتبعني بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيري من البشر في كسبها سواء ، إذ ليست من موضوع الرسالة ولا من خصائصها ووظائفها ، ولو كانت كذلك لاتبع الناس الرسل لأجلها ، لا لما بعثوا لاجله من تزكية الانفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها للقائه تعالى ومثوبته في دار كرامته

وأما علم الغيب فالمراد به امتياز النبي على سائر البشر بعلم ما لا يصل اليه علمهم الكسبي من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم في معايشهم وكسبهم فيخبر بها أتباعه ليفضلوا غيرهم بالتبع له ، ولهذا أمر الله خاتم النبيين أن يقول لقومه (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) وقال بعض المفسرين ان نفي ادعائه الغيب يتضمن الرد على قولهم في أتباعه انهم اتبعوه بادي الرأي من غير تفكر ولا استدلال فهم غير موقنين بإيمانهم ، وإنما يظنون ظنا ، فهو يقول انه لم يعط علم الغيب فيحكم على بواطنهم وانما أمر أن يأخذ بالظاهر ، والله هو الذي يعلم السرائر ، وهذان الامران اللذان نفاهما كتاب الله عن رسله يثبتهما مبتدعة المسلمين وأهل الكتاب لمن يسمونهم الاولياء والقديسين منهم ، وقد بينا بطلان هذا مرارا .

وأما نفي كونه ملكا فهو داحض لشبهتهم أن الرسول من الله الى البشر يجب أن يفضلهم ويمتاز عليهم ، وإذن لابد أن يكون ملكا من ملائكة الله يعلم ما لا يعلم البشر ويقدر على ما لا يقدر عليه البشر ، وهذه المسألة مفصلة ومكررة في سورة الانعام وبينا في خلاصة تفسيرها من جزء التفسير الثامن جملة ماجاء فيها مع شواهده من غيرها في ذلك تحت عنوان (شبهات الكفار على الوحي والرسالة) فراجعها في (ص ٢٧٨ ج ٨ طبعة أولى)

﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ الازدراء افتعال من الزراية ، يقال زرى على فلان يزري زرية وزراية (بالكسر) إذا عابه واستهزأ به ، وأزرى به إزراء تهاون به ، أي ولا أقول في شأن الذين تنظرون اليهم نظر الاستصغار والاحتقار فتزدريهم أعينكم لفقرهم ورثاثتهم ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ كما تقولون أنتم والمراد بالخير ما وعد على الايمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة ، ويراجع تفسير ما حكى الله عن كفار قريش بقوله (٦ : ١١ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) وغير هذا مما في معناه .

﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ مما آتاهم من الايمان على بصيرة ، واتباع رسوله باخلاص وصدق سريرة ، خلافا لما زعمتم من اتباعي بادي الرأي بغير بصيرة

ولا علم ﴿ إني إذاً لمن الظالمين ﴾ أي اني إذا قلت ذلك فيهم لمن الظالمين إذ أكون ظالما لنفسي بالتقول على الله غير ما أعلمه عنه من وعد المؤمنين بخير الدنيا والآخرة وظالما للمؤمنين المحسنين بهضم حقهم ، ويجوز أن يكون المعنى : اني إذا قلت شيئا مما نفيته من أول الآية بأن ادعيت أني أملك التصرف في خزائن رزق الله ورحمته بالعطاء والمنع أو أعلم الغيب الخ لمن زمرة الظالمين الراسخين في الظلم ، لا من الانبياء المرسلين المتصفين بالحق والعدل ، وفي هذا التعليل لاجتناب ما ذكر تعريض بالمخاطبين ، يدل على أنهم من الظالمين ، وبهذا تمت حجته عليه السلام عليهم ، ودحضه لجميع شبهاتهم ، ولذلك قالوا قول المعترف بالعجز ، المنتهي به عجزه الى حد اليأس :

---

(٣٢) قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ (٣٣) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٤) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

قال الراغب الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ومنه الجديل (أي الحبل المفتول) وجدلت البناء أحكمته، ودرع مجدولة والاجدل الصقر المحكم البنية، والمجدل (كمنبر) القصر المحكم البناء، ومنه الجدال فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر على رأيه . وقيل الاصل في الجدال الصراع واسقاط الانسان صاحبه على الجدالة وهي (بالفتح) الارض الصلبة اه وقال الفيومي في المصباح المنير جدل الرجل جدلا فهو جدل من باب تعب إذا اشتدت خصومته ، وجادل مجادلة إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله ، ثم استعمل في لسان حملة الشرع في مقابلة الادلة لظهور أرجحها ، وهو محمود ان كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم اه وقد ورد عدة أحاديث وآثار في ذم الجدل والنهي عنه منها «ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة مرفوعا.

---

٣٢ ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أي قد خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت جدالنا، واستقصيت فيه فلم تدع لنا حجة إلا دحضتها حتى مللنا وسئمنا ولم يبق عندنا شيء نقوله - يدل على هذا قوله في سورة (٧١ : ٥ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ٦ فلم يزدهم دعائي الا فرارا) الخ وقوله هو في التعبير عن هذه الحالة من سورة يونس (١٠ : ٧١ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله) الخ

﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من عذاب الله الدنيوي الذي تخافه علينا ، الاقرب أن يكون المراد به قوله (اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) ويجوز أن يكون غيره كما تقدم

﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في دعواك ان الله يعاقبنا على عصياننا في الدنيا قبل الآخرة

---

٣٣ ﴿ قال إنما يأتيكم به الله ان شاء ﴾ أي ان هذا لله وبيده لا أملكه أنا وإنما هو الذي يأتيكم به إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تقتضيه حكمته، وهذا بيان للواقع لاشك فيه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ ولا فائتين له إن أخره لحكمة يعلمها فهو متى شاء واقع ما له من دافع ، ونفي الاعجاز مؤكد بالباء

٣٤ ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ النصح تحري الصلاح والخير للمنصوح له والاخلاص فيه قولا وعملا من قولهم ناصح العسل لخالصه المصفى منه ، ونصح له أفصح من نصحه ، والاغواء الايقاع في الغي وهو الفساد الحسي والمعنوي ، والمعنى ان نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد ارادتي له فيما أدعوكم اليه وانما يتوقف نفعه على ارادة الله تعالى ، وقد مضت سنته تعالى بما عرف بالتجارب أن نفع النصح له شرطان أو طرفان هما الفاعل للنصح والقابل له ، وانما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد ، بمقارفة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر ، وهو غمط الحق واحتقار المتكبر لمن يزدري من الناس ، وتعصبه لما كان عليه الآباء والاجداد ، واتباع الهوى وحب الشهوات المانعة من طاعة الله ، فمعنى ارادة الله تعالى لاغوائهم اقتضاء سنته فيهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم جزافا أنفا (بضمتين) أي ابتداء بغير عمل ولا كسب منهم لأسبابها ، فان هذا مضاد لمذهب أهل السنة في إثبات خلق الاشياء مقدرة بأقدارها ، ترتبط أسبابها بمسبباتها ، وفسر ابن جرير (يغويكم) بيهلككم بعذابه ، وقد ورد الغي بهذا المعنى ومنه قوله تعالى (فسوف يلقون غيا) وحكي عن طيء قولهم : أصبح فلان غاوياً ، اذا أصبح مريضاً . وأصل الغي فساد الجهاز الهضمي من كثرة الغذاء أو سوئه تقول العرب غوي الفصيل اذا فسد جوفه وبشم من كثرة اللبن . ثم توسعوا فيه فاستعمل في الفساد المعنوي من الانهماك في الجهل وكل ما ينافي الرشد . والقرائن هي التي ترجح بعض المعاني على بعض ، وموافقة سنن الله وأقداره شرط في الكل ، وبه يعرف الحق في اختلاف الاشاعرة والمعتزلة في الآية وأمثالها بناء على اختلافهم في ارادة الله تعالى لكل من الخير والشر مطلقا ، وتقدم بسط ذلك في مواضع من هذا التفسير ﴿ هو ربكم واليه ترجعون ﴾ أي هو مالك أموركم ومدبرها ومسيرها على سننه المطردة في الدنيا ، ولكل شيء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، واليه ترجعون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها لا يظلم أحدا

(٣٥) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ

اختلف المفسرون في هذه الآية فقال مقاتل وغيره هي معترضة في قصة نوح حكاية لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص الذي تقدم الرد عليه في الآية الثالثة عشرة من هذه السورة . وقال الجمهور انها من قصة نوح لامقتضي لاعتراضها في وسطها ، وهو مروي عن ابن عباس (رض) وفيه أن مثل هذه الجمل الاعتراضية معهود في القرآن كآيتي الوصية بالوالدين في أثناء موعظة لقمان لابنه بعد نهيه عن الشرك من سورته وهما (٣١ : ١٤ ووصينا الانسان بوالديه) الى آخر الآية ١٥ وبعدها (١٦ يا بني انها ان تك مثقال حبة) الخ وكذلك الآيات ٥٣ — ٥٦ من سورة طه (٢٠) قالوا انها معترضة في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة . وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد يقتضيها تلوين الخطاب لتنبيه الاذهان، ومنع السآمة وتجديد النشاط في الانتقال، والتشويق إلى سماع بقية الكلام ، فمن المتوقع هنا أن يخطر في بال المشركين عند سماع ماتقدم من هذه القصة أنها مفتراة كما زعموا لاستغرابهم هذا السبك في الجدال والقوة في الاحتجاج ، وأن يصدهم هذا عن استماع بقيتها ، فيكون إيراد هذه الآية تجديداً للرد عليهم ولنشاطهم ، وأعظم بوقعها في قلوبهم اذا كان هذا الخاطر عرض لهم عند سماع ماتقدم من القصة ، فما قاله مقاتل له وجه وجيه من وجهة الاسلوب الخاص بالقرآن ، وهو أقرب الى تعبيرها عن الانكار بيقولون وعن الرد عليهم بقل الدالين على الحال ، وأبعد عن سياق حكي كله بفعل الماضي من الجانبين (قالوا .. قال) وهو سياق قصة نوح عليه السلام ، ولكنه ليس قطعيا في الاول وانما هو الارجح عندي وعليه ابن جرير ومقابله ضعيف وهو لجمهور المفسرين

٣٥ ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي أم يقول مشركو مكة ان محمداً ﷺ قد افترى

هذا الذي يحكيه من قصة نوح، أو أيقول قوم نوح إنه افترى هذا الذي وعدناه به من العذاب ﴿ قل إن افتريته فعليّ اجرامي ﴾ أي إن كنت افتريته على الله عز وجل فرضاً فهو إجرام عظيم عليّ اثمه وعقابه من دونكم (إذ الاجرام الفعل القبيح الضار الذي يستحق فاعله العقاب، من الجرم الذي هو قطع الثمر قبل بدو صلاحه الذي يجعله منتفعا به كما سبق في آيات أخرى) ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فما الذي يحمله على اقترافه ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ لأن حكم الله العدل أن يجزي كل امرىء بعمله (لا تزر وازرة وزر أخرى * لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت) وتقدم هذا المعنى بما هو أعم مما هنا وهو (١٠: ٤١ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) وقد أثبت عليهم الاجرام هنا ومنه أو أشده تكذيبه ووصفه بالافتراء على الله عز وجل. وهذا الاسلوب من الجدال بالتي هي أحسن يستحسنه السمع، ويقبله الطبع

(٣٦) وَأُوحِيَ الى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٧) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٨) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٩) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ

هذه الآيات هي الحكم الفصل في قوم نوح المشركين ويليها بيان تنفيذه

٣٦ ﴿ وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ أي

أوحى الله تعالى اليه ما أيأسه من إيمان أحد من قومه بعد الآن غير من قد آمن من قبل منهم فهم ثابتون على إيمانهم دائمون عليه ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ أي فلا يشتدن عليك البؤس والحزن واحتمال المكاره بعد اليوم بما كانوا يفعلون في السنين الطوال من تكذيبهم وعنادهم وإيذائهم لك ولمن آمن لك، إذ كنت تعرض له وتستهدف لسهامه رجاء في إيمانهم واهتدائهم ، فأرح نفسك بعد الآن من جدالهم وسماع أقوالهم ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام منهم

٣٧ ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ الفلك السفينة يطلق على المفرد والجمع والظاهر من تعريفه هنا ان الله تعالى كان أخبره خبره - أي واصنع الفلك الذي سننجيك ومن آمن معك فيه حال كونك ملحوظاً ومرقيا بأعيننا من كل ناحية، وما يلزمه من حفظنا في كل آن وحالة ، فلا يمنعك منه مانع ، وملهما أو معلما بوحينا لك كيف تصنعه، فلا يعرض لك في صفته خطأ، وجمع الأعين هنا لافادة شدة العناية بالمراقبة والحفظ ، وإن قال مجاهد : أي بعيني ووحيي فان العرب تعبر برؤية العين الواحدة عن العناية وبالأعين عن المبالغة فيها .قال تعالى لموسى (ع . م) (ولتصنع على عيني) وقال لمحمد ﷺ (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ، وفي الاساس وتقول لمن بعثه واستعجلته « بعين ما أرينك » أي لاتلو على شيء، فكأني أنظر اليك اه وقال الشاعر :

واذا العناية لاحظتك عيونها ﴿ نم فالمخاوف كلهن أمان

وهذا التفسير هو الظاهر بل المتبادر من هذا التعبير ، وليس تأويلا صرف به عن الظاهر لايهامه التشبيه فانما مرادهم بالتأويل حمل اللفظ على المعنى المرجوح من معنييه أو معانيه لمانع من حمله على المعنى الراجح ، وهو لا ينحصر في الحقيقة اللغوية

﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ أي لا تراجعني في أمرهم بشيء من طلب الرحمة بهم ودفع العذاب عنهم ﴿ إنهم مغرقون ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وقضي عليهم القضاء الحتم بالاغراق ، فلا تأخذك بهم رأفة ولا اشفاق ، وقيل معناه : ولا تخاطبني بعد في استعجال تعذيبهم وتكرار الدعاء عليهم ، ويرجح هذا

إذا كان الدعاء بعد إعلامه تعالى اياه بهذا الحكم فقد حكى عنه في آخر سورته (٧١ : ٢٦ وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديّاراً ٢٧ انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً ٢٨ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا) أي هلاكا

٣٨ ﴿ ويصنع الفلك ﴾ أي وطفق يصنع الفلك كما أمر ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ استهزءوا به وضحكوا منه وتنادروا عليه لحسبانهم أنه مصاب بالهوس والجنون، يقال سخر من فلان وسخر به (كتعب) أي اتخذه سخريا (بضم السين وكسرها) يهزأ به . وروي أنهم كانوا يسألونه عما يصنع فيجيبهم انه يصنع بيتا يجري على الماء ، ولم يكن هذا معروفا ولا متصوراً ، وقل أن يسبق أحد أهل عصره بما هو فوق عقولهم ومداركهم من قول أو عمل الا سخروا منه قبل أن يتم له النجاح فيه ﴿ قال إن تسخروا منا ﴾ قال مجيبا لكل منهم عن هذا السؤال : ان تسخروا منا وتستجهلونا اليوم لرؤيتكم منا مالا تتصورون له فائدة ﴿ فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ منا جزاء وفاقا ، نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدا لما يحل عليكم ، فان كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل وبما سيكون من عاقبة عملنا

٣٩ ﴿ فسوف تعلمون ﴾ بعد تمامه ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يذله ويجلب له العار والتبار في الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ بعد ذلك في الآخرة فيكون عذاب الدنيا هينا بالاضافة اليه لانقضاء هذا وزواله بهلاككم ، وبقاء ذاك ودوامه بدوامكم

(٤٠) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ،

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

---

٤٠ ﴿ حتى اذا جاء أمرنا ﴾ هذا بيان لابتداء الغاية مما ذكر قبله من الاستعداد لهلاك قوم نوح أي وكان يصنع الفلك كما أمر ، ويقابل السخرية بغير ابتئاس ولا ضجر ، حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ﴿ وفار التنور ﴾ اشتد غضب الله تعالى عليهم . فهو مجاز كحمي الوطيس . أو فار الماء من التنور عند نوح لانه بدأ ينبع من الارض . والتنور الذى يخبز فيه الخبز معروف عند العرب . قيل ان التاء أصلية فيه وقيل زائدة وقد اتفقت فيه لغة العرب والعجم وقيل أول من صنعه حواء أم البشر وان تنورها بقي الى زمن نوح وانه هو المراد هنا ، وهذا مما لا يوثق به . والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع القوي يقال في الماء اذا نبع وجرى ، واذا غلا وارتفع ، قال في الاساس : فارت القدر ، وفارت فوارتها ، وعين فوارة في أرض خوارة ، وفور الماء من العين . ومن المجاز : فار الغضب ، وأخاف أن تفور علي ، وقل ذلك في فورة الغضب اه وقال الراغب في مفردات القرآن : الفور شدة الغليان ويقال ذلك في النار نفسها إذا هاجت وفي القدر وفي الغضب ، نحو (وهي تفور * وفار التنور) اه والمتبادر من فوران التنور هنا اشتداد غضب الله تعالى على أولئك المشركين الظالمين لانفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم ، وقد روى فيه عن مفسري الصحابة والتابعين بضعة أقوال ما أراها إلا من الاسرائيليات ، أقربها إلى اللغة ان التنور أطلق في اللغة على تنور الفجر وان المراد من فورانه هنا ظهور نوره وهو مروي عن علي كرم الله وجهه ، يعني ان هذا الوقت موعدهم كقوم لوط . والثاني ان المراد منه فوران الماء من تنور الخبز وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، وهو يتوقف على رواية مرفوعة وينسب إلى ابن عباس (رض) وأقرب منه ان يكون أول نبع ماء الطوفان من

الارض . ولا يصح في هذه الآثار ولا في أمثالها رواية مرفوعة يحتج بها ، وحديث عائشة الآتي يدل على ما قلت انه الاقرب

﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ قرأ حفص كلمة (كل) هنا بالتنوين وجمهور القراء بالاضافة لما بعدها . أي حتى اذا جاء وعد أمرنا قلنا لنوح حينئذ احمل فيها أي في الفلك وهو السفينة من كل زوج اثنين ذكرا وأنثى . والتقدير على قراءة حفص : احمل فيها من كل نوع من الاحياء أو الحيوان زوجين اثنين ذكراً وأنثى لاجل أن تبقى بعد غرق سائر الاحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الارض

﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول ﴾ أي واحمل فيها أهل بيتك ذكوراً وإناثاً وأهل بيت الرجل عند الاطلاق نساؤه وأولاده وأزواجهم ، والظاهر أن المستثنى منهم كفارهم إن كان فيهم كفار لانهم يدخلون في عموم قوله (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) وإلا كان المستثنى ولده الذي ستذكر قصته قريباً ﴿ ومن آمن ﴾ معك من قومك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ منهم ولم يبين لنا الله تعالى ولا رسوله عددهم فكل ماقاله المفسرون فيهم مردود لا دليل عليه كما قال ابن جرير الطبري كما انه لم يبين لنا أنواع الحيوانات التي حملها ولا كيف جمعها وأدخلها السفينة وهي مفصلة في سفر التكوين ، وللمفسرين فيها اسرائيليات مضحكة مخالفها ، لا ينبغي تضييع شيء من العمر في نقلها وإشغال القراء بها

٤١ ﴿ وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ﴾ يقال ركب الدابة والسفينة وركب على الدابة لانه يعلوها ، وفي السفينة لانه يكون مظروفا فيها وإن جلس على ظهرها وهو المستعمل في القرآن ، قرأ بعض أئمة القراء (مجراها) بفتح الميم بامالة الراء وتركها وهو مصدر ميمي لجرت السفينة تجري موافق لقوله الآتي (وهي تجري بهم) وقرأها الآخرون بضم الميم وهو مصدر ميمي لأجرى على إرادة إجراء الله تعالى لها . وقرءوا كلهم (مرساها) بضم الميم بمعنى أن الله تعالى هو الذي سيرسيها ، ورسو السفينة وقوفها ، والمجرى والمرسى يجيئان اسمي زمان

ومكان أيضاً . وهذه الجملة يحتمل أن يكون قالها نوح عليه السلام عند أمرهم بركوب السفينة معه امتثالا لأمر الله تعالى في الآية التي قبلها ، فتكون بشارة لهم بحفظه تعالى لها ولهم ، اي باسم الله جريانها وارساؤها فهو الذي يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، ويحتمل أن يكون أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله ، أي بتسخيره وقدرته مجراها حين تجري أو حين يجريها ، ومرساها حين يرسيها ، لا بحولنا ولا قوتنا

﴿ ان ربي لغفور رحيم ﴾ اي إنه لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم جميعهم بذنوبهم وتقصيرهم ، وإنما يهلك الكافرين الظالمين وحدهم ، رحيم بهم بما سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الانسان والحيوان من هذا الطوفان الذي اقتضته مشيئته ، أخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وغيرهم عن الحسن بن علي (رض) قال قال رسول الله ﷺ « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: باسم الله الملك الرحمن (باسم الله مجراها) الآية ـ(وماقدروا الله حق قدره) الآية والظاهر أن المراد بالآية الثانية آية سورة الزمر (٣٩:٦٧) والله أعلم

---

(٤٢) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٣) قَالَ سَـَٔاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٤) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَٰسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ

٤٢ ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ هذا تصوير لحالها في جريها بهم كأنها حاضرة أمام القارىء أو السامع ، أي تجري في أثناء موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه وامتداده ، وهو مايحدث في ظاهر البحر عند اضطرابه من التموّج والارتفاع بفعل الرياح ، واحده موجة وجمعه أمواج ، وأصل الموج الاضطراب ومنه (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) ومن عرف مايحدث في البحار العظيمة من الامواج عند ما تهيجها الرياح الشديدة ، رأى ان المبالغة في هذا التشبيه غير بعيدة ، وصف لي بعضهم سفره في المحيط الهندي في زمن رياح الصيف التي يسمونها الموسمية بما معناه : كنت أرى السفينة تهبط بنا في غور عميق ، كواد سحيق ، ترى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، فاذا بها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها في شاهق جبل تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها ، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها ، وراجع وصف البحر في تفسير قوله تعالى (١٠ : ٢٢ هو الذي يسيركم في البر والبحر) ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ عند الركوب في السفينة وقبل جريانها ولم يسبق له ذكر وسيأتي بقية خبره في آخر القصة ﴿ وكان في معزل ﴾ أي مكان عزلة وانفراد دون أهله الذين ركبوا فيها ودون الكفار ﴿ يابنيّ اركب معنا ﴾ أي مع والدك وأهلك الناجين ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ المقضي عليهم بالهلاك

٤٣ ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ أي سألجأ إلى جبل عال يحفظني من الماء ان يصل إلي فأغرق ﴿ قال : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أي لاشيء في هذا اليوم العصيب يعصم أحداً من أمر الله الذي قضاه ، فليس الامر والشأن أمر ماء يرتفع بكثرة المطر كالمعتاد ، فيتقي الحازم ضرره بما يقدر عليه من الاسباب ، وانما هو أمر انتقام عام من أشرار العباد ، الذين أشركوا بالله

وظلموا وطغوا في البلاد، لكن من رحم الله منهم فهو يعصمه ويحفظه، وقد اختص بهذه الرحمة من أمر بحملهم في هذه السفينة ﴿وحال بينهما الموج﴾ وكان قد بدأ يرتفع في أثناء هذا الحديث حتى حال بين الولد ووالده ﴿فكان من المغرقين﴾ الهالكين

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ « كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول أعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ قال سوف تعلمون . فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب الماء بها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي »

هذا الحديث رواه من ذكرنا كلهم من طريق موسى بن يعقوب، وقد قال الحاكم في مستدركه : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه اهـ يعني البخاري ومسلم وتعقبه الذهبي فقال إسناده مظلم وموسى ليس بذاك . وذكر في الميزان ووافقه الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب انهم اختلفوا في موسى هذا وثقه ابن معين، وقال النسائي ليس بالقوي وقال أبو داود هو صالح، وقال ابن المديني ضعيف منكر الحديث

وقد وصف الله حدوث هذا الطوفان بقوله في سورة القمر (٥٤ : ٩ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (١٠) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١١) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١٢) وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٣) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٤) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٥) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٦) فكيف كان عذابي ونذر) وانه لوصف وجيز، في أعلى مراقي البلاغة والتأثير

ما أفظع هذا المنظر ! ما أشد هوله ! ما أعظم روعته ! ماء ينهمر من آفاق السماء انهماراً، وأرض تتفجر عيونا خوارة فتفيض مدرارا، ماء ثجاج، يصير بحراً

ذا أمواج ، خفيت من تحته الارض بجبالها ، وخفيت من فوقه السماء بشمسها وكواكبها ، وكانت عليه هذه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين ، كأن ملك الله الارضي قد انحصر فيها ، فتخيل انك ناظر اليها كما صورها لك التنزيل ، تتفكر فيما يؤول اليه أمر هذا الخطب الجليل ، واستمع لما بينه به الذكر الحكيم ، أوجز عبارة وأبلغها تأثيراً ، جعلت أعظم ما في العالم كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

٤٤ ﴿ وقيل ياأرض ابلعي ماءك ﴾ أي وصدر من عالم الغيب الاعلى نداء خاطب الارض والسماء ، بأمر التكوين الذي يسجد له العقلاء وغير العقلاء : ياأرض ابلعي ماءك كله الذي عليك ، أو الذي تفجر من باطنك ، ان صح ان ماء السماء صار بحرا ، والبلع ازدراد الطعام أو الشراب بسرعة ﴿ وياسماء أقلعي ﴾ أي كفي عن الامطار فامتثل الامر في الحال ، وما هو إلا أن قيل كن فكان ﴿ وغيض الماء ﴾ أي غار في الارض ونضب بابتلاعها له نضوبا ﴿ وقضي الامر ﴾ أي نفذ ذلك الامر باهلاك الظالمين ، ونجاء المؤمنين ، ﴿ واستوت على الجودي ﴾ أي واستقرت السفينة راسية على الجبل المعروف بالجودي ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ أي هلاكا وسحقا لهم ، وبعداً من رحمة الله تعالى بما كان من رسوخهم في الظلم واستمرارهم عليه ، وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل ، وسيأتي مثل هذا في أمثالهم من أقوام الانبياء (الا بعداً لعاد قوم هود * ألا بعداً لثمود) والظاهر ان هذا الجبل قد غمره الماء ولم يرتفع فوقه إلا قليلا ، فلما بلغته السفينة كان الماء فوقه رقراقا وبدأ يتقلص ويغيض فاستوت عليه

قرر علماء البلاغة الفنية ان هذه الآية أبلغ آية في الكتاب العزيز أحاطت بالبلاغة من جميع جوانبها وأرجائها اللفظية والمعنوية التي وضعت لمعرفتها الفنون الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وإن مثل هذا التفاضل بين الآيات الذي يقتضيه الحال والمقام ، لا ينافي بلوغ كل آية في موضعها وموضوعها درجة الاعجاز ، ولا يعد من التفاوت المعهود في كلام أشهر البلغاء كأبي تمام والمتنبي وكذا غيرهما من شعراء

الجاهلية ومن بعدهم في الدرجات الثلاث العليا والسفلى وما بينهما ، فآياته كلها في الدرجة العليا المعجزة للبشر ، وإن كان لبعضها مزية على بعض كما تراه في تكرار القصة الواحدة من هذه القصص ، وقد بسطناه في تفسير آية التحدي « بعشر سور مثله مفتريات » من هذه السورة

مثال ذلك ماتراه من بلاغة هذه الآية في باب العبرة المقصودة بالذات من سياق هذه القصص كلها ، وهو فوق ما ذكروه من نكت الفنون فيها ، وبيانه ان الله قد أنذر الظالمين وأوعدهم الهلاك في آيات كثيرة -ومنهم مكذبو الرسل عليهم السلام- كلها معجزة في بلاغتها ، ولكنك ترى في هذه الآية من تأثير تقبيح الظلم والوعيد عليه نوعا لاتجده في غيرها ، لان حادثة الطوفان أكبر ماحدث في الارض من مظاهر سخط الله تعالى على الظالمين ، وقد علم من أول القصة أنها عقاب للظالمين ، بيد ان اعادته في هذه الآية عقب تصوير حادثة الطوفان بارزة في أشد مظاهر هولها ، واشعار القلوب عظمة الجبار العزيز الحكيم في الفصل فيها ، بما تتلاقى فيه نهايتها ببدايتها ، والتعبير عن هذه النهاية بالدعاء على الظالمين بالبعد والطرد الذي يحتمل عدة معان مذمومة شرها الطرد من رحمة الله تعالى ، يمثل لك هؤلاء الظالمين من قوم نوح بصورة تمثال من الخزي واللعن والرجس لا ترى مثله في أمثالهم من أقوام الانبياء ، على ماتراه في التعبير عنها بالعبارات الرائعة في البلاغة وعلو الاسلوب ، وإحداثها الرعب في القلوب ، كقوله تعالى (٥٤ : ١٨ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٩) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر (٢٠) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢١) فكيف كان عذابي ونذر) وهذه الآيات في طبقة ماقبلها من قصة نوح في هذه السور وقد أوردناها آنفا . وقوله تعالى (٦٩ : ٤ كذبت ثمود وعاد بالقارعة (٥) فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (٦) وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية (٧) سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٨) فهل ترى لهم من باقية ؟) الخ وناهيك بما وصف به عذاب قوم لوط في هذه السورة وغيرها ، وسأصف الفرق بين البلاغتين المعنوية الروحية والفنية واضراب المثل

لجلالها وجمالها عند العرب الخلص وأهل الفنون من العلماء - في العلاوة الأولى من علاوات هذه القصة

وحكمة هذه المبالغات في عقاب الظالمين والمجرمين من الغابرين، إنما هي إنذار أمثالهم من الحاضرين، وقد كرر عقوبة كل قوم في سورة القمر، وكرر معها (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وترى الظالمين في كل زمان غافلين، وترى المفسرين للقرآن يعنون ببسط إعراب القرآن وبلاغة عبارته ولفظه، ولا يعنون ببسط عبرته ووعظه، ولقد قال حكيم الشعراء أبو العلاء المعري في أهل عصره :

والارض للطوفان مشتاقة لعلهـا من درن تغسـل

ونحن نقول : رحم الله أبا العلاء فكيف لو رأى زماننا هذا ؟ كما قالت أم المؤمنين عائشة (رض) وقد أنشدت قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب

قالت : رحم الله لبيدا فكيف لو رأى زماننا هذا ؟ رويناه مسلسلا اليها من طريق شيخنا أبي المحاسن الشيخ محمد القاوقجي (ر.ح) وسنعقد فصلا للكلام على عقاب الله للظالمين والمجرمين في عصرنا بما نورده من علاوات هذه القصة

---

(٤٥) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٦) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

هذه الآيات الثلاث في مسألة فرعية من قصة نوح لا من صلب القصة وأصول وقائعها ولكنها تدخل في العقائد وأصول الدين من بابين اثنين لا من باب واحد،

أحدهما باب الالهيات بما فيها من حكم الله وعدله وسنته في خلقه بلا محاباة لولي ولا نبي ، وثانيهما اجتهاد الانبياء وجواز الخطأ فيه وعده ذنباً عليهم بالاضافة الى مقامهم ومعرفتهم بربهم ، — وهي ما عرض له عليه السلام من الاجتهاد في أمر ابنه الذي تخلف عن السفينة وكان من المغرقين كما مرّ في الآية ٤٣ وكان ظاهر الترتيب أن تجعل بعدها فتكون ٤٤ ووجه هذا التقديم والتأخير بينها الذي اقتضته البلاغة العليا، والحكمة البالغة المثلى ، هو أن قدمت الآية المتممة لاصل القصة المبينة لوجه العبرة فيها بأروع التعبير ، الذي يقرع أبواب القلوب بأبلغ قوارع التأثير ، فكان اتصالها بها كاتصال الموجب بالسالب من الكهربائية الذي يتولد به البرق الذي يخطف الابصار ، والصاعقة التي تمحق ما تصيبه من الاشياء والاشخاص ، فالآية الثالثة والاربعون تصور لقارئها وسامعها نكبة الطوفان بأعظم الصور هولا ورعباً ودهشا تطيش لها الالباب ، وتحار في تصور كشفها وما يئول اليه أمرها الاخيلة والافكار ، فتتلوها الآية الرابعة والاربعون فتكون الفاصلة بكشف ذلك الكرب العظيم بكلمتين وجيزتين من كلمات التكوين الالهي قضي بهما الامر بنجاة المؤمنين الصالحين ، وهلاك المشركين الظالمين ، ولو فصل بينها بهذه الآيات الثلاث (٤٥ — ٤٧) اللواتي وضعن بعدها ، لضاع تسعة أعشار بلاغتها وتأثيرها في العبرة والموعظة المقصودة من القصة كلها ، التي كانت كاشتعال الكهرباء مظهراً لسرعة مشيئته تعالى في كشف الكرب ، فكان منها نور ظهرت به رحمته في انجاء السفينة وأهلها المؤمنين ، وصاعقة محقت جميع الظالمين

٤٥ ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ في إثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة ودعاه اليها فلم يستجب ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ هذا تفسير لنادى، أي فكان نداؤه أن قال يارب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم في السفينة ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ الذي لاخلف فيه وهذا منه ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ أي أحق من كل من يتصور منهم الحكم وأحسنهم وخيرهم حكما

كما قال تعالى (٦:٥٠ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وقال (٧:٨٧ و١٠: ١٠٩ و١٣:٨٢ وهو خير الحاكين) وذلك أن حكمه تعالى لايكون إلا بالحق والعدل، لانه يصدر عن كمال العلم والعدل والحكمة، فلا يعرض له الخطأ ولا المحاباة، ولا الحيف والظلم، وحكمه تعالى يطلق على مايشرعه من الاحكام، وعلى ماينفذه في عباده من جزاء على الاعمال، ومراد نوح بهذا أن ينجي ابنه الذي تخلف عن السفينة بعد أن دعاه اليها فامتنع معللا نفسه بأن يأوي الى جبل يعتصم به من الغرق ولم يقتنع بقوله له (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) فالمعقول أن الدعاء وقع بعد هذه المحاورة مع ابنه وقبل أن يحول بينهما الموج

٤٦ ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك ﴾ الذين أمرتك أن تسلكهم في السفينة

لانجائهم، وفسر هذا النفي وعلله أو وجهه بقوله تعالى ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ قرأ الجمهور «عمل» برفع اللام والتنوين على المبالغة في التشبيه كرجل عدل كأنه لفساده واجتنابه للصلاح والتزامه العمل غير الصالح نفس العمل كما قالت الخنساء في وصف الناقه :

ترتع مارتعت حتى اذا ادكرت فانما هي إقبال وإدبار

وقرأ الكسائي ويعقوب بصيغة الفعل الماضي بتقدير عمل عملا غير صالح، والاول أبلغ والمراد أنه كان كافراً يعمل عمل الكافرين، والكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الاقربين، ويوجب براءة بعضهم من بعض، كما قال تعالى (٦٠: ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) الآية، كما ان الايمان يوجب الولاية بين المؤمنين الابعدين ــ بله الاقربين ــ كما قال عز وجل (٩: ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)

وقيل انمعنى الجملة: ان سؤالك إياي يانوح عنه وطلبك لنجاته عمل غير صالح لا أرضاه لك. رواه ابن جرير عن ابن عباس وما أراه يصح عنه، وقيل إنه كان ولد زنا أو كان ولد غيره من امرأته وهو ظاهر البطلان لأن الله تعالى سماه ابنه.

فان قيل: كيف وقع هذا من نوح عليه السلام وقد استثنى الله تعالى من

أهله الذين وعده بنجاتهم فقال (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) ولا يعزب عن علمه أن الذين سبق عليهم القول هم الكافرون الذين قضى الله بهلاكهم بعد دعائه عليهم بقوله (رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً) وكانت امرأته وابنه هذا منهم ، ولا يعقل أن يخفى عليه أمرهما ؟ ولكن امرأته لم تذكر في قصته وإنما ذكرت في سورة التحريم مع امرأة لوط في خيانة زوجيهما ودخولهما النار ، واستثنيت امرأة لوط من النجاة مع المؤمنين في قصته.

(قلنا) يحتمل أن يكون حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ، ظن أنه قد بدا له في كفره فكرهه وجنح للإيمان ، ويحتمل أن يكون قد فهم أنه غير داخل في عموم قوله تعالى له (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) لانه تعالى جعل الناجين قسمين أهله إلا من استثنى ، ومن آمن من قومه ، فجاز في فهمه أن يؤمن من أهله من كان كافرا لأنهم قسم لقومه لا قسم منهم ، ووافق هذا الفهم وقواه رحمة الابوة فسأل الله تعالى أن يحققه ، ولما كان هذا اجتهادا ظنيا لا يليق بنبي رسول من أولي العزم أن يخاطب به ربه عاتبه تعالى وأدبه عليه بقوله ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ أي فلا تسألني في شيء ما من الاشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب ، سمى دعاءه سؤالا لانه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله وما رتبه عليه من طلب نجاة ولده ، وقرأ ابن كثير تسألن بفتح اللام وتشديد النون المفتوحة ، وابن عامر بتشديدها مكسورة وكذا نافع مع اثبات الياء. وهذا النهي يدل على أنه يشترط في الدعاء أن يكون بما هو جائز في شرع الله وسننه في خلقه ، فلا يجوز سؤال ما هو محرم وما هو مخالف لسنن الله القطعية بما يقتضي تبديلها ولا تحويلها وقلب نظام الكون لأجل الداعي ، ولكن يجوز الدعاء بتسخير الاسباب ، وتوفيق الاقدار للاقدار ، والهداية الى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، مع ما يؤدي الى ذلك من الاعمال – كما فصلناه من قبل

﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ أي أنهاك أن تكون من زمرة الجاهلين الذين يسألون أن يبطل تعالى تشريعه أو حكمته وتقديره في خلقه إجابة لشهواتهم

وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم ومحبيهم . وأجهل منهم وأضل سبيلا من يسألون بعض الصالحين عندهم ما نهى الله عنه نبيا من أولي العزم من رسله أن يسأله إياه ، كأن هؤلاء الصالحين يعطونهم أو يتوسلون الى الله أن يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله ، بل ما عد طلبه منه ذنبا من ذنوبهم أمرهم بالتوبة منه وعدم العودة إلى مثله كما يدل عليه الوعظ هنا بمعونة قوله تعالى (٢٤ : ١٧ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين) وتقدم معنى الوعظ في تفسير (١٠ : ٥٧ ص ٤٠٠ ج ١١)

---

٤٧ ﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴾ أي إني أعتصم وأحتمي بك من أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علم صحيح بأنه جائز لائق

﴿ وإلا تغفر لي ﴾ أي وان لم تغفر لي ذنب هذا السؤال الذي سولته لي رحمتي الابوية ، وطمعي برحمتك الربانية ﴿ وترحمني ﴾ بقبول توبتي الصادقة ورحمتك التي وسعت كل شيء ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ فيما حاولته من الربح بنجاة أولادي كلهم وسعادتهم بطاعتك وأنت أعلم بهم مني والعبرة في هذه المسألة من وجوه

(أولها) ان سؤال نوح عليه السلام ما سأله لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه، وانما كانت خطأ في اجتهاد رأي بنية صالحة، وإنما عدها الله تعالى ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، هبطت بضعفه البشري وما غرس في الفطرة من الرأفة والرحمة بالاولاد إلى اتباع الظن ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الانبياء فيقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم آنا بعد آن، عما يصعدون به في معارج العرفان،

(ثانيها) ان الايمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة والانساب، وقد يختلف باختلاف استعداد الافراد ،وما يحيط بهم من الاسباب ، وما يكونون عليه من الآراء والاعمال ، ولو كان بالوراثة لكان جميع ولد آدم كأبيهم ، غاية ما يقع منهم معصية تقع عن النسيان وضعف العزم ، وتتبعها التوبة واجتباء الرب ، ثم لكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين صالحين، والمشهور أن نسل البشر انحصر فيهم ، وقد دلت الآية الآتية على أن فيهم

الصالحين الطالحين وأيد ذلك الواقع ، بل لما كان أحدهم المذكور هنا كافرا هالكا

(ثالثها) ان الله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم ، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وان كانوا من الانبياء المرسلين ، وان من سأله من هؤلاء الآباء ما يخالف سننه في شرعه وحكمته في نظام خلقه ، كان مذنبا يستحق التأديب ، حتى يتوب وينيب

(رابعها) ان هؤلاء المغرورين بأنسابهم من الشرفاء الجاهلين بكتاب ربهم وما يليق بعظمة الربوبية ، وعلو الالوهية ، الجاهلين بسنة نبيهم ، الذين يزعمون أنهم أفضل من العلماء العاملين ، والصالحين المصلحين ، والاغنياء الشاكرين ، والفقراء الصابرين ، وان كانوا عراة مما كسا الله هؤلاء الاصناف من لباس التقوى والدين ، وأنهم يستحقون سعادة الدنيا والآخرة بنسبهم ، ويستحقها من عظمهم وأفاض عليهم من ماله بمحاباة الله له لأجلهم ، أولئك هم الجاهلون الذين يشهد عليهم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة رسوله ﷺ وهديه في إنذار عشيرته وأهل بيته ، كقوله لابنته سيدة نساء العالمين « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئا » رواه الشيخان من حديث طويل

هؤلاء الجاهلون المساكين يعدون أعدى أعدائهم من يدعوهم أو يدعو الناس الى كتاب الله وسنة رسوله خاتم النبيين ، ويعدون أصدق أصدقائهم المبتدعين الخرافيين المشعوذين

---

(٤٨) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٩) تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

الآية الاولى من هاتين الآيتين خاتمة قصة نوح عليه السلام ، والتي تليها

استدلال بها على نبوة محمد ﷺ . وقد وردت كل منها مفصولة مما قبلها غير معطوفة عليه . ولولا الفصل بين الاولى وبين آية (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) لما بيناه من الحكمة في ذلك لكان الوجه أن تعطف عليها إما مع إعادة القيل واما بدونه بأن يقال : ويا نوح اهبط بسلام منا ، ولكن الفصل بالآيات الثلاث في مسألة نوح وولده صار مانعا من الوصل بما قبله ، ومقتضيا أن تذكر مفصولة على الاستئناف البياني الذي هو جواب عن سؤال مقدر ، وأن يبدأ بفعل « قيل » المجهول ، لأنه هو المتعين المعلوم

---

٤٨ ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا ﴾ أي قال الله عز وجل الذي بيده ملكوت كل شيء وعالم الغيب والشهادة ومدبر أمر العالم كله لنوح بعد انتهاء أمر الطوفان ، واقلاع السماء عن إمطارها ، وابتلاع الارض لمائها ، وامكان السكنى والعمل على ظهرها : يا نوح اهبط من السفينة أو من الجودي الذي استوت عليه الى الصفصف المستوي منها ، ملابسا أو مزودا وممتعا بسلام من عظمتنا ورحمتنا الربانية وهو التحية والسلامة من الفتن والعداوة التي أحدثها المشركون الظالمون فيها

﴿ وبركات ﴾ في المعايش وسعة الرزق فائضة ﴿ عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ أي وعلى من معك الآن في السفينة وعلى ذريات يتناسلون منهم ويتفرقون في الارض ، فيكونون أمما مستقلا بعضهم دون بعض ، وهم ممتعون بهذا السلام المعنوي والبركات المادية ، ويجوز أن يشمل لفظ الامم ما كان مع نوح من أنواع الحيوان فقد قال تعالى (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم)

﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ أي وثم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم في الدنيا بأرزاقها وبركاتها دون السلام الرباني ، الممنوح من الالطاف الرحماني ، لسليمي الفطرة من المؤمنين ، فان أولئك سيغويهم الشيطان الرجيم ، ويزين لهم الشرك بربهم ، والظلم والبغي فيما بينهم ،

﴿ ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ في الدنيا والآخرة لانهم لا يحافظون على السلام

الذي كان عليه من قبلهم ، بل يبغي بعضهم على بعض لتفرقهم واختلافهم في هداية الدين ، التي تبعث بها المرسلين ، كما وقع لك مع قومك الاولين

هذا هو المتبادر من معنى هذه الآية ، وما بيناه في تفسير ما قبلها من آيات القصة هو المتبادر من مدلول ألفاظها الفصيحة نصا واقتضاء الموافق لسنن الله تعالى في الامم ، فهي لا تحتمل كثرة الآراء التي قرنت بها ، ولولا كثرة الروايات الغريبة التي غشيتها حتى ما لا يقبله اللفظ ولا الشرع ولا العقل منها ، وسنبين مجامع العبرة فيها

٤٩ ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ الاشارة الى قصة نوح المفصلة هذا التفصيل البديع ، من أنباء الغيب الماضية ﴿ نوحيها اليك ﴾ أيها الرسول في هذه السورة متمما ومفصلا لما أوحيناه اليك قبلها ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ الوحي الذي نزل مبينا لها ، والظاهر انه ﷺ ما كان يعلمها هو ولا قومه يعلمونها بهذا التفصيل وقد كان هو يعلمها بالاجمال ، وهو لا يمنع أن يكون بعضهم قد علم منه أو من غيره شيئا ما منها . ، ولو كان قومه وهم قريش يعلمونها على الوجه المنفي هنا وأكثرهم كافرون به لكذبوه ، ولنقل تكذيبهم الخاص له فيها كما نقل تكذيبهم العام للقصص كلها ، إذ قالوا انه افتراها ، ولكن هذا طعن مفتعل في شيء لا يعلم من قبلهم ، وقد تحدوا فيه بما قامت به الحجة عليهم ، وأما تكذيبه الخاص فيما يعلم من ناحيتهم – وهو العلم بهذه القصة من قبل هذا – فلو وقع لكان يكون حجة ولو ظاهرة لهم ، ولكنه لم يقع فتمت به الحجة عليهم وعلى من بعدهم ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ أي فاصبر كما صبر نوح على قومه فان سنة الله في رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين ، وأنت ومن اتبعك المتقون ، فأنتم الناجون المفلحون ، والمصرون على عداوتك هم الخاسرون الهالكون ، فارتقب انهم مرتقبون .

علاوات لتفسير قصة نوح عليه السلام

العلاوة الأولى، البلاغة الفنية في الآية ٤٣

سبق لنا أن قلنا في الكلام على إعجاز القرآن ببلاغته ومذهب المتكلمين وأدباء الفنون في التحدي به : إن هذا النوع من الاعجاز يقلُّ من يفقهه في هذا العصر لفقد أهله ملكتي البلاغة الذوقية السليقية والبيانية الفنية بله الجمع بينهما، وهو ضروري لإدراك هذا النوع من الاعجاز، وإن من يفقهه ويدرك عدم استطاعة أحد أن يأتي بسورة مثله قد يخفى عليه وجه دلالته على أنه لابد أن يكون وحيا من الله تعالى وحجة على نبوة محمد ﷺ ولذلك جزموا بوقوع العجز واختلفوا في وجه الدلالة ؛ فمثلهم كمثل حذاق الفنانين في الوشي والتطريز إذا رأوا صنع قدماء الهنود من أهل لاهور وكشمير وأقروا بالعجز عن محاكاته، أو المصورين إذا رأوا أدق صور رفائيل في تصوير الانسان بأدق مناظر أعضائه وشمائله وملامح صفاته النفسية وامارات انفعالاته ولا سيما المتقاربة كالخوف والفزع والحزن والغم والغضب ونظر الاقرار ونظر الانكار ونظر الشهوة ونظر العطف والرحمة ونظر الاعجاب والعجب ونظر المتفكر والمتحير، فقد يقرون بعجزهم عن محاكاتها ولكنهم لايقولون بعدم إمكانها، بل يقولون بامكانها وبقرب وقوعها بالفعل إذا وجدت الداعية القوية كمنفعة مالية كبيرة أو مصلحة قومية أو دولية عظيمة

ومن المعلوم من تاريخ النبي ﷺ مع فصحاء قريش وغيرهم أنه حدثت لهم أعظم الدواعي والمصالح لمعارضة القرآن بعد تحديهم بسورة مثله مطلقا والتحدي بعشر سور في المكرر ولو مفترى، فأيقنوا بعجزهم عن الاتيان بها وبهن، ولو ظاهرهم عليه جميع الانس على كثرة بلغائهم وفصحائهم، والجن الذين يعتقدون أن منهم هواجس تلقنهم الشعر من حيث لا يرونهم، وكذا آلهتهم القادرون بخصائصهم الغيبية أو بمكانتهم عند الله تعالى على كل ما يريدون في هذا العالم بزعمهم، قد عجزوا مع هذا كله واضطروا إلى مقاومة النبي بالقتال، وما أعقبهم من خسارة المال، وسبي النساء والاطفال، ثم ما هو أشد عليهم وهو احتمال الذل

والشكل ، وروي أن كبراءهم عزموا على التعاون على المعارضة واستعدوا لها فسمعوا هذه الآية (وقيل ياأرض) فتضاءلت قواهم واستخذت أنفسهم ورجعوا عن عزمهم ، كما يأتي قريبا

عرف بلغاء قريش من بلاغة هذه الآية الروحية الكامنة في فصاحتها اللفظية الظاهرة وغيرها ما لم يعرفه بلغاء الفنون بعدهم منها ، فكان هؤلاء أعلم بما للحسن والجمال الصوري في الكلام من المقاييس الفلسفية والموازين الفنية ودرجات الراجح على المرجوح . وكان أولئك أدق شعورا بما لهذا الحسن والجمال من السلطان على القلوب والحكم على العقول . مثل ذلك ان للجمال البدني في حسان النساء مقاييس وموازين لتناسب الاعضاء بعضها مع بعض يمكن ضبطها ، والعدل في الحكم بينها . وأما الجمال المعنوي وهو خفة الروح وسلطان التأثير في القلوب ، فليس له مقياس ولا ميزان عشري يضبط به وزنه أو مساحته فيعرف الراجح من المرجوح ، وإنما يعرف هذا الجمال الاعلى بملكة نفسية ، لا بأوزان صناعية ، كما قال أبو الطيب في الخيل : —

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها   وأعضائها فالحسن عنك مغيب[1]

وإنما أحدث القرآن في الامة العربية ما أحدث من الثورة الدينية والاجتماعية والانقلاب العالمي بالنوع الثاني من ادراك بلاغته لا الاول ، وكل منها كامل في بابه ، كما بينا ذلك في موضعه من عهد قريب ، وان كثرة البحث في الثاني ليشغل المفسر والمتدبر عن الاول الخاص منه بالهداية وإصلاح النفس وتزكيتها ، ولهذا نقتصر منه في تفسيرنا على ما قصر فيه المفسرون باختصار لا يشغل عن الهداية المقصودة بالذات ، وقد نجعله من باب الاستطراد بعد بيان معنى الآية أو الآيات ، ولهذا جعلت ما أحببت بيانه في بلاغة هذه الآية الفنية علاوة من هذه العلاوات ، وقد أطال العلماء الاخصائيون فيها حتى أفردها بعضهم بمصنفات خاصة ، وتكلم صاحب (الطراز في علوم الاعجاز) عليها في ٢٥ صفحة ، ولعله أحسنهم فيها كلاما ،

(١) الشيات جمع شية بالكسر من الوشي وهو التزيين (كعدة وعدات) وهي في الخيل وغيرها من الحيوان اللون المخالف للونها الاصلي كالسواد في البياض وعكسه

وان كان السكاكي هو السابق اليه ، وكلهم فيه عيال عليه، وذكر بعض المفسرين جملا مختصرة أو وسطا منه أنقل منها هنا ما لخصه السيد الآلوسي في روح المعاني من كلام السكاكي وغيره بتصرف كعادته قال :

« واعلم أن هـذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الاعجاز أقاصيها ، واستذلت مصاقع العرب فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وكانت من سمهري البلاغة مكان السنان

« يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوما لتصفو أذهانهم ،فلما أخذوا فيما قصدوه وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض : هذا الكلام لا يشبـه كلام المخلوقين ، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا . ويروى أيضاً أن ابن المقفع وكان ـ كما في القاموس ـ فصيحاً بليغاً، بل قيل إنه أفصح أهل وقته ـ رام أن يعارض القرآن فنظم كلاما وجعله مفصلا وسماه سوراً ،فاجتاز يوما بصبي يقرؤها في مكتب[1] فرجع ومحا ما عمل، وقال أشهد أن هذا لا يعارض أبداً وما هو من كلام البشر . ولا يخفى ان هذا لا يستدعي أن لا يكون سائر آيات القرآن العظيم معجزاً لما أن حد الاعجاز هو المرتبة التي يعجز البشر عن الاتيان بمثلها ولا تدخل على قدرته قطعاً وهي تشتمل على شيئين: الاول الطرف الأعلى من البلاغة أعني ما ينتهي اليه البلاغة ولا يتصور تجاوزها إياه، والثاني ما يقرب من ذلك الطرف أعني المراتب العلية التي تتقاصر القوى البشرية عنها أيضا

« ومعنى إعجاز آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونها مما تتقاصر القوى البشرية عن الاتيان بمثلها سواء كانت من القسم الاول أو الثاني فلا يضر تفاوتها في البلاغة ، وهو الذي قاله علماء هذا الشأن [2]

« وقد فصل بعض مزايا هـذه الآية المهرة المتقنون ، وتركوا من ذلك ما لا يكاد يصفه الواصفون، ولا بأس بذكر شيء مما ذكر إفادة لجاهل، وتذكيراً لفاضل غافل ، فنقول :

---

(١) لعله سمعه يرتلها بصوت مؤثر نبهه لما كان غافلا عنه من روعتها فان كان لم يسمعها ولم يقرأها قبل ذلك فهو غريب جدا (٢) بينا مسألة التفاوت في البلاغة قريبا بما هو خير من هذا

جهات بلاغة الآية الأربع، اولها جهة علم البيان

ذكر العلامة السكاكي ان النظر فيها من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة. ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية : أما النظر فيها من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بذلك من القرينة والترشيح والتعريض ، فهو أنه عز سلطانه لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نرد ما انفجر من الارض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض ، وأن نقضي أمر نوح عليه السلام وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضي ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت ، وأبقينا الظلمة غرقى — بنى سبحانه الكلام على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي لا يتأتى منه ـ لكمال هيبته من الآمر ـ العصيان ، وتشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لاقتداره سبحانه العظيم ، وان هذه الأجرام العظيمة من السموات والارض تابعة لارادته تعالى إيجاداً وإعداماً ، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلا ، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه جل شأنه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لامره ، والاذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فعظمت مهابته في نفوسهم ، وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم ، فكما يلوح لهم إشارته سبحانه كان المشار اليه مقدما ، وكما يرد عليهم أمره تعالى شأنه كان المأمور به متمما ، لا تلقى لاشارته بغير الامضاء والانقياد ، ولا لأمره بغير الاذعان والامتثال

، ثم بنى على مجموع التشبيهين نظم الكلام فقال جل وعلا (قيل) على سبيل المجاز عن الارادة من باب ذكر المسبب وإرادة السبب ، لان الارادة تكون سبباً لوقوع القول في الجملة ، وجعل قرينة هذا المجاز خطاب الجماد وهو (يا أرض ـ ويا سماء) إذ يصح أن يراد حصول شيء متعلق بالجماد ولا يصح القول له . ثم قال سبحانه كما ترى (يا أرض ، ويا سماء) مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور . والظاهر أنه أراد أن هناك استعارة بالكناية حيث ذكر المشبه اعني السماء والارض المراد منهما

حصول أمر وأريد المشبه به أعني المأمور الموصوف بأنه لا يتأتى منه العصيان ادعاء بقرينة نسبة الخطاب اليه ، ودخول حرف النداء عليه ، وهما من خواص المأمور المطيع ويكون هذا تخييلا . وقد يقال اراد ان الاستعارة ههنا تصريحية تبعية في حرف النداء بناء على تشبيه تعلق الارادة بالمراد منه بتعلق النداء والخطاب بالمنادى المخاطب ، وليس بشيء إذ لا يحسن هذا التشبيه ابتداء بل تبعاً للتشبيه الاول فكيف يجعل اصلا لمتبوعه ؟ على ان قوله للمشبه المذكور يدفع هذا الحمل

« ثم استعار لغئور الماء في الارض [البلع] الذي هو إعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي . وفي الكشاف : جعل البلع مستعاراً لنشف الارض الماء وهو اولى فان النشف دال على جذب من اجزاء الارض لما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولان النشف فعل الارض والغئور فعل الماء مع الطباق بين الفعلين تعدياً . ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيهاً له بالغذاء لتقوي الارض بالماء في الانبات للزروع والاشجار تقوّي الآكل بالطعام وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابلعي) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء ،

« ولا يخفى عليك(١) انه إذا اعتبر مذهب السلف في الاستعارة يكون (ابلعي) استعارة تصريحية ومع ذلك يكون بحسب اللفظ قرينة للاستعارة بالكناية في الماء على حد ما قالوا في (ينقضون عهد الله) وأما إذا اعتبر مذهبه فينبغي ان يكون البلع باقياً على حقيقته كالانبات في : أنبت الربيع البقل . وهو بعيد ، او يجعل مستعاراً لامر متوهم كما في : نطقت الحال فيلزمه القول بالاستعارة التبعية كما هو المشهور

« ثم انه تعالى أمر على سبيل الاستعارة للتشبيه الثاني وخاطب في الامر ترشيحا لاستعارة النداء ، والحاصل ان في لفظ (ابلعي) باعتبار جوهره استعارة لغئور الماء وباعتبار صورته أعني كونه صورة أمر استعارة أخرى لتكوين المراد ، وباعتبار كونه أمر خطاب ترشيح للاستعارة المكنية التي في المنادى ، فان قرينتها

---

(١) قوله ولا يخفى عليك الخ من كلام الآلوسي لا من كلام السكاكي وهو بحث في الخلاف بين مذهبه أي السكاكي و بين مذهب السلف في الاسناد في المثل المذكور ، وهذا المزج في الكلام من عادة الآلوسي

النداء وما زاد على قرينة المكنية يكون ترشيحا لهـا . وأما جعـل النداء استعارة تصريحية تبعية حتى يكون خطاب الآمر ترشيحا لها فقد عرفت ما فيه

« ثم قال جل وعلا (ماءك) باضافة الماء إلى الارض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالارض باتصال الملك بالمالك، واختار ضمير الخطاب لاجل الترشيح وحاصله ان هناك مجازاً لغويا في الهيئة الاضافية الدالة على الاختصاص الملكي . ولهذا جعل الخطاب ترشيحاً لهذه الاستعارة من حيث أن الخطاب يدل على صلوح الارض للمالكية، فما قيل ان المجاز عقلي والعبارة مصروفة عن الظاهر ليس بشيء،

« ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان من المطر أو الفعل، ففي (أقلعي) استعارة باعتبار جوهره وكذا باعتبار صيغته أيضاً وهي مبنية على تشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ، والخطاب فيه أيضاً ترشيح لاستعارة النداء، والحاصل ان الكلام فيه مثل ما مرّ في (ابلعي)

« ثم قال سبحانه (وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعداً) فلم يصرح جل وعلا بمن غاض الماء ولا بمن قضى الامر وسوى السفينة وقال « بعداً » كما لم يصرح سبحانه بقائل (ياأرض ـ وياسماء) في صدر الآية سلوكا في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية لان تلك الامور العظام لاتصدر إلا من ذي قدرة لايكتنه، قهار لايغالب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائلا (ياأرض ـ وياسماء) ولا غائض ماغاض، ولا قاضي مثل ذلك الامر الهائل، أو أن يكون تسوية السفينة واقرارها بتسوية غيره

» والحاصل ان الفعل اذا تعين لفاعل بعينه استتبع لذلك أن يترك ذكره ويبنى الفعل لمفعوله أو يذكر ماهو أثر لذلك الفعل على صيغة المبني للفاعل ويسند إلى ذلك المفعول فيكون كناية عن تخصيص الصفة التي هي الفعل بموصوفها، وهذا أولى مما قيل في تقرير الكناية هنا: إن ترك ذكر الفاعل وبناء الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفاعل وتعينه لفاعلية ذلك الفعل فذكر اللازم وأريد الملزوم لما ان (استوت) غير مبني للمفعول ـ كقيل ـ وغيض

« ثم انه تعالى ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلك أولئك القوم في

تكذيب الرسل عليهم السلام ظلماً لا لأنفسهم لا غير ختم اظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه ، وان قيامة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم كما يؤذن بذلك الدعاء بالهلاك بعد هلاكهم ، والوصف بالظلم مع تعليق الحكم به ، وذكر بعضهم أن البعد في الاصل ضد القرب وهو باعتبار المكان ويكون في المحسوس ، وقد يقال في المعقول نحو (ضلوا ضلالا بعيداً) واستعماله في الهلاك مجاز

« قال ناصر الدين : يقال بعد بعداً بضم فسكون وبعداً بالتحريك اذا بعد بعداً بعيدا بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء ، ولم يفرق في القاموس بين صيغتي الفعل في المعنيين حيث قال : البعد معروف والموت وفعلهما ككرم وفرح بعداً وبعداً فافهم

« وزعم بعضهم ان الارض والسماء أعطيتا ما يعقلان به الامر فقيل لهما حقيقة ما قيل ، وان القائل (بعداً) نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين. ولا يخفى ان هذا خلاف الظاهر، ولا أثر فيه يعول عليه والكلام على الاول أبلغ

بلاغة الآية من جهة علم المعاني

« وأما النظر فيها من جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، فذلك انه اختير (يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال، وانها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام اظهار العظمة وابداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرض بالكسر لان الاضافة إلى نفسه جل شأنه تقتضي تشريفاً للارض وتكريماً لها فترك امداداً للتهاون ، ولم يقل : يا أيتها الارض! مع كثرته في نداء أسماء الاجناس قصداً إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التي لا تناسب ذلك المقام، واختير لفظ الارض والسماء على سائر أسمائهما كالمقلة والغبراء، وكالمظلة والخضراء لكونهما أخصر وأورد في الاستعمال ، وأوفى بالمطابقة فان تقابلهما إنما اشتهر بهذين الاسمين، واختير لفظ (ابلعي) على ابتلعي لكونه أخصر وأوفر تجانساً بأقلعي لان همزة الوصل ان اعتبرت تساويا في عدد الحروف وإلا تقاربا

فيه بخلاف ابتلعي ، وقيل (ماءك) بالافراد دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام اظهار الكبرياء وهو الوجه في إفراد الارض والسماء ، وإنما لم يقل (ابلعي) بدون المفعول لئلا يستلزم تركه ماليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وسا كنات الماء بأسرهن نظراً إلى مقام عظمة الآمر المهيب ، وكمال انقياد المأمور .

« ولما علم ان المراد بلع الماء وحده علم ان المقصود بالاقلاع امساك السماء عن إرسال الماء فلم يذكر متعلق (أقلعي) اختصاراً واحترازاً عن الحشو المستغنى عنه وهذا هو السبب في ترك ذكر حصول المأمور به بعد الامر فلم يقل: قيل ياأرض ابلعي فبلعت ، وياسماء أقلعي فأقلعت ، لان مقام الكبرياء وكمال الانقياد يغني عن ذكره الذي ربما أوهم إمكان المخالفة ، واختير (غيض) على غيض المشدد لكونه أخصر ، وقيل (الماء) دون ماء طوفان السماء ، وكذا (الامر) دون أمر نوح وهو انجاز ماوعد لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك لانه إما بدل من المضاف اليه كما هو مذهب الكوفية ، وإما لانه يغني غناء الاضافة في الاشارة إلى المعهود

«واختير (استوت) على سويت أي أقرت مع كونه أنسب بأخواته المبنية للمفعول اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار أعني الجريان منسوبا إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل في قوله تعالى (وهي تجري بهم) مع أن (استوت) أخصر من سويت ، واختير المصدر أعني (بعداً) على ليبعد القوم طلباً لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار في العبارة وهو نزول (بعداً) وحده منزلة: ليبعدوا بعداً مع فائدة أخرى هي الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام ، وإطلاق الظلم عن مقيداته في مقام المبالغة يفيد تناول كل نوع فيدخل فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التكذيب من حيث أن تكذيبهم للرسل ظلم على أنفسهم لان ضرره يعود اليهم

«هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم ، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قدم النداء على الامر فقيل (ياأرض ابلعي — وياسماء أقلعي) دون أن يقال : ابلعي ياأرض ، وأقلعي ياسماء ، جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً

حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الامر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح للاستعارة المكنية في الارض والسماء . ثم قدم أمر الارض على أمر السماء لكونها الاصل نظراً إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولا . ثم جعل قوله سبحانه (وغيض الماء) تابعاً لأمر الارض والسماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها . ألا ترى أصل الكلام (قيل يا أرض ابلعي ماءك) فبلعت ماءها (ويا سماء اقلعي) عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله (وغيض الماء) النازل من السماء فغاض ، وقيد الماء بالنازل وإن كان في الآية مطلقا لان ابتلاع الارض ماءها فهم من قوله سبحانه (ابلعي ماءك) واعترض بأن الماء المخصوص بالارض إن أريد به ما على وجهها فهو يتناول القبيلين الارضي والسمائي ، وإن أريد به ما نبع منها فاللفظ لا يدل عليه بوجه ، ولهذا حمل الزمخشري الماء على مطلقه ، وأشعر كلامه بأن (غيض الماء) إخبار عن حصول المأمور به من قوله سبحانه (يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) فالتقدير قيل لها ذلك فامتثلا الامر ونقص الماء

« ورجح الطيبي ما ذهب اليه السكاكي زاعماً ان معنى الغيض حينئذ ما قاله الجوهري وهو عنده مخالف للمعنى الذي ذكره الزمخشري فقال : إن إضافة الماء إلى الارض لما كانت ترشيحاً للاستعارة تشبيها لاتصاله بها باتصال الملك بالمالك ولذا جيء بضمير الخطاب اقتضت إخراج سائر المياه سوى الذي بسببه صارت الارض مهيأة للخطاب بمنزلة المأمور المطيع وهو المعهود في قوله تعالى (وفار التنور) وبهذا الاعتبار يحصل التوغل في تناهي التشبيه والترشيح ، ولو أجريت الاضافة على غير هذا تكون كالتجريد وكم بينهما ؟

« هذا ولو حمل على العموم لاستلزم تعميم ابتلاع المياه بأسرها لورود الامر من مقام العظمة كما علمت من كلام السكاكي وليس بذاك ، وتعقبه في الكشف بأنه دعوى بلا دليل ورد يمين ؟ إذ لا معهود ، والظاهر ما على وجه الارض من الماء ولا ينافي الترشيح وإضافة المالكية . ثم الظاهر من تنزيل الماء منزلة الغذاء أن تجعل الاضافة من باب إضافة الغذاء إلى المغتذي في النفع والتقوية وصيرورته جزءا منه ، ولا نظر فيه إلى كونه مملوكا أو غير ذلك ، وأما التعميم فمطلوب وحاصل على التفسيرين لانحصار

الماء في الارضي والسمائي وقد فتم بنضوبهما من قوله سبحانه فيلمت؟ وقوله تعالى (وغيض) ولاشك أن ماعندنا من الماء غير ماء الطوفان

« هذا والمطابق تفسير الزمخشري ، ألا ترى إلى قوله جل وعلا (فالتقى الماء) أي الارضي والسمائي ؛ وههنا تقدم الماءان في قوله سبحانه « ماءك ـ وياسماء أقلعي» لان تقديره : عن إرسال الماء على زعمهم ، فاذا قيل «وغيض الماء » رجع اليهما لامحالة انقدمهما . ثم إذا جعل من توابع «أقلعي» خاصة لم يحسن عطفه على اصل القصة أعني « وقيل ياأرض ابلعي » كيف وفي إيثار هذا التفسير الاشارة إلى أنه زال كونه طوفانا لان نقصان الماء غير الاذهاب بالكلية ، وإلى أن الأجزاء الباطنة من الارض لم تبق على ما كانت عليه من قوة الانباع ورجعت إلى الاعتدال المطلوب وليس في الاختصاص بالنضوب هذا المعنى البتة اه

«وزعم الطبرسي ان أئمة البيت رضي الله تعالى عنهم على ان الماء المضاف هو مانبع وفار وانه هو الذي ابتلع وغاض لاغير ، وان ماء السماء صار بحاراً وأنهاراً

«وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن ابن عباس مايؤيده وهذا مخالف لما يقتضيه كلام السكاكي مخالفة ظاهرة وفي القلب من صحته مافيه

« ثم انه تعالى أتبع (غيض الماء) ماهو المقصود الاصلي من القصة وهو قوله جلت عظمته (وقضي الامر) ثم أتبع ذكر المقصود حديث السفينة لتأخره عنه في الوجود ، ثم ختمت القصة بالتعريض الذي علمته

مزايا الآية من جهة الفصاحة المعنوية واللفظية

«هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة ، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق الى المرتاد ، بل اذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فيها تسبق الى أذنك ، إلا ومعناها أسبق الى قلبك

« وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ماترى عربية مستعملة

جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات، سلسة على الأسلات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرقة ، ولله تعالى در التنزيل ماذا جمعت آياته

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

« وما ذكر في شرح مزايا هذه الآية بالنسبة الى مافيها قطرة من حياض ، وزهرة من رياض

مزايا الآية من جهة المحسنات البديعية

« وقد ذكر ابن أبي الاصبع ان فيها عشرين ضربا من البديع مع انها سبعة عشرة لفظة، وذلك المناسبة التامة في (ابلعي ـ و ـ أقلعي)، والاستعارة فيهما، والطباق بين الارض والسماء، والمجاز في ياسماء فان الحقيقة يامطر السماء ، والاشارة في وغيض الماء فانه عبر به عن معان كثيرة لان الماء لايغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الارض مايخرج منها فينقص ماعلى وجه الارض ، والارداف في (واستوت) والتمثيل في (وقضي الامر) والتعليل فان غيض الماء علة للاستواء ، وصحة التقسيم فانه استوعب أقسام الماء حال نقصه، والاحتراس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك، فان عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق، وحسن النسق ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، والايجاز فانه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة، والتسهيم لان أول الآية يدل على آخرها ، والتهذيب لان مفرداتها موصوفة بصفات الحسن وحسن البيان من جهة أن السامع لايتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه، والتمكين لان الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها، والانسجام، وزاد الجلال السيوطي بعد أن نقل هذا عن ابن أبي الاصبع الاعتراض ، وزاد آخرون أشياء كثيرة إلا أنها كـكلام ابن أبي الاصبع قد أشير اليها بأصبع الاعتراض

« وقد ألف شيخنا علاء الدين — أعلى الله تعالى درجته في أعلى عليين — رسالة في هذه الآية الكريمة جمع فيها ماظهر له ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك

مائة وخمسين مزية ، وقد تطلبت هذه الرسالة لأذكر شيئاً من لطائفها فلم أظفر بها ، وكأن طوفان الحوادث أغرقها ، ولعل فيما نقلناه سداداً من عوز ، والله تعالى الموفق للصواب وعنده علم الكتاب » انتهى

العلاوة الثانية

﴿ حادثة الطوفان في القرآن والتوراة والتاريخ القديم ﴾

بينا مراراً أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن ، وان مافيه من قصص الرسل مع أقوامهم فانما هو بيان لسنة الله فيهم وماتتضمنه من أصول الدين والاصلاح التي أجملناها في بيان حكمة التحدي بعشر سور منه من تفسير هذه السورة ، بعشر جمل جامعة لأنواع المعارف والفوائد والعبر والمواعظ والنذر المتفرقة

وبينا أن قصة نوح عليه السلام جاءت في عدة سور في كل سورة منها ماليس في سائرها من ذلك ، ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا مافيه العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها ، فذكرت في بعضها بآية وفي بعضها بآيتين فما فوقهما من جمع القلة ، وما في هذه السورة هو أطولها وأجمعها

قصة نوح في سفر التكوين

وأما قصة نوح في سفر التكوين وهو السفر الاول من الاسفار التي يسمونها التوراة فهي قصة تاريخية وردت في سياق أنساب ذرية آدم وتسلسلها في السنين المعدودة ، الى أن تتصل ببني اسرائيل المقصودين بالذات لمؤلفه دون غيرهم من البشر وهذا التاريخ نقضه من أساسه علم الجيولوجية وما كشف من آثار الانسان المتحجرة وغيرها

في الفصل الاول من سفر التكوين بيان خلق السموات والارض في ستة أيام في سادسها خلق آدم ، وفي الفصل الثاني تفصيل لما خلق الله في الارض ومنه انه غرس جنة في عدن شرقا ووضع فيها آدم ، وفي آخره ذكر خلق حواء من ضلع من

أضلاع آدم اليسرى، وفي الفصل الثالث خبر معصية آدم بأكله من شجرة الحياة طاعة لامرأته التي أغوتها الحية وحملتها على الاكل منها ،وفي الفصل الرابع تناسل آدم وحواء ،وفي الخامس مواليد آدم إلى نوح وهو البطن التاسع من ذريته وكان بين خلق آدم وولادة نوح ١٠٥٦ سنة منها ٩٣٠ سنة مدة حياة آدم عليه السلام

وأما قصة نوح عليه السلام فاستغرقت فيه أربعة فصول من ٦ - ٩ في آخر التاسع منها ان نوحا عاش ٩٥٠ سنة وفي أول السادس بيان سبب الطوفان وهو بمعنى ما في القرآن الا أنه بأسلوب تلك الكتب التي تشبه الله تعالى بالانسان في الصورة والمعنى أو ما تكرر فيه من انه خلق آدم على صورته (١: ٢٦ وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء و... ٢٧ فخلق الله الانسان على صورته،على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى) وهذا ما يعنينا في هذا السفر من قصة نوح

(٦: ٥ ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر في الارض،وان كل تصور أفكار قلبه انما هو شرير كل يوم ٦ فحزن الرب انه عمل الانسان في الارض وتأسف في قلبه ٧ فقال الرب أمحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته ، الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لاني حزنت عليهم أني عملتهم ٨ وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب ٩ هذه مواليد نوح : كان نوح رجلا باراً كاملا في أجياله وسار نوح مع الله ١٠ وولد نوح ثلاثة بنين :ساما وحاما ويافث ١١ وفسدت الارض أمام الله وامتلأت ظلما ١٢ ورأى الله الارض فاذا هي قد فسدت إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الارض ١٣ فقال الله لنوح :نهاية كل بشر قد أتت أمامي لان الارض امتلأت ظلما منهم فها أنا مهلكهم مع الارض ١٤ اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر) الخ وههنا وصف طول الفلك وعرضه وارتفاعه وبابه في جانبه وطبقاته الثلاث ومن يدخل فيه معه وهم امرأته وبنوه الثلاثة وأزواجهم الثلاث ومن كل حي من كل ذي جسد زوجين اثنين، وكل من يبقى في الارض وتحت السماء يهلك ، وقد كرر ذكر من يدخل الفلك ، وذكر تاريخ دخول الفلك من عمر نوح ومدة المطر وهو أربعون يوما ومقدار ارتفاع الفلك فوق الجبال وهو ١٥ ذراعا وبقاء المياه على الارض ١٥٠ يوما

كل ذلك في الفصلين السادس والسابع وذكر في الفصل الثامن رجوع المياه عن الارض بالتدريج واستقرار الفلك على جبال أراراط وما كان من خروج نوح ومن معه من السفينة (قال) ٨ : ٢٠ وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح ٢١ فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في قلبه : لا أعود ألعن الارض أيضا من أجل الانسان، لان تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت ٢٢ مدة كل أيام الارض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال)

وفي الفصل التاسع مباركة الله لنوح وبنيه وإكثارهم ليملؤا الارض وتأمينهم من عودة الطوفان باعطائهم ميثاقه وهو قوس السحاب بل جعلها أمانا لكل الاحياء، وقال في أبناء نوح ١٩:٩ هؤلاء الثلاثة بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الارض) وفيه ان الرب لعن كنعان بن يافث وجعله وذريته عبيداً لذرية سام وحام لانه نظر إلي عورة جده نوح إذ تعرى وهو سكران

هذه خلاصة قصة نوح في سفر التكوين وليس فيها انه كان رسولا ولا انه دعا قومه إلى الله، ولا انه آمن معه أحد، ولا انه كان له ولد كافر غرق مع قومه ولا امرأة كافرة، ولا ندري أكان كفرها قبل الطوفان فغرقت أم بعده. ولكنه يوافق القرآن في أن سبب الطوفان غضب الله على البشر بفسادهم وظلمهم ولكن بأسلوبه المشبه لله سبحانه بالانسان في صفاته الباطنة كصورته الظاهرة

عمر نوح وتعليل طوله كأعمار من قبله

ويوافق القرآن سفر التكوين تقريباً في عمر نوح وهو ٩٥٠ سنة ولكن نص القرآن انه لبث في قومه هذه المدة. وهي مسألة قد اشتبه فيها الناس منذ قرون حتى زعم بعضهم أن السنة عند المتقدمين أقل من السنة عند أهل القرون المعروفة بعد تدوين التاريخ كما ان الايام والسنين في زمن التكوين أطول من هذه الازمنة كما قال تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وتقدم هذا في محله ولكن هذا القياس باطل فلا بد من دليل آخر، والذي نراه في أعمار آدم وذريته إلى ما قبل الطوفان أو قبل ما كشف من آثار التاريخ لا يقاس بما

عرف بعد ذلك لأن طبيعة العمران ومعيشة الانسان الفطرية كانت أسلم للابدان ، وأقل توليدا للامراض ، وقول الله هو الحق ويجب الايمان به على كل حال

سفر التكوين ليس من توراة موسى

وسفر التكوين هذا ليس حجة قطعية فيما ذكر فيه فضلا عما سكت عنه، فان التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها بجانب تابوت العهد كما ذكر في سفر التثنية قد فقدت هي والتابوت بحريق الهيكل ، وهذه الاسفار المتمدة عند اليهود قد كتبت كلها بعد الرجوع من سبي بابل في سنة ٥٣٦ قبل ميلاد المسيح عليه السلام ويقولون إن عزرا هو الذي كتبها وجمعها ، وليس لها سند متصل اليه دع اتصالها بمن قبله، وقد اشتهر ان الاستاذ جبر ضومط مدرس البلاغة في الجامعة الامريكانية ببيروت ألف رسالة رجح فيها ان سفر التكوين مأثور عن يوسف عليه السلام ولما نطلع عليه ، وجملة القول أنه ليس له سند إلى من كتبه ، ولا يقوم دليل على انه وحي من الله تعالى ولكنه على كل حال أثر تاريخي قديم له قيمته

وأما القرآن فقد قامت البراهين على انه كلام الله ووحيه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين كما فصلناه في مواضع كثيرة أجمعها (كتاب الوحي المحمدي).

الاسرائيليات في تفسير قصة نوح

وأما ماحشا المفسرون به تفاسيرهم من الروايات في هذه القصة وغيرها عن الصحابة والتابعين وغيرهم فلا يعتد بشيء منه ، ولم يرفع منه شيء إلى النبي ﷺ بسند صحيح ولا حسن . وأمثل ماروي فيه حديث عائشة في صنع السفينة وأم الولد الكافر الذي رفعته لينجو فغرق معها وهو ضعيف كما تقدم ، وأنكر منه ماروا ابن جرير عن ابن عباس من احياء عيسى عليه السلام بطلب الحواريين لحام ابن نوح وتحديثه إياهم عن السفينة في طولها وعرضها وارتفاعها وطبقاتها وما في كل منها ، ودخول الشيطان فيها بحيلة احتال بها على نوح ، ومن ولادة خنزير وخنزيرة من ذنب الفيل وسنور وسنورة (قط وقطة) من منخر الاسد ، وكل ذلك من الاباطيل الاسرائيلية المنفرة عن الاسلام ، وقد رواه من طريق علي بن زيد بن

جدعان وقد ضعفه الائمة كأحمد ويحيى وغيرهم ، وقال ابن عدي كان يغلو في التشيع ومع ذلك يكتب حديثه. أقول وحسبهم هذه الرواية حجة عليه

خبر الطوفان في الامم القديمة

وقد ورد في تواريخ أكثر الامم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلا ومنها المخالف له إلا قليلا وأقرب الروايات اليه رواية الكلدانيين وهم الذين وقع الطوفان في بلادهم فقد نقل عنهم برهوشع ويوسيفوس ان زيزسترس رأى في الحلم بعد موت والده أوتيرت ان المياه ستطغى وتغرق جميع البشر وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقائه ففعل ، وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الارض جيل من الجبارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان

وقد عثر بعض الانكليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية في عصر أشور بانيبال من نحو ٦٦٠ سنة قبل ميلاد المسيح ، وانها منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح او قبله ، فهي أقدم من سفر التكوين

وروى اليونان خبراً عن الطوفان أورده أفلاطون وهو ان كهنة المصريين قالوا لسولون (الحكيم اليوناني) ان السماء أرسلت طوفاناً غير وجه الارض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم

وأورد مانيتون خبر طوفان حدث بعد هرمس الاول الذي كان بعد ميناس الاول ، وهذا أقدم من تاريخ التوراة أيضاً

وروي عن قدماء اليونان خبر طوفان عم الارض كلها إلا دوكاليون وامرأته بيرا فقد نجوا منه ، وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الارض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل (اهريمان) إله الشر ، وقالوا ان هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه ، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا انه كان خاصاً باقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان.

وكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافي آخرها أن ملكهم نجا هو وامرأته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إلهه فشنو وشدها بالدسر حتى استوت على جبل جبافات (حملايا) ولكن البراهمة كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق

الهند كلها . ويروى تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرهما وكل هذه الروايات تتفق في ان سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم

العلاوة الثالثة

(هل كان الطوفان عاما أم خاصا ؟)

نص التوراة — أو سفر التكوين — ان الطوفان كان عاما مهلكا لجميع البشر إلا ذرية نوح من أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث فانه لم يكن في الارض غيرهم، بحسب ما سبق فيه خبره من خلق السموات والارض وآدم وذريته كما تقدم

والله تعالى يقول (١٨:٥١ ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) أما قوله في نوح عليه السلام بعد ذكر تنجيته وأهله (٣٧:٧٧ وجعلنا ذريته هم الباقين) فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافيا أي الباقين دون غيرهم من قومه ، وأما قوله (٧١:٢٦ وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً) فليس نصاً في ان المراد بالارض هذه الكرة كلها فان المعروف في كلام الانبياء والاقوام وفي اخبارهم أن تذكر الارض ويراد بها أرضهم ووطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون (١٠ : ٧٨ وتكون لكما الكبرياء في الارض) يعني أرض مصر، وقوله (١٧:٧٦ وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) فالمراد بها مكة ، وقوله (١٧ : ٤ وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين) والمراد بها الارض التي كانت وطنهم والشواهد عليه كثيرة

ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن أهل الكتاب على انه لم يكن في الارض كلها في زمن نوح إلا قومه، وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذريته ، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الارض سهلها وجبالها لا في الارض كلها ، إلا اذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها ، فان علماء التكوين وطبقات الارض (الجيولوجية) يقولون ان الارض كانت عند انفصالها من الشمس كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج

وقد استفتي شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في هذه المسألة فأفتى بما ننقله هنا بنصه من (ص٦٦٦) من الجزء الاول من تاريخه وهو :

فتوى الاستاذ الامام في طوفان نوح

جواب سؤال ورد على الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية من حضرة الاستاذ الشيخ عبد الله القدومي خادم العلم الشريف بمدينة نابلس، وفيه نص السؤال :

وصلنا مكتوبكم المؤرخ في ٩ شوال سنة ١٣١٧ الذي أنهيتم به أنه ظهر قبلكم نشء جديد من الطلبة ديدنهم البحث في العلوم والرياضة والخوض في توهين الادلة القرآنية ، وقد سمع من مقالتهم الآن أن الطوفان لم يكن عاما لأنحاء الارض ، بل هو خاص بالارض التي كان بها قوم نوح عليه السلام ، وأنه بقي ناس في أرض الصين لم يصبهم الغرق، وان دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاما بل هو خاص بكفار قومه ، لانه لم يكن مرسلا إلا إلى قومه بدليل ما صح « وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة »

فاذا قيل لهم : ان الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا) وكقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) وقوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) قالوا هي قابلة للتأويل ولا حجة فيها ، وإذا قيل لهم ان جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحاً عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الارض ، وانه يتعين أن يكون قومه أهل الارض ، ويكون عموم بعثته أمراً اتفاقياً لعدم وجود أحد غير قومه ، ولو وجد غيره لم يكن مرسلا اليهم — سخروا من المحدثين، واستندوا إلى حكايات منسوبة إلى أهل الصين . ورغبتم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم ، والإفادة عما يقتضيه الحق ، ويطمئن اليه القلب .

والجواب عن ذلك والحمد لله : أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الاحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عد اعتقادها من عقائد الدين

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلا قطعيا على معتقد ديني

وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الاديان وأهل النظر في طبقات الارض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الامم ؛ أما اهل الكتاب وعلماء الامة الاسلامية فعلى أن الطوفان كان عاما لكل الارض، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الاصداف والاسماك المتحجرة في أعالي الجبال، لان هذه الاشياء مما لا تتكون إلا في البحر . فظهورها في رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد اليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الارض، ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين ان الطوفان لم يكن عاما ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها — غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية ان الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز، بل على كل من يعتقد بالدين أن لا ينفي شيئا مما يدل عليه ظاهر الآيات والاحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير مراد، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج الى بحث طويل، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الارض وما تحتوي عليه، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته، والله سبحانه وتعالى أعلم» اهـ

(أقول) خلاصة هذه الفتوى أن ظواهر القرآن والاحاديث ان الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن في الارض غيرهم ، فيجب اعتقاده ولكنه لا يقتضي أن يكون عاما للارض اذ لا دليل على انهم كانوا يملؤن الارض وكذلك وجود الاصداف والحيوانات البحرية في قلل الجبال لا يدل على انها من أثر ذلك الطوفان بل الاقرب انه كان من أثر تكون الجبال وغيرها من اليابسة في الماء كما قلنا آنفا، فان صعود الماء الى الجبال أياما معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها ، وقد قلنا في العلاوة الثانية ان هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم

يبينها بنص قطعي فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرنا ، لانه لا ينقض نصا قطعيا عندنا

العلاوة الرابعة

﴿في غضب الله على عباده وعقابهم ببعض ظلمهم وفسوقهم في الدنيا بمناسبة القصة﴾

بينا أن طوفان نوح عليه السلام كان عذابا عاقب الله به قومه على ظلمهم وإجرامهم وان رواية سفر التكوين موافقة للقرآن في هذا ، وكذلك كل ما روي عن الامم القديمة من أخبار الطوفان العام أو الخاص قد جاء فيها هذا المعنى فهو متواتر عن أكثر الامم تواتراً معنوياً

وجاء في القرآن ان الله تعالى عاقب غير قوم نوح من أقوام الانبياء عليهم السلام بعذاب الاستئصال لما عمهم وشملهم الشرك والظلم والفساد، كما قال بعد ذكر أشهرهم في التاريخ (٢٩: ٣٩ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الارض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وسيأتي تفصيل عقاب هؤلاء الاقوام بعد قصة نوح هذه

وقد بينا في هذا التفسير أن عذاب الاستئصال إنما وقع على الامم التي عمها الفساد وأنذرها الرسل وقوعه فلم يرجعوا ، وانه ما وقع على قوم وفيهم مؤمن صالح ، وإنما كان الله تعالى يخرج منهم رسوله ومن آمن معه ويهلك الباقين كما قال (١٧: ١٥ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال (٢٨: ٥٨ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ٥٩ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) ولما كان في قوم فرعون مؤمنون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى لم يغرقهم كلهم وإنما أغرق من خرجوا معه لاعادة بني اسرائيل الى الاستعباد والظلم

وبينا أيضاً ان أمة محمد ﷺ التي وجهت اليها دعوته هم جميع البشر ، وأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، ولهذا لا يهلكها بعذاب الاستئصال لانها لا تجمع على الكفر والفساد

في الارض ، وإنما يكون هلاكها العام بقيام الساعة العامة التي يهلك بها البشر كلهم ، وهذا إنما يكون إذا عمهم الكفر كما ورد في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس مرفوعاً اليه ﷺ وهو «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله »

وقد ثبت في آيات كثيرة ان العذاب يقع في هذه الامة — أمة الدعوة وأمة الاجابة — خاصاً بالظالمين والفاسقين لا عاما للبشر كلهم ولكنه قد يعم أفراد من يقع فيهم ، وقد قال الله تعالى (٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون) وكل هذه الانواع واقعة وقد روي عن عبد الله ابن مسعود (رض) ان هذه الآية فيمن يأتي بعد ، أي بعد عصر النبي ﷺ وأصحابه في المستقبل ، وقد ظهرت في هذا العصر بأشكال لم تكن تخطر على بال بشر في العصور السابقة وهي عذاب الطيارات الجوية ، والالغام الارضية ، والغواصات البحرية ، وتفرق الاقوام إلى شيع في العداوات فوق المعهود ممن قبلهم ، وقد فصلنا ذلك في تفسيرها من سورة الانعام

كذلك يكثر في الامم المختلفة في كل عصر مثل ما عذب به الاقوام الاولون المجرمون الظالمون من الطوفان الخاص وخسف الارض وحسبان النار من البراكين والصواعق ، وشدة القيظ المحرق للنبات القاتل للانسان والحيوان ، وقد اشتدت هذه الانواع في هذين العامين فكانت على أشدها في صيف عامنا هذا (١٣٥٣ هـ ١٩٣٤م) في أمريكة وأوربة ولا سيما انكلترة والهند والترك والفرس والشرق الاقصى وخسفت بعض الارض بالزلازل في الهند . وحدث في مصر وسورية والعراق وشمال افريقية شيء من الجوع وهلاك الحرث ونقص الانفس والثمرات ، وهي مما ورد في القرآن أيضاً ، ولا يزال القيظ على أشده في الولايات المتحدة وانكلترة ،

ونسأل الله تعالى أن يجير مصر من طغيان في النيل كطغيان بعض أنهار الصين والهند أخيرا وفرنسة قبلهما ، عقابا لنا بظلم الظالمين من حكامنا وفسق الفاسقين من دهمائنا ، اللهم قد كثر الفساد في البر والبحر ، وقل من يعرفك في الشدة والرخاء ، ومن يدعوك وحدك في السراء أو الضراء ، اللهم تب علينا ،

ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وأدم لنا هذا النيل رحمة، ولا تجعل منه عقوبة للامة

اعتبار المؤمنين بالمصائب العامة وتوبتهم رجاء رفعها

كان المؤمنون بالله من جميع الامم إذا وقع عذاب مثل هذا يعتبرون ويتذكرون الله تعالى فيتوبون اليه ويستغفرونه كما كان أنبياؤهم يوصونهم ويعلمونهم ان التوبة الى الله واستغفاره من الذنوب ولا سيما الظلم والفسق من أسباب إدرار الغيث والرزق كما قال تعالى في أول هذه السورة (١١ :٣ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ،وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) ثم قال حكاية عن نبيه هود عليه السلام (٥٢ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)وقال حكاية عن نوح في سورته (١٠ فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً ١١ يرسل السماء عليكم مدرارا ١٢ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) ولم يخطر في بال رجال الدين ولا غيرهم في الولايات المتحدة وانكلترة أن يذكروا الناس بغضب الله تعالى عليهم بفسقهم وظلمهم عند ما اشتد القيظ ومنع المطر واحترقت الزروع وهلكت المواشي، ويدعوهم الى التوبة والاستغفار والاستسقاء العام (٧: ٤٣ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ٤٤ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون)أي خائبون متحسرون أو يائسون،

وقال في مشركي أهل مكة(٨: ٣٢وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ٣٣ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فلما خرج ﷺ منهم ودعا عليهم أصابهم القحط الشديد حتى أكلوا العلهز وأرسلوا اليه يستشفعون به حتى كان أبو سفيان أعدى أعدائه هو الذي كلمه واستعطفه على قومه، وفيهم أنزل الله تعالى (١٦: ١١٢ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ١١٣ ولقد جاءهم

رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) وما جعل الله هذا مثلا إلا لانه يشمل الاولين والآخرين حتى كانت أغنى عواصم الارض وقراها كلندن وباريس ذاقت ألم الجوع والخوف في سني الحرب العامة (ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون)

الافكار المادية المانعة من الاتعاظ بالنوازل

فان قيل ان أكثر الظالمين في هذا العصر ماديون يعتقدون ان طوفان نوح الذي اختلف فيه هل كان عاما هلك به جميع أهل الارض إلا من نجا في السفينة أو خاصاً بقوم نوح يعتقدون انه حدث بأسباب طبيعية كما حدث في هذا العام في مواضع في فرنسة وغيرها من أوربة وفي اليابان والهند والصين فأهلك كثيرا من الناس والحيوان، وأتلف من المباني والمزارع ما قدرت قيمته بألوف الالوف من الدراهم والدنانير، وهم يعتقدون ان الطوفان العام لن يحدث في الارض بعد، فان طوفان نوح انما كان عظيما عاما كان أو خاصاً لانه كان قريب العهد بتكوين الارض إذ كان أكثرها مغموراً بالمياه ثم صار يتقلص وتتسع اليابسة بالتدريج. وقد صرح المتكلمون من علمائنا بهذا الرأي ففي كتاب المواقف وغيره: الاشبه أن هذا المعمور كان مغموراً بالمياه بدليل ما يوجد في أعالي الجبال من الاصداف البحرية والاسماك المتحجرة

وهكذا يقولون فيما يعذبون به من الاحداث الجوية كقحط المطر واحتباسه وجفاف المياه وغئورها وشدة صخد الشمس ورمضائها، وقد اشتد هذا في أكثر بلاد الانكليز وامريكة، فاحترق جل زرعهم الصيفي وهلك به كثير من مواشيهم بل مات به ألوف منهم مئات من أهل مدينة نيويورك وحدها وهي أعظم ثغور العالم فأكثر بلاد الافرنج في هذا العام في سخط الله تعالى بين حريق وغريق جزاء بما أفسدوا في الارض بالقتل والتخريب والتدمير في سني الحرب الاربع الاخيرة، ثم بما أسرفوا بعدها في الفجور والشرور وإباحة الفواحش والمنكرات، وإنفاق مازاد من أموالهم على الاستعداد لحرب شر منها، وباشتداد ظلمهم للمستضعفين في مستعمراتهم الرسمية وغير الرسمية، ولا يعتبر أحد بهذه المصائب فيتوبوا

من ظلمهم وفسقهم، لأنهم لا يؤمنون بأنها عذاب ولا نذر من الله تعالى، فأما الماديون منهم فأمرهم ظاهر، وأما المؤمنون بوجود إله للعالم فلا يسندون إلى مشيئته وحكمته إلا ما يجهلون له سبباً من نظام الطبيعة، ويظنون ان كل ما يجري في نظام الاسباب فليس لله تعالى فيه مشيئة وحكمة غير سببه، وأن الاسباب لا تتبدل باختلاف الناس صلاحا وفساداً، بل يعد الماديون هذه المعرفة بنظام الاسباب برهانا على الكفر والتعطيل، وعلى جهل المؤمنين بترقي العلوم وجملة القول فيهم ان المستحوذ على عقولهم هو ما يسمونه «نظرية الميكانيكية» وخلاصة معناها أن العالم كله كآلة كبيرة تدار بقوة كهربائية فيتحرك بعض أجزائها بحركة الآخر، وليس للقوة المحركة لها كلها علم ولا ارادة ولا اختيار في شيء منها، ونقول لهم: من أوجد القوة ومن يحركها ويحفظ وحدة النظام فيها؟

وأما قولهم إن لكل شيء من أحداث العالم سبباً، وان لهذه الاسباب نواميس وسننا، وانها عامة لا خاصة، فصحيح تدل عليه آيات القرآن الحكمة، وأولها آيات القدر والتقدير، التي يفهمها الجماهير بضد معناها، ومنها الآيات الناطقة بأن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول، ومنها قوله تعالى في المصائب والنقم (٨ : ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وقوله في الارزاق والنعم (١٧ : ٢٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) أي ما كان ممنوعا عن أحد من مؤمن وكافر، ولا بر ولا فاجر

ولكنه أخبرنا مع هذه القواعد العامة، ان له في بعض المصائب مشيئة خاصة وحكمة بالغة كقوله (٣٠ : ٤١ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) وقوله (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) فان كان هذا في أسباب المصائب الطبيعية فما جاء في الاسباب المعنوية قوله (٣ : ١١٧ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) الصر بالكسر وتشديد الراء البرد الشديد أو الحر الشديد، وفي معناه مثل أصحاب الجنة الظالمين في سورة القلم، ومثل صاحب الجنتين الظالم لنفسه في سورة الكهف، وقد أهلك الله جنا تهم بظلمهم، ولله في خلقه عقاب خفي، وله فيهم لطف خفي، فنسأله اللطف بنا

وإذا أراد الله شيئا فانه لا ينفذه بابطال السنن والاقدار ولكن بالترجيح أو بالتوفيق بينها كما قال (وجئت على قدر ياموسى) ولله در صريع الغواني حيث قال * وتوفيق أقدار لأقدار * وراجع تفسير (١٠: ٢٣ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) في ص ٣٤٢ ج ١١

قصة هود عليه السلام

تقدمت قصته في ثماني آيات من سورة الاعراف وهي هنا في إحدى عشرة آية ، ولكل منها سياق وأسلوب ونظم، وفي كل منها من العلم والعبرة والموعظة ماليس في الاخرى، وستأتي في سورة الشعراء بأسلوب ونظم وسياق آخر، وكذا في سورتي المؤمنين والاحقاف بدون ذكر اسمه عليه السلام، وذكر عقاب قومه (عاد) في سور فصلت والذاريات والقمر والحاقة والفجر

وقد ذكرت في أول تفسيرها من سورة الاعراف ماورد فيها من الروايات المأثورة ومنها أن هوداً أول من تكلم باللغة العربية فهو أول رسول لأول أمة من ولد سام بن نوح الاب الثاني للبشر ، وبهذا يكون أول رسول من ذرية نوح عربيا ، وآخر رسول وهو خاتم النبيين عربيا ﷺ

---

(٥٠) وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥١) يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥٢) وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ

هذه الآيات الثلاث في تبليغ هود عليه السلام قومه دعوة ربه

٥٠ ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ هذا معطوف على قوله (ولقد أرسلنا نوحا

إلى قومه) أي وأرسلنا الى عاد الاولى أخاهم في النسب والقومية هوداً ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ﴾ وحده ولاتشركوا به شيئاً ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ فان الاله الحق للناس ربهم الذي خلقهم ويربيهم بنعمه وهو واحد باعترافكم ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾ أي ما أنتم في عبادة غيره إلا مفترون كذبا عليه باتخاذ الانداد والاولياء شركاء ، وتسميتهم شفعاء ، تتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم اليه ، وترجون النفع وكشف الضر عنكم بجاههم عنده

٥١ ﴿ ياقوم لا أسألكم عليه أجراً ﴾ تقدم مثله آنفا في قصة نوح ، والمراد إني ناصح مخلص أمين في هذا الذي أدعوكم اليه من عبادة الله وحده لا أسألكم أجراً فتتهموني بطلب المنفعة لنفسي ﴿ إن أجري إلا على الذي فطرني ﴾ أي ما أجري الذي أرجوه على تبليغكم إياه الا على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة من هذه البدع الوثنية التي ابتدعها قوم نوح بتصوير الصالحين منهم لحفظ ذكراهم فزين لهم الشيطان تعظيم صورهم وتماثيلهم فعبادتها (كما رواه البخاري عن ابن عباس) ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما يقال لكم فتميزوا بين الحق والباطل والنافع والضار ، وان الاخ لايغش أخوته، ولا يعرض نفسه لغضب قومه بدعوتهم الى ما يضرهم ولا ينفعه

٥٢ ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ تقدم هذا الامر بلفظه في الآية الثالثة من هذه السورة ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ هذا الجزاء الاول للامر قبله، والسماء هنا المطر أو السحاب الممطر ، وإرساله إمطاره، والمدرار الكثير الدرور وأصله كثرة در اللبن يقال درت الشاة تدر دراً ودروراً فهي دارّ (بغير هاء) أي كثر فيض لبنها . ولعل نكتة التعبير به الاشارة إلى الكثرة النافعة فان بعضه قد يكون ضاراً وقد يكون عذابا ، وكانت بلادهم الاحقاف (جمع حقف وهو الرمل المائل) شديدة الحاجة الى المطر لزرعها وشجرها لان الرمل يسرع اليه الجفاف اذا قل المطر ، وروي عن الضحاك أن الله أمسك عنهم المطر ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم ، ولا أدري من أين جاءت هذه الرواية ، ولكن يدل

على شدة حاجتهم إلى المطر أنهم لما رأوا بادرة العذاب الذي أنذروا به استبشروا إذ ظنوا أنه سحاب يمطرهم . قال تعالى في سورة الاحقاف (٤٦ : ٢٤ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم ٢٥ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين) ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ هذا الجزاء الثاني للامر وهو مما كانوا يطلبونه ويعنون به ويفخرون على الناس ، إذ كانوا قد بسط لهم في الاجسام وأعطوا القوة فيها كما تراه في قوله تعالى (٤١ : ١٥ فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ١٦ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) وقوله (٢٦ : ١٣٠ واذا بطشتم بطشتم جبارين) فياليت دول أوربة المستكبرة بقوتها التي يهدد بها بعضها بعضاً تعتبر بهذا ، وأنى وهم أشد من قوم عاد كنوداً ؟ ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ أي ولا تنصرفوا معرضين عما أدعوكم اليه مما يكون سبباً لنعمة المعيشة وسعة الرزق وزيادة القوة وهي جزاء الاستقامة على الحق

---

(٥٣) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٤) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٥) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٦) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٧) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ

هذه الآيات الخمس في رد قومه للدعوة وجحودهم للبينة، وحجته عليهم وانذاره لهم

٥٣ ﴿ قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ﴾ أي بحجة ناهضة تدل على ان ماجئت به من الله تعالى ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ أي ومانحن بالذين نترك عبادة آلهتنا صادرين عن قولك أو تركا صادراً عن قولك من تلقاء نفسك وأنت بشر مثلنا ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي وما نحن بمتبعين لك اتباع ايمان وتصديق برسالتك التي لابينة لك عليها ، وما قولهم هذا إلا جحود وعناد ، فان حجته عليه السلام موافقة للعقل والفطرة السليمة

٥٤ ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ أي ما نجد من قول نقوله فيك إلا ان بعض آلهتنا أصابك بجنون أو خبل وهو الهوج والبله لانكارك لها وصدك إيانا عنها ﴿ قال إني أشهد الله، واشهدوا أني بريء مما تشركون (٥٥) من دونه ﴾ هذا بدء جواب يتضمن عدة مسائل (احداها) البراءة من شركهم أو شركائهم التي افتروها ولا حقيقة لها (الثانية) اشهاد الله على ذلك لثقته بأنه على بينة منه فيه — واشهاده إياهم عليه ايضالا علامهم بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه (الثالثة) قوله ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ أي فأجمعوا أنتم وشركاؤكم ماتستطيعون من الكيد الايقاع بي ثم لا تمهلوني ولا تأخروا الفتك بي ان استطعتم ، أي إنه لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم . وتقدم مثل هذا في تلقين نبينا ﷺ بقوله تعالى بعد تقرير عجز آلهة المشركين وهو (٧ : ١٩٥ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) ومثله حكاية عن نوح في سورة يونس (١١ : ٧١ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون) وقد قدم نوح على هذا الامر توكله على الله تعالى ، وأخره هود بقوله وهو المسألة (الرابعة)

٥٦ ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ هذا احتجاج على مادل عليه ماقبله من عدم الخوف منهم ومن آلهتهم ، يقول إني وكلت أمر حفظي وخذلانكم إلى

الله معتمداً عليه وحده إذ هو ربي وربكم أي مالك أمري وأموركم المتصرف فيها وفي غيرها بدليل قوله ﴿ مامن دابة ﴾ تدب على هذه الارض ﴿ إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي مسخرها ومتصرف فيها ، والتعبير بالاخذ بالناصية وهو مقدم شعر الرأس تمثيل لتصرف القهر ، والخضوع الذي لامهرب منه ولا مفر ، وتقدمت الجملة في أول الآية السادسة من هذه السورة . ويؤيده من سورة العلق (لئن لم ينته لنسفعن بالناصية) أي لنأخذن بها أخذ القاهر المؤدب قال في الاساس : وسفع بناصية الفرس ليلجمه أو يركبه ، وسفع بناصية الرجل ليلطمه ويؤدبه اهـ ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ أي على طريق الحق والعدل لايسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ومتبعيهم من أوليائه ، ولا يضيع حقا ولا يفوته ظالم

٥٧ ﴿ فإن تولوا ﴾ أي فان تتولوا مجرمين ولم تنتهوا بنهيي لكم عن التولي ولم تطيعوا أمري لكم بعبادة الله وحده وترك الاشراك به ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ﴾ أي فقد أبلغتكم رسالة ربي التي أرسلني بها اليكم وليس علي غير البلاغ ولزمتكم الحجة ، وحقت عليكم كلمة العذاب ﴿ ويستخلف ربي قوما غيركم ﴾ اذا هو أهلككم باصراركم على كفركم واجرامكم ﴿ ولا تضرونه شيئا ﴾ مامن الضرر بتوليكم عن الايمان ، فانه غني عنكم وعن إيمانكم (٧:٣٩ إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) ويستلزم هذا انكم لاتضرون رسوله ولعله هو المراد ، ويؤيده قوله ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أي قائم ورقيب عليه بالحفظ والبقاء ، على مااقتضته سنته وتعلقت به مشيئته ، ومنه أنه ينصر رسله ويخذل أعداءه وأعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم

---

(٥٨) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٩) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ

رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٦٠) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ

هذه الآيات الثلاث في إنجاء هود ومن آمن معه والجزاء والعقوبة لقومه المعاندين

٥٨ ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ عذابنا أو وقته ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أي برحمة من لدنا خاصة بهم مخالفة للعادة في أسباب النجاة من العذاب العارض الذي يصيب بعض الناس دون بعض وهي التي أشير اليها في قول نوح لولده (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ أعاد فعل التنجية للفصل بين (منا) التي هي صفة الرحمة وبين (من) الداخلة على العذاب . أي وانما نجيناهم من عذاب غليظ شديد الغلظة فظيع شديد الفظاعة غير معهود في العالم ، وهو ماعبر عنه بالريح العقيم ، التي لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وبقوله (٥٤ : ١٩ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر ٢٠ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وقوله في وصف هذه الريح العاتية (٦٩ : ٧ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ٨ فهل ترى لهم من باقية)

٥٩ ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ أي كفروا بجنس الآيات التي يؤيد بها رسله بجحود ماجاءهم به رسولهم منها ، أنث الاشارة اليهم على إرادة القبيلة وقيل اشارة الى آثارهم ، والجحود بالآيات تكذيب الدلائل الواضحة عناداً في الظاهر دون الباطن ، كما قال في قوم فرعون (٢٧ : ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) ﴿ وعصوا رسله ﴾ أي عصوا جنسهم بعصيان رسوله اليهم وانكار رسالته فان عصيان الواحد عصيان للجنس كله ، إذ هو مبني على رفض الرسالة نفسها بادعاء

ان الرسول لا يكون بشراً ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ أي واتبع سوادهم ودهماؤهم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين فيهم بالقهر، فالجبار القاهر الذي يجبر غيره على اتباعه بالقهر والاذلال، أو من يجبر نقص نفسه بالكبر ودعوى العظمة، والعنيد الطاغي الذي يأبى الحق ولا يذعن له، وان ظهر له وقام عليه الدليل عنده، فهل يعتبر بهذه بقايا الملوك الجبارين في الارض قبل انقراضهم؟

٦٠ ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ إتباع الشيء الشيء لحوقه به وادراكه إياه بحيث لا يفوته، أي لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم ومن أدرك آثارهم، وكل من بلغه الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم ﴿ ويوم القيامة ﴾ وتتبعهم يوم القيامة عند ما يلعن الاشهاد الظالمين أمثالهم كما تقدم في الآية الثامنة عشرة من هذه السورة. قال قتادة: تتابعت عليهم لعنتان من الله لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة ﴿ ألا ان عاداً كفروا ربهم ﴾ هذه شهادة مؤكدة عليهم بالكفر أي كفروا نعمه عليهم بجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبراً وعناداً، يقال كفره وكفر به، وشكره وشكر له، ومعنى مادة الكفر في الاصل التغطية

﴿ ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة حكاية لبدئه، وتسجيلا لدوامه، كرر ألا المنبهة لما بعدها تعظيما لأمره، وكرر اسمهم ووصفهم بقوم هود ليفيد السامع بالتكرير تقرير استحقاقهم للعنة والابعاد وسببه، وأنهم ليس لهم شبهة عذر لرد الدعوة، المعقبة للحرمان مما كانوا فيه من خير ونعمة، والانتهاء الى ضده من شقاء ونقمة.

قصة صالح عليه السلام

هو النبي الرسول الثاني من العرب وتقدم ذكر قصته في سبع آيات من سورة الاعراف ذكرت في أول تفسيرها مساكن قبيلته ثمود وهي الحجر بين الحجاز والشام وهاهي ذي قد ذكرت هنا في ثماني آيات تضاهي تلك السبع، وستجيء في ١٩ آية من سورة الشعراء أقصر من آيات هاتين السورتين ثم في ثمان من

سورة النمل تناهز آيات الاعراف ، ثم في عشر من سورة القمر قصار ، وذكرت قبلهن في خمس من سورة الحجر ، وبعدهن في خمس من سورة الشمس ، وثلاث من سورة الذاريات ، وثنتين من سورة النجم ، وفي كل من الموعظة والعبرة في موضعها مايليق بها ، ولا يغني عنها غيرها

---

(٦١) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦٢) قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَىٰنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٣) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ

هذه الآيات الثلاث في تبليغ دعوة صالح لقومه وردهم لها واحتجاجه عليهم

٦١ - ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ هذا نص ماتقدم في تبليغ هود عليهما السلام، ثم قال ﴿ هو أنشأكم من الارض ﴾ أي هو بدأ خلقكم من الارض بخلق أبيكم آدم منها مباشرة ثم بخلق كل منكم من سلالة من طين الارض ، فان النطفة التي تتحول في الرحم الى علقة فمضغة فهيكل عظمي يحيط به لحم هي من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء الغالب إما نبات من الارض، وإما لحم يرجع الى النبات في طور واحد أو أكثر ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي وجعلكم عماراً فيها من العمران فقد كانوا زراعا وصناعا وبنائين (١٥ : ٨٢ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) وقيل من العمر أي أطال أعماركم فيها

والصحيح الاول، واستعمل الاستعمار في عصرنا بمعنى استيلاء الدول القوية على بلاد المستضعفين واستثمارها واستعباد أهلها لمصالحهم ، والمراد أنه هو المنشيء لخلقكم والممدكم بأسباب العمران والنعم فيها فلا يصح أن تعبدوا فيها غيره ، لأنه هو صاحب الفضل كله ، والمستحق للعبادة وحده ﴿ فاستغفروه ثم توبوا اليه ﴾ أي فاسألوه ان يغفر لكم ما أشركتم وما أجرمتم ثم توبوا وارجعوا اليه كلما وقع منكم ذنب أو خطأ ، وتقدم مثله في دعوة هود قريبا وفي دعوة محمد ﷺ في أول السورة ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ قريب من عباده لا يخفى عليه شيء من استغفارهم والباعث عليه من أحوالهم ، مجيب لدعاء من دعاه مؤمنا مخلصا له الدين كما قال في سورة البقرة (٢ : ١٨٦ وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) فيراجع تفسيرها المفصل هنالك

٦٢ ﴿ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي قد كنت موضع رجائنا لمهات أمورنا لمالك من المكانة في بيتك وفي صفاتك الشخصية من العقل والرأي قبل هذا الذي تدعونا اليه من تبديل ديننا بما تزعم من بطلانه فانقطع رجاؤنا منك ﴿ أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ ﴾ الاستفهام للانكار والتعجب أي أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا من قبلنا واستمر فينا لا ينكره ولا يستقبحه أحد ؟ فالآباء يشمل الغابرين والحاضرين ، ولو قالوا ماعبد آباؤنا لما أفاد هذا ، فلا حاجة إلى القول بأن التعبير بالمضارع حكاية مصورة للحال الماضية في صورة الحاضرة ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب ﴾ أي وإننا لواقعون في شك مما تدعونا اليه من عبادة الله وحده لا نتوسل اليه بأحد من أوليائه وأحبائه الشفعاء لنا عنده المقربين لنا اليه، ولا بتعظيم ماوضعه آباؤنا لهم من الصور والتماثيل المذكرة بهم، لا ندري مرادك وغرضك منه ، فانه موجب للريب وسوء الظن. قال في المصباح المنير : الريب الظن والشك، ورابني الشيء يريبني اذا جعلك شاكا ، قال أبو زيد رابني من فلان أمر يريبني ريبا : اذا استيقنت منه الريبة ، فاذا أسأت به الظن

ولم تستيقن منه الريبة ، قلت أرابني منه أمر هو فيه إرابة ، وأرابني فلان إرابة فهو مريب : اذا بلغك عنه شيء أو توهمته اهـ

٦٣ ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾ تقدم مثل هذا حكاية عن نوح في الآية ٢٨إلا أنه قال«رحمة من عنده» أي أخبروني عن حالي معكم إن كنت على حجة واضحة قطعية من ربي فيما أدعوكم اليه ووهبني رحمة خاصة منه جعلني بها نبياً مرسلا اليكم ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ بكتمان الرسالة أومايسوءكم من بطلان عبادة أصنامكم وأوثانكم تقليداً لآبائكم؟ أي لا أحد ينصرني من الله ويدفع عني عقابه في هذه الحالة،وإذن لا أبالي بفقد

رجائكم في ، ولا بما أنتم فيه من شك وارتياب في أمري ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي ما تزيدونني بحرصي على رجائكم ، واتقاء سوء ظنكم وارتيابكم ، غير إيقاع في الخسران بإيثار ماعندكم على ماعند الله ، واشتراء رضاكم بسخط الله تعالى ، أو غير إيقاع في الهلاك . قال في مجاز الاساس:وخسّره سوء عمله:أهلكه وفي المصباح المنير : وخسرت فلانا بالتثقيل أبعدته ،وخسرته نسبته إلى الخسران مثل كذبته بالتثقيل اذا نسبته إلى الكذب ، ومثله فسقته وفجرته اذا نسبته إلى هذه الافعال ، وقال الفراء في الجملة : فما تزيدونني غير تضليل وابعاد من الخير وقال مجاهد وعطاء الخراساني ما تزدادون أنتم إلا خساراً اهـ ولعل مرادهما ماتزيدونني بقولكم إلا علما بخساركم باستبدال الشرك بالتوحيد

(٦٤) وَيَاقَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٥) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٦) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٧) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٦٨) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ

هذه الآيات الخمس في بينة الله لصالح عليه السلام وهي آيته على رسالته، وانذارهم الهلاك وعذاب الاستئصال اذا هم مسوها بسوء، ووقوع ذلك بالفعل.

٦٤ ﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أي الناقة التي شرفها الله باضافتها الى اسمه بجعلها ممتازة دون الابل بما ترون من أمرها وأكلها وشربها، أشير اليها حال كونها لكم آية منه بينة دالة على هلاككم إن خالفتم أمره فيها ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ مما فيها من المراعي لا يعرض لها أحد بمنع ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ أي لا يمسها أحد منكم بأذى فيأخذكم كلكم عذاب عاجل لا يتأخر عن مسكم إياها بعقر أو غيره، وقد تقدم هذا الانذار بنصه في قصته من سورة الاعراف إلا انه قال هنالك (عذاب أليم) وكل من الوصفين حق وقد تكلمت هنالك على هذه الناقة ومعنى اضافتها إلى الله تعالى، وما جاء فيها من السور الاخرى ومنه قسمة الماء بينها وبينهم (فيراجع في ص ٥٠٣ و ٥٠٦ من ج ٨)

٦٥ ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ يقولون عقر الناقة (من باب ضرب) بالسيف إذا ضرب قوائمها به أو نحرها، أي فقتلوا الناقة عقب ذلك الانذار غير مصدقين له ولا مبالين بالوعيد، فضرب لهم صالح ثلاثة أيام موعداً يتمتعون بها في وطنهم كما كانوا في معايشهم ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ أي وعد من الله غير مكذوب فيه، وكذب يتعدى بنفسه فيقال كذب فلانا حديثا وكذبه الحديث أي كذب عليه فيه، والوعد خبر موقوت كأن الواعد قال للموعود اني أفي به في وقته، فان وفى فقد صدقه ولم يكذبه، ويجوز أن يكون [مكذوب] مصدراً وله نظائر كالمفتون والمجلود ومنه (بأيكم المفتون)

٦٦ ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ﴾ أي فلما جاء أمرنا بانجاز وعدنا بعذابهم نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا ، ونجيناهم من خزي ذلك اليوم أي ذله ونكاله باستئصال القوم من الوجود ، وما يتبعه من سوء الذكر ولعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ، وأصل التعبير نجيناهم برحمة منا من خزي يومئذ ففصل بين «من» التي هي صفة الرحمة ، ومن الموصلة للعذاب كما تقدم في قصة هود بدون اعادة فعل التنجية الذي صرح به هناك ، وقدّر هنا استغناء عن ذكره بقرب مثله

فهذه الآية كالآية ٥٧ في قصة هود ومعناهما واحد ، إلا ان هذه جاءت بالفاء (فلما) وتلك بالواو وهو الاصل في مثل هذا العطف ، وانما كانت الفاء هي المناسبة لما هنا لان ماقبلها جاء بالفاءات المتعاقبة الواقعة في مواقعها من أمر الانذار فالوعيد على المخالفة فالمخالفة فتحديد موعد العذاب بثلاثة أيام فالاخبار بانجازه ووقوعه — فما كان المناسب في هذا إلا أن يكون بالفاء تعقيباً على ماقبله كما قال في آخر سورة الشمس (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها* فكذبوه فعقروها* فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) وانما بينت هذا من نكت البلاغة لأني لم أره في التفاسير التي تعنى بها

فليتأمل القاريء هذه الدقة الغريبة في اختلاف التعبير عن المعنى الواحد في الموضوع الواحد والفروق الدقيقة في العطف ، فانها لاتوجد في كلام أحد من بلغاء البشر البتة ، وليعذر الذين يتهمونها اذا جهلوا بلاغة القرآن هي التي أعجزت العرب والانس والجن عن الاتيان بسورة مثله وان كان اعجازه العلمي من وجوهه الكثيرة أعلى ﴿ إن ربك هو القوي العزيز ﴾ ان ربك أيها الرسول الذي فعل هذا قادر على فعل مثله بقومك اذا أصروا على الجحود ، فانه هو القوي المقتدر الذي لايعجزه انجاز وعده ، العزيز الغالب على أمره

قرأ الجمهور (يومئذ) بجر يوم بالاضافة ، وقرأه نافع والكسائي بالفتح وهما لغتان ، ومثله في سورة المعارج (لو يفتدي من عذاب يومئذ)

٦٧ ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ الاخذ في أصل اللغة التناول باليد واستعمل

في المعاني كأخذ الميثاق والعهد وفي الاهلاك ، والصيحة المرة من الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة التي نزلت بقوم صالح فأحدثت رجفة في القلوب وزلزلة في الارض ، وصعق بها جميع القوم ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ أي ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد، شبهوا بالطير في لصوقها بالارض. يقال جثم الطائر والارنب (من باب ضرب) جثوما وهو كالبروك من البعير. وتقدم في سورة الاعراف (٧٧.٧ فأخذتهم الرجفة) الخ وقد فصلنا في تفسيرها ماورد من اختلاف التعبير فيها وفي هذه الآية ومثلها آية سورة القمر وفي سورة فصلت حيث قال (فأخذتهم الصاعقة) وبينا معنى الصاعقة الذي عرف من سنن الله تعالى في نوعي الكهربائية الايجابي والسلبي فيراجع (في ص٥٠٧ و٥٠٨ ج ٨ تفسير) ومنه يعلم غلط من قال ان الصيحة صوت جبريل عليه السلام

٦٨ ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ هو من غني بالمكان (كرضي) إذا أقام فيه، أي كأنهم في سرعة زوالهم ، وعدم بقاء أحد منهم في ديارهم ، لم يقيموا فيها البتة ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود ﴾ تقدم مثله آنفا في قوم هود ، وفي ثمود قراءتان سبعيتان مشهورتان تنوينه لأنه مصروف بمعنى الحي أو القوم ، ومنعه من الصرف بمعنى القبيلة ، وهذه قراءة أكثر الناس في زماننا ،

ابراهيم (ص) مع الملائكة عليهم السلام

ذكر ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في ٢٤ سورة من القرآن منها ماهو في قصته مع أبيه وقومه في وطنه مجملا ومفصلا على ماعلمناه من سنة القرآن، ومنها ماهو في بيان امامته وكون ملته أساس دين الله تعالى على ألسنة رسله من عهده إلى خاتمهم (عليهم الصلاة والسلام) ومنها ماهو في بشارته بولديه اسماعيل فاسحاق عليهما السلام وما وعده الله له ولهما ولذريتهما ، وما هو خاص باسماعيل وقومه العرب من بناء البيت الحرام واسكانه هنالك ، ومنها ماهو في بشارة الملائكة إياه باسحاق وإخباره باهلاك قوم لوط ، ومنه هذه الآيات

(٦٩) وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا ، قَالَ سَلَٰمٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٧٠) فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧١) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧٢) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ إِنَّ هَٰذَا الشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٣) قَالُوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

هذه الآيات الخمس خاصة ببشارة الملائكة لابراهيم وامرأته باسحق ويعقوب

٦٩﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ﴾ خبر مؤكد بالقسم لغرابته عند العرب معطوف على قوله تعالى(٢٥ ولقد أرسلنا نوحا) أو على ماعطف عليه من أول السورة لا على ماقبله مباشرة من قصة صالح التي عطفت على قصة هود لتماثلهما ، والمراد بالرسل جماعة من الملائكة اختلفت الرواية فيهم فعن عطاء أنهم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام ، وعن محمد بن كعب القرظي انهم جبريل وسبعة أملاك معه ، وقيل غير ذلك وهو مما لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي ولا توقيف فيه . وستذكر البشرى بعد التحية والضيافة ﴿ قالوا سلاما ﴾ أي نسلم عليك سلاما ، أو ذكروا هذا اللفظ ﴿ قال سلام ﴾ أي أمركم سلام ، أو عليكم سلام ، قال المفسرون ان الرفع أبلغ من النصب فقد حياهم بأحسن من تحيتهم ، أي على عادته ودأبه في إكرام الضيف وظن أنهم أضياف ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي مامكث وما أبطأ

عن مجيئه إياهم بعجل سمين حنيذ أي مشوي بالرضف وهي الحجارة المحمية — والمشوي عليها يكون أنظف من المشوي على النار وألذ طعما ، وقد اهتدى البشر إلى شي اللحم من صيد وغيره على الحجارة المحمية بحر الشمس قبل اهتدائهم لطبخه بالنار ، وفي سورة الذاريات بعد السلام (٥١: ٢٦ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ٢٧ فقربه اليهم قال ألا تأكلون) وهو نص في المبادرة إلى الاتيان به بدون مهلة كأنه كان مشوياً معداً لمن يجيء من الضيف أو شوي عند وصولهم من غير تريث

٧٠ ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه ﴾ أي لا تمتد اليه للتناول منه كما يمد الآكل يده إلى الطعام ﴿ نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ نكر الشيء (كعلم وتعب) وأنكره ضد عرفه ، أي نكر ذلك منهم ووجده على غير مايعهد من الضيف فان الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة أو قصد سيء ، وأحس في نفسه خيفة منهم وفزعا ، أو أدرك ذلك وأضمره إذ شعر أنهم ليسوا بشراً أو أنهم ربما كانوا من ملائكة العذاب ، والوجس (كالوعد) الصوت الخفي ويطلق على ما يعتري النفس من الشعور والخواطر عند الفزع ﴿ قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ أي قالوا وقد علموا مايساور نفسه من الوجس لا تخف فنحن لا نريد بك سوءاً وانما أرسلنا إلى قوم لوط لاهلاكهم ، ولوط ابن أخيه وأول من آمن به وكان مكانه من مهاجره قريباً من مكانه وفي سورة الحجر أنه صارحهم بخوفه ووجله منهم ، فطمأنوه بأنهم مبشرون له بغلام عليم ، وكذا في سورة الذاريات ، وفيها أنه بعد البشارة له سألهم عن خطبهم وما جاءوا لأجله فأخبروه فجادلهم فيه كما يذكر هنا مجملا

٧١ ﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ وكانت امرأة ابراهيم في تلك الحال قائمة أي واقفة — ولعل قيامها كان للخدمة — فضحكت قيل تعجباً مما رأت وسمعت ، وقيل سروراً بالامن من الخوف او بقرب عذاب قوم لوط لكراهتها لسيرتهم الخبيثة ، وقيل تعجباً من البشارة بالولد وهذا يكون أولى إن كانت البشارة قبل الضحك ، والظاهر انها بعده لعطفها عليه بالفاء وهو ﴿ فبشرناها

باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ وزعم الفراء أن فيه تقديماً وتأخيراً ، ولا مقتضي ولا مسوغ له ، لان لضحكها أسباباً ذكرنا بعضها وزاد غيرنا عليها ، على ان بشارتها كانت بالتبع لبشارة بعلها وهو المقصود بالذات وصرح به في سور الحجر والصافات والذاريات خاصاً به ، أي بشرناها بالتبع لتبشيره باسحاق ، ومن بعد اسحاق يعقوب يعني انه سيكون لاسحاق ولد أيضاً . قرأ ابن عامر وحمزة وحفص (يعقوب) منصوباً بفعل مقدر تفسره قرينة الكلام كوهبناها من وراء اسحاق يعقوب ، كما قال (٦ : ٨٤ ووهبنا له إسحاق ويعقوب) وقرأه الباقون مرفوعاً بالابتداء والتقدير : ويعقوب من وراء اسحاق ، وروي عن ابن عباس ان الوراء ولد الولد

٧٢ ﴿ قالت يا ويلتا ﴾ أصلها يا ويلي (كما يقال يا عجبا بدل يا عجبي) وهي كلمة تقال عند ما يفجأ الانسان أمر مهم من بلية أو فجيعة أو فضيحة تعجباً منه أو استنكاراً له أو شكوى منه ، وأكثر ما يجري على ألسنة النساء قديماً وحديثاً . ونساء مصر يقلن «يادهوتي»

﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ عقيم لا يلد مثلها ﴿ وهذا بعلي ﴾ وأشارت اليه ـ كما ترون ﴿ شيخاً ﴾

كبيراً لا يولد لمثله ﴿ إن هذا ﴾ الذي بشرتمونا به ﴿ لشيء عجيب ﴾ وفي سفر التكوين ان ابراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وان زوجه سارة هذه كانت ابنة تسعين سنة ومثلها لا يلد بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة في سن الخمسين فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على انها كانت عقيماً كما في سورة الذاريات . فأما الرجال فلا يزال يوجد في المعمرين منهم من يولد له في سن المائة وما بعدها ولكنه نادر . وقد حدثتنا صحف الاخبار عن رجل تركي منهم اسمه (زارو أغا) مات في هذا العام (١٣٥٣) عن مائة وخمسة وثلاثين عاماً . ثم عن رجل عربي في العراق قريب من عمره لا يزال حياً وقد ولد لكل منهما بعد المئة . ثم عن رجل عربي سوري من مجدل زوين التابع لقضاء صور اسمه السيد حسين هاشم عمره ١٢٥ سنة بشهادة المحكمة الشرعية ومختار بلدته ، وهو لا يزال منتصب القامة جيد الصحة قوي الذاكرة وقد تزوج أولا وهو في سن العشرين وثانياً وهو في العشرين بعد المائة رزق من الاولى ١٤ ولداً منهم ١٢ ذكراً ومن الثانية ولداً واحداً ، ويعيش عيشة فطرية إسلامية

والظاهر أن سارة علمت من حال بعلها أنه بعد ولادة هاجر لابنه اسماعيل بزمن قريب أو بعيد فقد الاستعداد لاتيان النساء أو كانت تعتقد كما يعتقد أن مثله في تلك السن لا يولد له فقد قال هو للملائكة (٥٤ : ١٥ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون) ويكفي في خرق العادة أن يكون من قبلها هي ولذلك أنكروا عليها

﴿٧٣ قالوا أتعجبين من أمر الله ؟﴾ هذا استفهام إنكار لاستفهامها التعجبي أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله الذي لا يعجزه شيء (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وإنما يصح العجب من وقوع ما يخالف سننه تعالى في خلقه إذا لم يكن واضع السنن ونظام الاسباب هو الذي أراد أن يستثني منها واقعة يجعلها من آياته، لحكمة من حكمه في عباده ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ هذه جملة دعائية استجيبت فمناه الذي فسره الزمان الى الآن: رحمة الله الخاصة وبركاته الكثيرة الواسعة عليكم يا معشر أهل بيت النبوة والرسالة، تتصل وتتسلسل في نسلكم وذريتكم إلى يوم القيامة، فلا محل للعجب ان يكون من آياته تعالى أن يهب رسوله وخليله الولد منكما في كبركما وشيخوختكما، فما هي بأول آياته له وقد نجاه من نار قومه الظالمين، وآواه الى الارض التي بارك فيها للعالمين. وهذه الرحمة والبركات والسلام عليهم، إرث أو تجديد لما هبط به نوح من السلام والبركات عليه وعلى أمم ممن معه كما تقدم في الآية (٤٨) ﴿انه حميد مجيد﴾ انه جل جلاله مستوجب لانواع الثناء والحمد، حقيق بأسنى غايات المجد، وبتأثيلهما لاهل البيت. والجملة تعليل لما قبلها. وأصل المجد في اللغة أن تقع إبل في أرض واسعة المرعى، يقال: مجدت تمجد (من باب نصر) مجداً ومجادة، وأمجدها الراعي، والمجد في البيوت والانساب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نوالهم. ووصف الله كتابه بالمجيد كما وصف نفسه به لسعة هداية كتابه، وسعة كرمه وفضله على عباده، ومن هذه الآية أخذ النبي ﷺ دعاء الصلاة الذي أمر به امته عقب التشهد الاخير من الصلاة

---

(٧٤) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٥) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ

(٧٦) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ

---

٧٤ ﴿ فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ أي فلما سرِّي عن ابراهيم وانكشف ما راعه من الخيفة والرعب إذ علم أن هؤلاء الرسل من ملائكة العذاب ، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل ، أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط ، جعلت مجادلتهم ومراجعتهم مجادلة له تعالى لأنها مجادلة في تنفيذ أمره ، وإنما قال (يجادلنا) دون (جادلنا) — والاصل في جواب «لما» أن يكون فعلا ماضياً — لتصوير تلك الحال كأنها حاضرة ، أو لتقدير ماض قبله كالذي قلنا ، والمراد بالمجادلة ما ذكر في سورة العنكبوت (٢٩ : ٣١ فلما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ٣٢ قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين)

---

٧٥ ﴿ ان ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾ هذا تعليل لمجادلة ابراهيم في عذاب قوم لوط وهو انه كان حليما لا يحب المعاجلة بالعقاب ، كثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، منيب يرجع الى الله في كل أمر ، وقد تقدم وصفه بالأواه الحليم في الآية ٩ : ١١٤

وهذه المجادلة المشار اليها هنا المجملة في سورة العنكبوت مفصلة في الفصل الثامن عشر من سفر التكوين من أوله إلى آخره ، وجعلت فيه مجادلة للرب سبحانه لا لرسله ، ففي أوله ان الرب ظهر لابراهيم وهو جالس في باب الخيمة فظهر له ثلاثة رجال ، وذكر خبر ضيافته لهم بالعجل وخبز الملة وأنهم أكلوا وبشروه بالولد ، وان امرأته سارة سمعت فضحكت وتعجبت ، وعللت تعجبها بكبرها وانقطاع عادة النساء عنها (١٣ فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت سارة هل يستحيل على الرب شيء ؟ الخ

ثم قال (٢٢ وانصرف الرجال (يعني الملائكة) من هناك وذهبوا نحو سدوم (أي قرية قوم لوط) وأما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب ٢٣ فتقدم ابراهيم

وقال : أفتهلك البار مع الاثيم ٢٤ عسى ان يكون هناك خمسون باراً في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه ؟ .. ٢٦ فقال الرب إن وجدت في سدوم خمسين باراً فاني أصفح عن المكان كله من أجلهم) ثم كلمه ابراهيم مثل هذا في خمسة وأربعين ثم في أربعين ثم في ثلاثين ثم في عشرين ثم في عشرة ، والرب يعده في كل من هذه الاعداد بأنه من أجلهم لايهلك القوم (ثم قال) ٣٣ وذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع ابراهيم إلى مكانه » اه

فتأمل الفرق بين عبارات القرآن الوجيزة المفيدة المنزهة للرب تعالى عن مشابهة الخلق وعبارات مايسمونه التوراة في تشبيه الله بعباده وتطويلها غير المفيد،

---

٧٦ ﴿ ياابراهيم أعرض عن هذا ﴾ بيان مستأنف لما أجابته به الملائكة عن الله تعالى، اي أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط والاسترحام لهم ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ اي ان الحال والشأن فيهم قد قضي بمجيء أمر ربك الذي قدره لهم

﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ بجدال ولا شفاعة فهو واقع ماله من دافع،

فهل يعتبر بهذا من يتخذون لله أنداداً من أوليائه أو أوليائهم يزعمون أنهم يتصرفون في الكون كما يشاءون ، وأن قوله تعالى في أهل الجنة (لهم مايشاءون عند ربهم) هو لهؤلاء الاولياء في الدنيا فلا يرد لهم طلبا ولا شفاعة ولا يريد مالا يريدونه ! يكذبون على الله ويحرفون كتابه وهم يدعون أنهم مسلمون مؤمنون بأن أفضل الخلق بعد محمد جده ابراهيم الخليل عليهما وآلهما الصلاة والسلام ؟

قصة لوط عليه السلام واهلاك قومه

في سفر التكوين ان لوطا عليه السلام ابن هارون أخي ابراهيم ﷺ وانه هاجر معه من مسقط رأسهما (أور الكلدانيين) في العراق إلى أرض الكنعانيين وسكن ابراهيم في أرض كنعان ، ولوط في مدن دائرة الاردن، وقاعدتها سدوم ويليها عمورة فصوغر ، وانما افترقا اتقاء اختلاف رعيانهما وإيقاعهما في الخصومة التي لاينبغي أن تكون بين الاخوين (أي العم وابن أخيه) وكان لوط عليه السلام

في سدوم ويظن الكثيرون من الباحثين ان بحيرة لوط قد غمرت موضعها بعد الخسف فلا يعلم موضعه بالضبط . وقيل انه عثر على آثارها في هذا العهد

---

(٧٧) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٨) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٩) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٨٠) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ

هذه الآيات الاربع في اهراع قوم لوط اليه للاعتداء على ضيفه وسوء حاله معهم

٧٧ ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا ﴾ بعد ذهابهم من عند ابراهيم ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ أي وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم وضاق بهم ذرعه اي عجز عن احتمال ضيافتهم ، فذرع الانسان منتهى طاقته التي يحملها بمشقة . ذلك لما يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم ، وروي انهم جاءوه بشكل غلمان حسان الوجوه

﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ شديد الاذى ، مرهوب الشذى ، مشتق من العصب بفتح فسكون أي الشد فهو بمعنى معصوب ويجوز ان يكون بمعنى عاصب ، والعصب بالتحريك أطناب المفاصل ، ومنه العصابة التي يشد بها الرأس

٧٨ ﴿ وجاءه قومه يهرعون اليه ﴾ أي جاءوه يهرولون متهيجة أعصابهم كأن سائقا يسوقهم ، قال في المصباح المنير : هرع وأهرع بالبناء فيهما للمفعول اذا أعجل على الاسراع ، أي حمل على العجل به اهـ وقال الكسائي والفراء وغيرهما لا يكون الاهراع إلا اسراعا مع رعدة من برد أو غضب أو حمى اهـ وينبغي ان يزاد عليه أو شهوة

شديدة ، وقال مجاهد هو مشي بين الهرولة والعدو ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ ومن قبل هذا المجيء كانوا يعملون السيئات الكثيرة وشرها أفظع الفاحشة وأنكرها في الفطرة البشرية والشرائع الالهية والوضعية ، وهي اتيان الرجال شهوة من دون النساء ، ومجاهرتهم بها في أنديتهم كأنها من الفضائل يتسابقون اليها ويتباهون فيها ، كما حكى الله عنه من قوله بعد رميهم بالفاحشة (٢٩ : ٢٩ أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر) فماذا فعل لوط وبم واجههم وعارضهم ؟

﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ فتزوجوهن ، قيل أراد بناته من صلبه ، وانه سمح بتزويجهم بهن بعد امتناع لصرفهم عن اضيافه ، وقيل أراد بنات قومه في جملتهن لان النبي في قومه كالوالد في عشيرته ، قاله ابن عباس (رض) ومجاهد وسعيد بن جبير ، ويدخل فيه نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدات للزواج ، يعني ان الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط ، فانه يكبح جماح الشهوة مع الامن من الفساد ، وصيغة التفضيل هنا للمبالغة في الطهر فلا مفهوم لها ، وهذا كثير في اللغة . ويقول النحويون فيه : ان أفعل التفضيل على غير بابه ، والظاهر انه يأمرهم في هذه الحال الذي هاجت فيه شهوتهم واشتد شبقهم ، ان يأتوا نساءهم كما ورد في الارشاد النبوي لمن رأى امرأة أعجبته ان يأتي امرأته في تلك الحالة التي هاجته فيها رؤيتها

وزعم بعض المفسرين انه عليه السلام عرض على هؤلاء الفساق المجرمين بناته أن يستمتعوا بهن كما يشاءون ومثل هذا في سفر التكوين (١٩ : ٨) وفيه أنهما اثنتان ، ولا يعقل أن يقع هذا الامر من أي رجل صالح فضلا عن نبي مرسل ، ولا يصح في مثله أن يعبر عنه بأنه أطهر لهم ، فغسل الدم بالبول ليس من الطهارة في شيء ، وإن كان يعتقد أنهم لا يجيبونه إلى هذا الفعل ، بل الذنب في هذه الحال أكبر لأنه أمر بالمنكر ، وخروج عن الحكم الشرعي ، إيثاراً للتجمل الشخصي ،

وهو لا يتعارض مع قوله لهم بعده ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ﴾ فان الزنا ليس من التقوى بل هو هدم لها ، وإنما معنى هذا الامر والنهي : فاجمعوا بما أمرتكم به بين تقوى

الله باجتناب الفاحشة، وبين حفظ كرامتي وعدم اذلالي وامتهاني بفضيحتي في ضيفي فان فضيحة الضيف فضيحة المضيف واهانة له. ولفظ الضيف يطلق على الواحد والمثنى والجمع ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ ذو رشد يعقل هذا فيرشدكم اليه ؟

٧٩ ﴿ قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق ﴾ فانهن محرمات علينا في دينك، أو يعنون أن الحق عندهم نكاح الذكور مستشهدين بعلمه به تهكما، أو الحق هنا الحاجة والأرب، والمعنى لقد علمت من قبل انه ليس لنا في بناتك من حاجة أو رغبة في تزوجهن فتصرفنا بعرضهن علينا عما نريده، أو لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه معهن فلا معنى لعرضك إياهن علينا لصرفنا عما نريده ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ من الاستمتاع بالذكران وانا لا نؤثر عليه شيئاً . أي تعرف ذلك حق المعرفة لا ترتاب فيه، فلم تحاول صدنا عنه ؟ فعلم انهم مصرون على ارادتهم فماذا فعل ؟

٨٠ ﴿ قال لو أن لي بكم قوة ﴾ أي قال لوط لأضيافه حينئذ لو أن لي بكم قوة تقاتل معي هؤلاء القوم وتدفع شرهم لقاتلتهم، أو أتمنى لو أن لي بكم قوة ألقاهم بها أو قال هذا لقومه والمعنى كما قال في الكشاف : لو قويت عليكم بنفسي ﴿ أو آوي الى ركن شديد ﴾ من أصحاب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين (كزعماء العرب) تمنى ذلك لانه لم يكن منهم فيعتز بهم وان سماهم قومه بمعنى أهل جواره ووطنه الجديد، وانما هو غريب جاء مع عمه من اور الكلدانيين في العراق (١)

ويرجح الاول جواب الملائكة له وقد رأوا شدة كربه وما آلت اليه حاله وهو :

---

١) على أن سفر التكوين يروي لنا أن ابراهيم كان معاهداً لبعض زعماء تلك البلاد وبذلك أمكنه انقاذ ملوك سدوم وعمورة وسائر تلك البلاد من كدرلعومر الذي كان استولى عليها وأسر لوطاً مع من اسر منهم وانما انقذهم لأجله

(٨١) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ
إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ
(٨٢) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً
مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ
الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ

هذه الآيات الثلاث في انجاء لوط بأهله الا امرأته واهلاك قومه .

٨١ ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك ﴾ من ملائكته أرسلنا لتنجيتك من شرهم واهلاكهم ﴿ لن يصلوا اليك ﴾ بسوء في نفسك ولا فينا ، وحينئذ طمس الله أعينهم فلم يعودوا يبصرون لوطاً ولا من معه كما قال تعالى في سورة القمر (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم) فانقلبوا عميانا يتخبطون ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أي فاخرج من هذه القرية أو القرى مصحوبا بأهلك بطائفة من الليل تكفي لتجاوز حدود هؤلاء القوم . والسرى (بالضم) والاسراء في الليل كالسير في النهار ، قرىء (أسر) بقطع الهمزة ووصلها منهما حيث وقعت في القرآن . وفي سورة الذاريات (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ الى ماوراءه لئلا يرى العذاب فيصيبه ، وفي سورة الحجر (وامضوا حيث تؤمرون) وقد بينه لهم الملائكة ﴿ الا امرأتك ﴾ وكانت كافرة خائنة ضلعها مع القوم ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ اي مقضي هذا عليها فهو واقع لا يمنعه. قرىء امرأتك بالنصب وبالرفع ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ اي موعد عذابهم يبتدىء من طلوع الفجر وينتهي بشروقها كما قال في سورة الحجر (١٥ : ٧٣ فأخذتهم الصيحة مشرقين) وهذا تعليل للاسراء ببقية من الليل كما قلنا

﴿أليس الصبح بقريب﴾ اي موعد قريب لم يبق له الا ليلة واحدة تنجو فيها بأهلك وهذا تقرير مؤكد لما قبله وجواب عن استعجال لوط لهلاكهم وحكمته انهم يكونون مجتمعين فيه في مساكنهم فلا يفلت احد منهم

٨٢ ﴿فلما جاء امرنا﴾ اي عذابنا او موعده ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ أي قلبنا ارضها أو قراها كلها وخسفنا بها الارض ، وسنة الله تعالى في خسف الارض في قطر من الاقطار أن يحدث تحتها فراغ بقدرها بسبب تحول الابخرة التي في جوفها بمشيئته وقدرته فينقلب مافوقه إما مستوياً وإما مائلا الى جانب من الجوانب إن كان الفراغ تحته أوسع ، وفي بعض هذه الاحوال يكون عاليها سافلها ، ويجوز أن يكون معنى جعل عاليها سافلها ان ما كان سطحاً لها هبط وغار فكان سافلها وحل محله غيره من اليابسة المجاورة او من الماء ، والمرجح عند علماء الارض أن قرى لوط التي خسف بها تحت الماء المعروف ببحر لوط أو بحيرة لوط ، وقيل من عهد قريب ان الباحثين عثروا على بعض آثارها كما تقدم ﴿وأمطرنا عليها﴾ اي قبل القلب أو في أثنائه وحكمته أن يصيب الشذاذ المتفرقين من أهلها ﴿حجارة من سجيل﴾ وفي سورة الذاريات (لنرسل عليهم حجارة من طين) فالمراد اذاً حجارة من مستنقع ، وقال مجاهد أولها حجر وآخرها طين ، وقال الحسن أصل الحجارة طين متحجر ، والمعقول ماقلنا وهو موافق لقول الراغب السجيل حجر وطين مختلط أصله فارسي فعرب ، وقيل انه من النار وأصله سجين فأبدلت نونه لاما . وهو موافق لرواية سفر التكوين ، فان صح يكون من بركان من البراكين ، ومثل هذا المطر يحصل عادة بارسال الله اعصاراً من الريح يحمل ذلك من بعض المستنقعات أو الانهار فتلقيها حيث يشاء ، ولايمتنع أن يكون هذا بتدبير الملائكة الموكلين بالارض ﴿منضود﴾ أي متراكب بعضه في أثر بعض يقع طائفة بعد طائفة ﴿مسومة عند ربك﴾ لها سومة اي علامة خاصة في علم ربك أيها الرسول ، أي امطرناها خاصة بهم لا تصيب غير أهلها ، أو هي من قولهم: سومت فلاناً في مالي أو في الامر إذا حكمته فيه وخليته وما يريد لا تثنى له يد في تصرفه ، وقد ظهر لي هذا المعنى الآن من مراجعة مجاز الاساس ، والمعنى انه سخرها عليهم وحكمها في

إهلاكهم لا يمنعها منه شيء، كما قال في الملائكة التي أمد الله المؤمنين في غزوة بدر (مسومين) وزعم بعض المفسرين ان هذا التسويم كان حسياً بخطوط في ألوانها، او أمثال الخواتيم عليها أو باسماء أهلها، ولكن هذا من امور الغيب لا يثبت إلا بنص عن المعصوم ولا نص، وما قلناه مفهوم من اللفظ، ومعقول في نفسه ليس فيه رجم بالغيب

﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ اي وما هذه العقوبة او القرى او الارض التي حل بها العذاب المخزي بمكان بعيد المسافة من مشركي مكة الظالمين لأنفسهم بتكذيبك والتماري بنذرك أيها الرسول، بل هي قريبة منهم واقعة على طريقهم في رحلة الصيف الى الشام كما قال في سورة الحجر (١٥: ٧٣ فأخذتهم الصيحة مشرقين ٧٤ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ٧٥ ان في ذلك لآيات للمتوسمين ٧٦ وانها لبسبيل مقيم) أي في طريق ثابت معروف بين المدينة والشام وقال في سورة الصافات بعد ذكر هلاكهم (٣٧: ١٣٧ وانكم لتمرون عليهم مصبحين ١٣٨ وبالليل أفلا تعقلون) قال الجلال: (وانكم لتمرون عليهم) على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم (مصبحين) أي وقت الصباح يعني بالنهار (وبالليل أفلا تبصرون) ما حل بهم فتعتبروا به اهـ والتعبير بصفة الظالمين وكون العقوبة آية مرادة لا مصادفة، يجعل العبارة عبرة لكل الاقوام الظالمة في كل زمان، وإن كان العذاب يختلف باختلاف الاحوال من أنواع الظلم وكثرته وعمومه وما دونهما، وقيل ان المعنى المتبادر ان هذه العاقبة ليست ببعيدة من الظالمين من قوم لوط بل نزلت بهم عن استحقاق، او من مشركي مكة، وقدم هذا من قدمه من المفسرين وأخر ما قلناه، لكنه هو الذي تؤيده شواهد القرآن

وفي خرافات المفسرين المروية عن الاسرائيليات ان جبريل عليه السلام قلعها من تخوم الارض بجناحه وصعد بها الى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها ثم قلبها قلباً مستوياً فجعل عاليها سافلها، وهذا تصور مبني على اعتقاد متصوره ان الاجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يمكن أن يقرب منهم سكان الارض وما فيها من الحيوان ويبقون أحياء. وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الايام التي نكتب هذا فيها ان الطيارات والمناطيد التي

تحلق في الجو تصل الى حيث يخف ضغط الهواء ويستحيل حياة الناس فيها ، وهم يصنعون انواعا منها يضعون فيها من أكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا ويصعدون فيها ، وقد أشير في الكتاب العزيز الى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى (٦ : ١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء)

(فان قيل) ان هذا الفعل المروي عن جبريل عليه السلام من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات ، فلا يصح أن يجعل تصديقه موقوفا على ماعرف من سنن الكائنات (قلت) نعم ولكن الشرط الاول لقبول الرواية في أمر جاء على غير السنن والنواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران وخراب أن تكون الرواية عن وحي إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الاسناد لاشذوذ فيه ولا علة على الاقل ، ولم يذكر في كتاب الله تعالى ولم يرد فيه حديث مرفوع الى نبيه صلى الله عليه وسلم ولاتظهر حكمة الله فيه ، وانما روي عن بعض التابعين دون الصحابة ولا شك أنه من الاسرائيليات ؛ ومما قالوه فيها ان عدد أهلها كان أربعة آلاف ألف ، وبلاد فلسطين كلها لاتسع هذا العدد فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الاربع ؟

وهذه الاسرائيليات المشوهة لهذه القصة كغيرها من قصص الانبياء مخالفة لما عند باثيها من زنادقة اليهود في توراتهم ، وملخص مافي الفصل التاسع من سفر التكوين الخاص بلوط عليه السلام وقومه ان الملكين اللذين أتياه بصورة رجلين ضربا بالعمى جميع قومه وقالا له (١٢ أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من هذا المكان ١٣ لاننا مهلكان أهل هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه ١٤ فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال قوموا واخرجوا من هذا المكان لان الرب مهلك المدينة فكان كمازح في أعين أصهاره ١٥ ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطا قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة ، ثم أخرجاه ودفعاه الى

مدينة اسمها صوغر وعداه بعدم اهلاكها ومعه امرأته وبنتاه وأمراه بأن لا ينظر وراءه ثم قال (٢٤ وإذ أشرقت الشمس على الارض دخل لوط الى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء ٢٥ وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض ٢٦ ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح ٢٧ وبكر ابراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب ٢٨ وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر واذا دخان الارض يصعد كدخان الاتون)

ومقتضى هذه الرواية انه لم ينج مع لوط إلا ابنتان له ، وقد ختم الفصل بما يتبرأ منه المسلمون كغيره مما خالف القرآن وهو ان ابنتي لوط الناجيتين وكانت احداهما بكراً والاخرى ثيبا وانهما أسكرتا أباهما بالخمر مرة بعد أخرى وباتتا معه فحملتا منه وولدتا اولادا وبقي نسلهما منه متسلسلا يقول الكاتب [إلى اليوم] وهم الموابيون وبنو عمون !! فمن كتب هذا ومتى كتبه ؟ هذا مالا يعلمه الا الله تعالى وكل ما خالف القرآن فهو باطل ، وما فسرناه به هو الظاهر المتبادر

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

تقدمت قصة شعيب في بضع آيات من سورة الاعراف من الآية ٨٥ — ٩٢ وهاهي ذي نسقت هنا في اثنتي عشرة آية من الآية ٨٤ — ٩٥ وفي كل منها من الحكم والاحكام والمواعظ ماليس في الاخرى ، مع السلامة من الاختلاف والتفاوت والتعارض ، وقد تكلمنا على نسبه وما ورد فيه وفي قومه في تفسيرها سورة الاعراف فتراجع في ص ٥٢٥ — ٥٢٧ من جزء التفسير الثامن

---

(٨٤) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٥) وَيَٰقَوْمِ

أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٦) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ

هذه الآيات الثلاث في تبليغ شعيب قومه الدعوة وهي الامر بتوحيد الله في العبادة والنهي عن أشد الرذائل فشواً فيهم والامر بالفضيلة التي تقابلها

٨٤ ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ معطوف على ماتقدمه مثله أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب شعيباً ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا معه غيره مالكم من إله غيره فيعبد ، وهذا ما كان يدعو اليه جميع رسل الله كما تقدم . ثم انتقل إلى ما هو خاص بهم من الاحكام العملية فقال ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ فيما تكيلون وماتزنون من المبيعات كما هي عادتكم وكانوا تجاراً مطففين (إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي ينقصون ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي بثروة وسعة في الرزق يجب أن ترفع أنفسكم عن دناءة بخس حقوق الناس وأكل اموالهم بالباطل بما تنقصون من المبيع لهم من مكيل وموزون ، وهو كفر لنعمة الله عليكم بالغنى والسعة ، والواجب عليكم شكرها بالزيادة على سبيل الاحسان ، فالجملة تعليل للنهي عن النقصان ﴿ واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي عذاب يوم محيط ما يقع فيه من العذاب بكم إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره ، وكفركم بنعمه بنقص المكيال والميزان . وهذا اليوم يصدق بيوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال

٨٥ ﴿ وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ لا ينسين القارىء ماتقدم من حكمة تكرار النداء بلقب قومي من الاستعطاف ، وهذا أمر بالواجب بعد النهي عن ضده لتأكيده ، وتنبيه لكون عدم التعمد للنقص لايكفي لتحري الحق ، بل يجب معه تحري الايفاء بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقص ، وان كانت الثقة

به لا تحصل أو لا تتيقن إلا بزيادة قليلة فهي قد تدخل في باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وتعمدها في الكيل او الوزن للناس سخاء فهو فضيلة مندوب ، وفي الاكتيال او الوزن عليهم طمع فهو رذيلة محظور ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ هذا أعم مما سبقه فان البخس يشمل النقص والعيب في كل شيء ، يقال بخسه (من باب نفع) حقه وبخسه ماله وبخسه علمه وفضله . والاشياء جمع شيء وهو أعم الالفاظ وجمعه يشمل ما للافراد وما للجماعات والاقوام من مكيل وموزون ومعدود ومحدود بالحدود الحسية ومن حقوق مادية ومعنوية . وقد فصلنا هذا وبينا العبرة فيه بتعامل أهل الشرق مع أهل الغرب في هذا العصر في تفسير سورة الاعراف (٨:٨٥) فتراجع في ص ٥٢٨ من الجزء الثامن

﴿ ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴾ أي ولا تفسدوا فيها حال كونكم متعمدين للافسادة يقال عثي يعثى [كرضي يرضى] عثيا بكسرتين وتشديد الياء — وعثا يعثو [كغزا يغزو] عثواً بضمتين والتشديد أيضا — أفسد ، وهذا نهي آخر عام يشمل غير ما تقدم كقطع الطرق وتهديد الأمن والخروج على السلطان وقطع الشجر وقتل الحيوان ، وقيده بقصد الافساد لان بعض ما هو افساد في الظاهر قد يراد به الاصلاح أو دفع أخف الضررين كالذي يقع في الحرب من قطع الاشجار ، أو فتح سدود الأنهار ، او إحراق بعض الاشياء بالنار ، ومنه خرق الخضر للسفينة التي كانت لمساكين يعملون في البحر لمنع الملك الظالم الذي وراءهم من أخذها اذا أعجبته . والافساد تعطيل يشمل مصالح الدنيا وصفات النفس وأخلاقها وأمور الدين ، وكل هذه المفاسد فاشية في هذا العصر

٨٦ ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ أي ما يبقى لكم بعد ايفاء الكيل والميزان من الربح الحلال ، خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الحرام ، أو بقية الله الاعمال الصالحة التي يبقى أثرها الحسن في الدنيا وثوابها في الآخرة ، وقال ابن عباس : هي رزق الله ، ومجاهد طاعة الله ، والربيع وصية الله . والفراء مراقبة الله ، وقتادة حظكم من الله ﴿ ان كنتم مؤمنين ﴾ بحق الايمان فان الايمان هو الذي يطهر النفس من دناءة الطمع ، ويحليها بفضيلة القناعة والكرم والسخاء ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ فأحفظكم من هذه المعاصي والرذائل أو أعاقبكم عليها ، وإنما انا مبلغ عليم وناصح أمين

(٨٧) قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ
(٨٨) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَٰكُمْ عَنْهُ إِنْ
أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٩) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ
يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ
وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٩٠) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ

هذه الآيات استئناف بياني كأمثالها من المراجعات في مناقشة قوم شعيب له بالآراء التقليدية في التدين والايمان، والنظريات الشيطانية في الحرية والاموال

٨٧ ﴿قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا﴾ قرأ جمهور القراء (صلواتك) بالجمع واستدل بها على انه كان كثير الصلاة، وحمزة والكسائي [صلاتك] بالافراد، والاستفهام للانكار والاستهزاء به وبعبادته عليه السلام، والصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر بما تكسبه من مراقبة الله تعالى، ومن نهى نفسه كان جديراً بأن ينهى غيره، يعنون أهذه الصلاة التي تداوم عليها تقتضي بتأثيرها في نفسك أن تحملنا على ترك ما كان عليه آباؤنا من عبادة هذه الاصنام التي كانوا يعبدونها تقربا الى الله بها، وتشفعا عنده بجاه الارواح التي تحتلها، أو الاولياء التي وضعت لذكراهم، وما أنت خير منهم، وأجدر باتباعهم ﴿او أن نفعل في أموالنا مانشاء﴾ من تنمية واستغلال،

وتصرف في الكسب من الناس بما نستطيع من حذق واحتيال، وخديعة واهتبال، وهو حجر على حريتنا ، وتحكم في ذكائنا ؟ ردوا بهذا وبما قبله عليه دعوته من جانبيها الديني والدنيوي نشراً مرتبا على لف ، ونقضا لما بنيت عليه من حجة وعطف ، ولذلك ذيلوه بما يشير إلى هذا النقض، فقالوا بقصد التعريض والتنديد، ﴿ انك لأنت الحليم الرشيد ﴾ الحليم العاقل الكامل في أناته وترويه فلا يتعجل بأمر قبل الثقة من صحته ، والرشيد الراسخ في هدايته وهديه، فلا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد ، ووصفه بهما وصفا مؤكداً بالجملة الاسمية وإن واللام في تعليل انكارهم لما أمرهم به وما نهاهم عنه كلاهما صريح في الاستهزاء به، والتعريض بما يعتقدون من اتصافه بضدهما، وهو الجهالة والسفه في الرأي، والغواية في الفعل، بهوس الصلاة، قال ابن عباس (رض) يقولون انك لست بحليم ولا رشيد

٨٨ ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي ياقومي الذين أنا منهم وهم مني ، وأحب لهم ما أحب لنفسي، أخبروني عن شأني وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربي فيما دعوتكم اليه وما أمرتكم به وما نهيتكم عنه فكان وحيا منه لا رأيا مني ﴿ ورزقني منه رزقا حسنا ﴾ في كثرته وفي صفته، وهو كسبه بالحلال بدون تطفيف مكيال ولا ميزان ، ولا بخس لحق أحد من الناس ، فانا مجرب في الكسب الطيب وما فيه من خير وبركة، لا فقير معدم أخترع الآراء النظرية فيما ليس لي خبرة به ، أي أرأيتم والحالة هذه ماذا أفعل وماذا أقول لكم غير الذي قلته عن نبوة ربانية ، وتجارب غني مالية ؟ هل يسعني الكتمان أو التقصير في البيان ؟ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي وانني على بينتي ونعمتي ما أريد أن أخالفكم في ذلك مائلا إلى ما أنهاكم عنه مؤثراً لنفسي عليكم ، بل أنا مستمسك به قبلكم . وأصل المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في قوله أو فعله أو حاله ، وأن يقال خالفه في الشيء ، فاذا خالفه فيما هو مول عنه تارك له قيل خالفه اليه ، وإذا خالفه فيما هو مقبل عليه قيل خالفه عنه، وفي كل منهما تضمين الفعل معنى الميل اليه أو عنه ، أو الرغبة فيه أو عنه . ومن الثاني قوله تعالى (فليحذر الذين

يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أي يخالفون الرسول راغبين عن أمره مائلين عنه ﴿ إن أريد إلا الاصلاح مااستطعت ﴾ أي ما أريد إلا الاصلاح العام فيما آمر به وفيما أنهى عنه ما دمت أستطيعه لانه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ليس لي هوى ولا منفعة شخصية خاصة بي فيهما ، ولولا ذلك لمـا فعلته . قال القاضي البيضاوي : ولهذه الاجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة — أهمها وأعلاها حق الله تعالى ، وثانيها حق النفس وثالثها حق الناس ، وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم وأنهاكم عما نهيتكم . وما مصدرية واقعة موقع الظرف وقيل خبرية بدل من الاصلاح أي المقدار الذي استطعته أو إصلاح ما استطعته بحـذف المضاف اه وفي هذا إثبات لعقله ورويته ولرشده وحكمته ، وهو إبطال لتهكمهم واستهزائهـم بلقب الحليم الرشـيد ، والنبي فوق ذلك ﴿وما توفيقي إلا بالله ﴾ التوفيق ضد الخذلان وهو الفوز والفلاح في إصابة الاصلاح وكل عمل صالح وسعي حسن ، فان حصوله يتوقف على التوفيق بين شيئين أحدهما كسب العامل وطلبه الشيء من طريقه وثانيهما موافقة الاسباب الكونية والخارجية التي يتوقف عليها النجاح في كسبه وسعيه ، وتسخيرها أنما يكون من الله وحده . والمعنى وما توفيقي لاصابة ذلك فيما أستطيعه منه إلا بحول الله وقوته ، وفضله ومعونته ، وأعلاها ما خصني به دونكم من نبوته ورسالتـه ﴿ عليه توكلت ﴾ في أداء ما كلفني من تبليغكم ما أرسلت به ، لا على حولي وقوتي ﴿ واليه أنيب ﴾ أي واليه وحده أرجع في كل ما نابني من الامور في الدنيا ، وإلى الجزاء على أعمالي في الآخرة ، فأنا لا أرجو منكم أجراً ، ولا أخاف منكم ضرا

٨٩ ﴿ وياقوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴾ قرأ الجمهور (يجرمنكم) بفتح الياء وكسر الراء من جرم الذنب او المال بمعنى كسبه وابن كثير بضمها من أجرمته الذنب اذا جعلته جارما له . فجرمه وأجرمه

ككسبه هو وكسبه إياه غيره ، يتعدى الثلاثي من كل منهما بنفسه الى مفعول واحد والى مفعولين كالرباعي . والشقاق شدة الخلاف الذي يكون به أحد المختلفين في شق وجانب غير الذي يكون فيه الآخر ، أي لا تحملنكم وتكسبنكم مشاقتكم وعداوتكم لي أن تفضي بالاصرار عليها إلى إصابتكم بمثل ما أصاب مكذبي الرسل قبلكم : قوم نوح أو هود أو صالح من عذاب الخزي والاستئصال

﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ زمانا ولا مكانا ولا إجراما قال الزمخشري يجوز أن يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير المذكر والمؤنث لورودها على وزن المصادر كالصهيل والشهيق ونحوهما . وقدر لبعيد قبل ذلك موصوفا فقال بشيء بعيد ، وقدر غيره : وما إهلاك قوم لوط الخ ، ويقاس عليه مثله

٩٠ ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ أي اطلبوا منه المغفرة لما أنتم عليه من الشرك والمعاصي بتركهما ثم توبوا اليه كلما وقع منكم معصية ، وقد تقدم مثل

هذا غير مرة ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ هذا تعليل لما قبله أي عظيم الرحمة للمستغفرين التائبين بمغفرته وعفوه ، كثير المودة لهم باحسانه ونعمه ، والمودة في اللغة عطف الصلة والاكرام بالفعل كما يعلم من استعمالها ، وتساهل او غلط من فسرها بالمحبة ، وهذا وعد قفى به على الوعيد الذي قبله وترك لهم الخيار فيما يرجحونه منهما بعد إقامة الحجة عليهم ، والآية دليل على ان الندم على فعل الفساد والظلم بالتوبة واستغفار الرب تعالى من أسباب خير الدنيا والآخرة ، كما تقدم نظيره مكرراً في هذه السورة ، وكذلك يقتضيان فعل العدل والصلاح اللذين هما سبب العمران والخير في الدنيا ، ومغفرة الله ومثوبته في الآخرة ، وقد عبر عنهما هنا بما يدل عليهما من صفاته تعالى وهي الرحمة والمودة ، وارجع الى ما عبر به عن فائدة الاستغفار والتوبة في الآية الثالثة و٥٢ و ٦١ وتأمل هذه البلاغة والتفنن في بيان المعنى الواحد

(٩١) قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩٢) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٣) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٤) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩٥) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ

هذه الآيات الخمس في بيان تحول قوم شعيب عن مجادلته بالتي هي أحسن إلى الاهانة والتهديد، ومقابلته إياهم بالانذار بقرب الوعيد، ونزول العذاب الشديد، ووقوع ذلك بالفعل العتيد

٩١ ﴿ قالوا ياشعيب مانفقه كثيراً مما تقول ﴾ حققنا في تفسير سورة الاعراف (٧:١٧٩) أن الفقه في اللغة أخص من الفهم والعلم وهو الفهم الدقيق العميق المؤثر في النفس الباعث على العمل(١) أي مانفقه كثيراً مما ترمي مما وراء ظواهر أقوالك من بواطنها وتأويلها كبطلان عبادة آلهتنا وقبح حرية التصرف في أموالنا، وعذاب محيط يبيدنا، واصابتنا بمثل الاحداث الجوية التي نزلت بمن قبلنا، كأن أمرها بيدك وتصرفك أو تصرف ربك، يصيب بها من تشاء أو يشاء لأجلك، ﴿ وانا لنراك فينا ضعيفا ﴾ لاحول لك ولا قوة تمتنع بها منا إن أردنا أن نبطش

---

(١) يراجع في ص٤٢٠ ج ٩ تفسير

بك ، وأنت على ضعفك تنذرنا العذاب المحيط الذي لا يفلت منه أحد ﴿ ولولا رهطك ﴾ أي عشيرتك الاقربون — والرهط الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ﴿ لرجمناك ﴾ لقتلناك شر قتلة وهي الرمي بالحجارة حتى تدفن فيها ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي بذي عزة ومنعة علينا تحول بيننا وبين رجمك ، وإنما نعز رهطك ونكرمهم على قلتهم لانهم منا وعلى ديننا الذي نبذته وراء ظهرك ، وأهنته ودعوتنا إلى تركه لبطلانه وفساده في زعمك

٩٢ ﴿ قال ياقوم أرهطي اعز عليكم من الله ؟ ﴾ هذا استفهام إنكاري أي أرهطي أعز وأكرم عليكم من الله الذي أدعوكم اليه بأمره ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أي أشركتم به وجعلتموه كالشيء اللَّقا الذي ينبذ وراء الظهر لهوانه على نابذه وعدم حاجته اليه فينسى حتى لا يحسب له حساب . تقول العرب : جعله بظهر وظهريا واتخذه ظهريا بالكسر والتشديد أي نسيا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود ، وكسر الظاء من تصرفهم في النسب ، وكان القوم يؤمنون بالله ويشركون به ، ولا عجب من حالهم هذه فانه شأن أكثر الناس اليوم ، لا يراقبون الله في أقوالهم ولا في أعمالهم فيرجوه إذا أحسنوا ، ويخافوه إذا أساءوا ، أو فيمتنعوا عن الاساءة ويتسابقوا إلى الاحسان ابتغاء مرضاته ﴿ ان ربي بما تعملون محيط ﴾ علما فهو يحصيه عليكم ويجزيكم به ، وأما رهطي فلا يستطيعون لكم ضراً ولا نفعا

٩٣ ﴿ وياقوم اعملوا على مكانتكم ﴾ هذا أمر تهديد ووعيد من واثق بقوته بربه ، على انفراده في شخصه ، وضعف قومه على كثرتهم ، وإدلالهم عليه وتهديدهم له بقوتهم ، أي اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم وعصبيتكم [من مكن مكانة كضخم ضخامة — إذا تمكن كل التمكن مما هو فيه وبصدده] أو على مكانكم الذي أنتم فيه إذ يقال مكان ومكانة [كمقام ومقامة] ﴿ اني عامل ﴾ على مكانتي التي أعطانيها أو وهبنيها ربي من دعوتكم الى التوحيد وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ هذا

تصريح بالوعيد، بعد التلميح له بالأمر بالعمل المستطاع للتعجيز، وهو جواب سؤال مقدر على طريق الاستئناف البياني، ولذلك لم يقرن بالفاء كقوله في سورة الانعام (٦: ١٣٤ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) اذ المراد هنالك أن ما قبل سوف سبب لما بعدها، وقطعها هنا أشد مبالغة في الوعيد والتهديد لاقتضاء تهديد الكفار اياه بالرجم، أن يبالغ في تهديدهم واظهار عزة الله ورسوله بالحق، وتقديرهما: فان قلتم ماذا يكون من أمرك؟ أقل لكم سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله: أنا أم أنتم؟ ومن هو كاذب في قوله ومن هو صادق مني ومنكم؟ وقد كانوا أنذروه غير الرجم الذي وجد المانع منه: أنذروه انذاراً مؤكداً بالقسم ما حكاه الله عنهم بقوله (١٨:٧ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) الخ فهو يعرض بكذبهم في كل ما صدر عنهم مما حكاه الله عنهم هنا وهناك، موقنا بوقوع ما أنذرهم به، وهو برهان على أنه على بينة من الله به ﴿وارتقبوا اني معكم رقيب﴾ وانتظروا مراقبين لما سيقع اني معكم مراقب منتظر له. رقيب هنا بمعنى مراقب، كعشير بمعنى معاشر، ويجوز أن يكون بمعنى فاعل

٩٤ ﴿ولما جاء أمرنا﴾ بعذابهم الذي أنذروه ﴿نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ خاصة بهم دون أحد من القوم كما تقدم مثله قريبا ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب التي أخذت ثمود فأصبحوا كلهم ميتين باركين على ركبهم، مكبين على وجوههم في ديارهم

٩٥ ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لم يقيموا فيها وقتا من الاوقات ﴿ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ أي هلاكا لهم وبعدا من رحمة الله كبعد الهلاك واللعنة التي عوقبت بها ثمود من قبلهم فانهما من جنس واحد وهو الصيحة كما في الآية ٦٧ وسيأتي مثله في سورة الحجر أولا في قوم لوط (٧٣:١٥) وذكرناه في قصصهم هنا، وثانيا في أصحاب الحجر وهو ثمود (٨٣ فأخذتهم الصيحة مصبحين) وكذا في سورة المؤمنون بدون تصريح باسمهم (٤١:٢٣ فأخذتهم الصيحة بالحق)

وفي سورة القمر (٥٤: ٣١ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) وتقدم في عذاب ثمود ومدين من سورة الاعراف انهم أخذتهم الرجفة كما في آيتي ٧: ٧٧ و ٩٠ [ومثلها آية ١٥٥ في السبعين المختارين من قوم موسى] وسيأتي أيضا في مدين من سورة العنكبوت (٢٩: ٣٧ فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الخ وفي سورة فصلت [حم السجدة] في ثمود (٤١: ١٧ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) وفي سورة الذاريات (٥١: ٤٤ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) فعلم بهذا ان المراد بالصيحة صوت الصاعقة، وفي [٢: ٥٥ و ٤: ١٥٢] ان الصاعقة أخذت بني اسرائيل الذين قالوا لموسى: أرنا الله جهرة، ولكن الله تعالى أحياهم عقبها. والرجفة هي الهزة والاضطرابة الشديدة، وهي تصدق باضطراب أبدانهم وأفئدتهم كأرضهم، فالجامع بين هذه الالفاظ ان الله تعالى أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد فرجفوا أو رجفت أرضهم وزلزلت من شدتها وخروا ميتين، فكانت صاعقتهم أشد من صاعقة بني اسرائيل، لان هذه تربية لقوم نبي في حضرته، وتلك صاعقة كانت عذاب خزي وهوان لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبي كل منهم ومؤمنيهم قبلها، وأما قول بعض المفسرين ان الصيحة التي أخذت ثمود ومدين كانت صيحة من جبريل عليه السلام فهو من أخبار الغيب التي لا تقبل الا من نصوص الوحي، ولا نص فتعين انه من الرجم بالغيب. وقد بينا أسباب الصواعق مرارا آخرها في تحقيق الجمع بين هذه الآيات في هلاك ثمود من سورة الاعراف (*)

ومن دقيق نكت البلاغة في الآيات قوله تعالى في إهلاك مدين هنا (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا) الخ فعطف [لما] على ماقبلها بالواو، ومثله في قوم هود، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود [٦٦] وقصة قوم لوط. ووجه هذا الأخير ان الآيتين جاءتا عقب الانذار بالعذاب، واستحقاقه وحلول موعده فعطفتا بالفاء الدالة على التعقيب. وأما عطف مثلها في قوم هود وقوم شعيب فليس كذلك فعطف بالواو على الاصل في العطف المطلق. أما الاول فظاهر لانه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب

(*) تراجع في ص ٥٠٧ ج ٨ طبعة اولى

وأما الثاني ففيه وعيد مسوف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب ، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التعقيب بدون انفصال، فهل تصادف مثل هذه الدقائق اللغوية في غير القرآن ؟

﴿ ختم قصص الرسل بآيات من قصة موسى وفرعون ﴾

(٩٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٨) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ

حكمة هذه الآيات الاربع من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه هي الاعلام بأن عاقبة فرعون وأشراف قومه اللعنة والهلاك ككفار اولئك الاقوام الظالمين ولكن عذاب الخزي لم يشمل جميع قوم فرعون لما بيناه من قبل ولم نر أحداً سبقنا إلى مثله. ولما كان إرسال موسى إلى فرعون لا يصح أن يعطف على إرسال شعيب إلى مدين لانه لا يشاركه في نوعه المشترك مع إرسال صالح وهود - عطف على قوله [ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى] وقد بينا حكمة اختلافه عما قبله فراجعه .

٩٦ ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ أي بآياتنا التسع المعدودة في سورة الاسراء والمفصلة في غيرها [وقد سبق ذكرها في قصته من سورة الاعراف] وسلطان مبين أي وبرهان واضح البيان ، وهو ما آتاه الله من الحجة البالغة في محاوراته مع فرعون . وقيل هي العصا لانها أكبر آياته ، وعطفها على ما قبلها من عطف الخاص على العام ، ولكن الله قال (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها)

٩٧ ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ بينا مراراً ان الملأ أشراف القوم وزعماؤهم وأضافهم إلى فرعون وخصهم بالذكر لانهم أهل الحل والعقد والاستشارة في دولته الذين كان يسألهم رأيهم في موسى وفي غيره ويعهد اليهم بتنفيذ ما يتقرر من الامور

كمسألة السحرة ، وإنما يذكر قومه في مقام الاتباع له في الكفر والظلم وعذاب الآخرة دون عذاب الاستئصال ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ في كل ما قرره من الكفر بموسى وجمع السحرة لإبطال معجزته ، ومن قتل السحرة لإيمانهم به ، ومن تشديد الظلم على بني اسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم ، وغير ذلك مما هو مفصل في قصته من السور الاخرى ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي ما شأنه وتصرفه بذي رشد وهدى بل هو محض الغي والضلال ، والظلم والفساد ، في غروره بنفسه ، وكفره بربه ، وطغيانه في حكمه ، وماذا يكون جزاؤه مع قومه في الآخرة ؟ الجواب :

٩٨ ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ أي يتقدمهم ويكونون تبعاً له في ذلك اليوم كما كانوا تابعين له في الدنيا إلا من كان مؤمناً ﴿ فأوردهم النار ﴾ أي فيوردهم نار جهنم معه أي يدخلهم إياها ، فالايراد هنا بمعنى الادخال كما استعمل الورود بمعنى الدخول ، وعبر عنه بالفعل الماضي لتحقق وقوعه . وقيل ان المراد انه باغوائه إياهم قد جعلهم مستحقين لها ، وقد ورد أن آله يعرضون عليها منذ ماتوا صباحاً ومساء من كل يوم وهو قوله تعالى (٤٠ : ٤٥ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ٤٦ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ وبئس الورد المورود ﴾ هي لأن وارد الماء يرده لتبريد كبده وإطفاء غلته من حر الظمأ ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً ، وفيه اشارة الى الخيبة

الورود في أصل اللغة بلوغ الماء وموافاته في مورده من نهر وغيره . والورد بالكسر اسم المصدر ، ويطلق على الماء ، يقال ورد البعير أو غيره الماء يرده ورداً ، فهو وارد والماء مورود ، وأورده إياه إيراداً جعله يرده ، ومنه ورود جهنم بمعنى دخولها . قال ابن عباس (رض) في الآية : الورود الدخول . وقال الورود في القرآن أربعة أوراد : في هود قوله (وبئس الورد المورود) وفي مريم (وإن منكم إلا واردها) وورد في الانبياء (حصب جهنم أنتم لها واردون) وورد في مريم أيضاً (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) وكان يقول : والله ليردن جهنم كل بر وفاجر (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً)

٩٩ ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي وألحقت بهم في الدنيا لعنة أتبعهم الله اياها بقوله (٢٨: ٤٢ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) وقال هنا ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي وأتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم يلعنون في الدنيا والآخرة. وقد سمى هذه رفداً تهكماً بهم فقال ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ الرفد (بالكسر) في أصل اللغة العطاء والعون: يقال رفده (من باب ضرب) أعانه وأعطاه، وأرفده مثله، أو جعل له رفداً يتناوله شيئاً فشيئاً، فرفده وأرفده كسقاه وأسقاه، وبئس الرفد المرفود أي العطاء المعطى هذه اللعنة التي أتبعوها، وحكى الماوردي عن الاصمعي ان الرفد بالفتح القدح وبالكسر مافيه من الشراب وهو تفسير للعام بالخاص مناسب للورد المورود قبله. أي بئس مايسقونه في النار عند ما يردونها ذلك الشراب الذي يسقونه فيها وهو ما وصفه الله تعالى بقوله (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم)

والعبرة في الآيات انه لايزال يوجد في البشر فراعنة يغوون الناس ويستخفونهم ويستعبدونهم فيطيعونهم ويذلون لهم ذل العبد لسيده، والحمار لراكبه، والحيوان لمالكه، ولم يستفيدوا شيئاً من هداية القرآن ورشده، وتجهيله القوم فرعون في اتباع أمره مع وصفه بقوله (وما أمر فرعون برشيد) وبيان انه كان سبباً لاتباعهم لعنة في الدنيا ولعنة يوم القيامة، وانه سيقودهم في الآخرة الى النار، كما قادهم في الدنيا الى الغي والفساد، ومنهم من يدعون الاسلام ولم يفقهوا قول الله تعالى لرسوله في آية مبايعة النساء (ولا يعصينك في معروف) وقوله ﷺ « لاطاعة لأحد في معصية الله انما الطاعة في المعروف (متفق عليه من حديث علي)

﴿ العبرة العامة في إهلاك الامم الظالمة ﴾

(١٠٠) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ

(١٠١) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ

ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠٢) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ

هذه الآيات الثلاث في العبرة العامة بما في إهلاك الامم الظالمة في الدنيا من موعظة ويتلوها العبرة بعذاب الآخرة؛ قال تعالى

١٠٠ ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي ذلك الذي قصصناه عليك أيها الرسول بعض أنباء الامم أي أهم أخبارها، وأطوار اجتماعها في القرى والمدائن من قوم نوح ومن بعدهم ﴿ نقصه عليك ﴾ في هذا القرآن أو هذه السورة لتتلوه على الناس ويتلوه المؤمنون آناً بعد آن، للانذار به تبليغاً عنا، فهو مقصوص من لدنا بكلامنا ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ أي من تلك القرى ماله بقايا ماثلة وآثار باقية كالزرع القائم في الارض، كقرى قوم صالح، ومنها ماعفا ودرست آثاره كالزرع المحصود الذي لم يبق منه بقية في الارض كقرى قوم لوط

١٠١ ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ أي وما كان إهلاكهم بغير جرم استحقوا به الهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم وفسادهم في الارض، وإصرارهم حتى لم يبق فيهم بقية من قبول الحق وإيثار الخير على الشر، بحيث لو بقوا زمناً آخر لما ازدادوا إلا ظلما وفجوراً وفساداً كما قال نوح عليه السلام (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) وقد بالغ رسلهم في وعظهم وإرشادهم فما زادهم نصحهم لهم إلا عناداً وإصراراً، وأنذروهم العذاب فتماروا بالنذر استكبارا، واتكلوا على دفع آلهتهم العذاب عنهم إن هو نزل بهم ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ﴾ أي فما نفعتهم آلهتهم التي كانوا يدعونها ويطلبون منها أن تدفع عنهم الضر بنفسها أو بشفاعتها عند الله

تعالى لما جاء عذاب ربك تصديقا لنذر رسله ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أي هلاك وتخسير وتدمير، وهو من التباب أي الخسران والهلاك: يقال تببه تتبيبا أي أهلكه، وتب فلان وتبت يده اي خسر أو هلك « وتبا له » في الدعاء بالهلاك، ومعنى زيادتهم إياهم تتبيبا أنهم باتكالهم عليهم ازدادوا كفرا وإصرارا على ظلمهم وفسادهم، ظنا انهم ينتقمون لهم من الرسل كما قال بعضهم لرسولهم (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء)

١٠٢ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ أي ومثل ذلك الاخذ بالعذاب وعلى نحو منه أخذ ربك لأهل القرى في حال تلبسها بالظلم في كل زمان وكل قوم ﴿ ان أخذه أليم شديد ﴾ أي وجيع قاس لا هوادة فيه ولا مفر منه ولا مناص، فالجملة بيان للتشبيه فيما قبلها . أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى الاشعري (رض) مرفوعا «ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﷺ هذه الآية. وهو تصريح بعمومها، ولكن الظالمين قلما يعتبرون، ولا سيما إذا كانوا مع ظلمهم مغرورين بدين يتحاون بلقبه، ولا يحسبون حسابا لاملاء الله تعالى واستدراجه

﴿ العبرة العامة في هذه القصص بعذاب الآخرة ﴾

(١٠٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٤) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٥) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٦) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي

الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ

هذه البضع الآيات في العبرة بجزاء الآخرة للأشقياء والسعداء

١٠٣ ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ أي في ذلك الذي قصه الله من إهلاك أولئك الاقوام ، وما قفى عليه من بيان سننه في الظالمين ، لحجة بينة وعبرة ظاهرة على أن ما يجري في خلقه من نظام سننه هو بمشيئته واختياره ، وإنما هو آية وعبرة لمن يخاف عذاب الآخرة يعتبر بها فيتقي الظلم في الدنيا بجميع أنواعه ، لإيمانه بأن من عذب الامم الظالمة في الدنيا قادر على تعذيبهم في الآخرة ، ولا يغتر بعدم وقوع العذاب عليه في الدنيا كأولئك الاقوام كما كانوا مغرورين ، فان كان العذاب العام إنما نزل بمن أجمع منهم على الشرك والظلم والفساد ، فتلك سنته تعالى في الاقوام دون الافراد ، وقد علم منها ان الله تعالى لا يهلك الامة في جملتها مادام فيها أحد من أهل التوحيد والتقوى ، إذ كان يخرج رسله وأتباعهم من قومهم قبل هلاكهم ، وأما الافراد فتعذيبهم في الدنيا بظلمهم كثير ولكنه غير مطرد ، وقد تكون نجاتهم فيها بصلاح غيرهم من أهلها كما بيناه مراراً ، ولذلك أفرد الخائف هنا

قال القاضي البيضاوي في تخصيص الآية بالخائف : يعتبر به لعلمه أن ما حاق بهم انموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة — أو ينزجر به عن موجباته لعلمه بأنه من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، فان من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار ، وجعل تلك الوقائع لاسباب فلكية اتفقت في تلك الايام لا لذنوب المهلكين بها اه

أقول : ذكرت في الكلام على العبرة بهلاك قوم نوح بالطوفان ان كفار الماديين وملاحدة المليين في هذا الزمان يقولون مثل هذا الذي حكاه البيضاوي

عن منكري الآخرة في عصره: يقولون ان الطوفان حدث بسبب طبيعي لا بارادة الله واختياره لتربية الامم، وانهم هكذا يقولون فيمن هلكوا بالريح وبالصاعقة وبخسف الارض. وقلت في الرد عليهم: إن حدوث المصائب بالاسباب الموافقة لسنن الله في نظام العالم هو المراد بالقضاء والقدر في القرآن، ولكن الله تعالى أحدث الاسباب في تلك الاوقات بحكمته لاجل عقاب تلك الامم بها، ولم تكن بالمصادفة والاتفاق، والدليل على ذلك انذار الرسل لاقوامهم إياها قبل وقوعها، ومنهم من ذكر موعدها بالتعيين والتحديد، وهكذا يفعل الله بالظالمين في كل زمان، وان لم يكن فيه رسل يطلعهم على وقت وقوعه لينذروا الناس به اكتفاء بانذار القرآن، وقد قال فيه (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أي ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة – فكان ذكره دليلا عليه – يوم يجمع له الناس كلهم أي لاجل ما يقع فيه من الحساب الذي يترتب عليه الجزاء. وفي جعل جمع الناس له (بصيغة اسم المفعول) صفة من صفاته مبالغة كانت بها الجملة هنا أبلغ من جملة (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) في إثبات الجمع، لأن تلك سيقت لاجل إثبات ما يقع في ذلك اليوم من التغابن أي غبن الناس بعضهم بعضا بتفاوت أعمالهم من الخير والشر وجزائهم عليها، وهذه لاجل إثبات الجمع له في ذاته لتصوير هوله، ومثله قوله ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ يشهده الخلائق كلهم من الانس والجن والملائكة والحيوانات وغيرها، وقد صار هذا التعبير الوجيز البليغ مثلا توصف به المجامع الحافلة بكثرة الناس او الاوقات التي يكثر من يشهدها منهم

١٠٤ ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أي وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء مدة معدودة في علمنا لا تزيد ولا تنقص عن تقديرنا لها بحكمتنا، وهو انقضاء عمر هذه الدنيا، وكل ما هو معدود محدود النهاية فهو قريب، وقد ثبت بنصوص القرآن والاحاديث الصحيحة ان الله تعالى لم يطلع أحداً من خلقه على وقت قيام الساعة

١٠٥ ﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلا باذنه ﴾ أي في الوقت الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعين لاتتكلم نفس من الانفس الناطقة إلا باذن الله تعالى لانه يومه الخاص الذي لايملك أحد فيه قولا ولا فعلا إلا باذنه كما قال (٧٨ : ٣٨ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا)وقال (٢٠ ١٠٨ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ١٠٩ يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وقال في الكفار (٧٧: ٣٥ هذا يوم لا ينطقون ٣٦ ولا يؤذن لهم فيعتذرون)وقال (٣٦: ٦٥ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم) الخ وفسرت كلمة (يوم) في الآية بالوقت المطلق أي غير المحدود لانه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر الذي هو فاعل يأتي . وأراد بعضهم الهرب من جعل يوم ظرفا لليوم فقالوا المعنى يوم يأتي جزاؤه أو هوله أوالله تعالى ، واستشهدوا للأخير بقوله(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) والشواهد التي أوردناها نص في هذا المقام ولا حاجة الى غير جعل يوم بمعنى وقت أو حين . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة (يأت)بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة ، وهذا هو الموافق لرسم المصحف الامام وهو لغة هذيل تقول : ما أدر ما تقول . ونفي الكلام في ذلك اليوم إلا باذنه تعالى يفسر لنا الجمع بين الآيات النافية له مطلقا والمثبتة له مطلقا

﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي فمن الأنفس المكلفة التي تجمع فيه شقي مستحق لوعيد الكافرين بالعذاب الدائم ، ومنهم سعيد مستحق لما وعد به المتقون من الثواب الدائم ، ولا يدخل في هذا التقسيم غير المكلفين كالاطفال والمجانين ، وأما من تستوي حسناتهم وسيئاتهم من المؤمنين ومن تغلب سيئاتهم منهم ويعاقبون عليها في النار عقابا موقوتاً ثم يدخلون الجنة فهم من فريق السعداء باعتبار الخاتمة في الدنيا والآخرة ، فالسعداء درجات ، والأشقياء دركات

روى الترمذي وحسنه وأبو يعلى وأشهر رواة التفسير عن عمر بن الخطاب (رض) قال لما نزلت (فمنهم شقي وسعيد) قلت يا رسول الله فعلام نعمل؟ على

شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يفرغ منه ؟ قال « بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الاقلام ياعمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له » وحديث « كل ميسر لما خلق له » رواه أحمد والشيخان وغيرهما ، ولفظ البخاري عن عمران بن حصين (رض) قلت يارسول الله فيم يعمل العاملون ؟ قال « كل ميسر لما خلق له » وعن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ انه كان في جنازة فأخذ عوداً فجعل ينكث في الارض فقال « ما منكم أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار » قالوا: ألا نتكل؟ قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقرأ (فأما من أعطى واتقى) الخ ومعناه الذي غفل عنه أو جهله الكثيرون على ظهوره : ان الله تعالى يعلم الغيب وعلمه بأن زيداً يدخل الجنة أو النار ليس معناه انه يدخلها بغير عمل يستحقها به بحسب وعده وحكمته ، ولا انه لافرق فيما يعمله في الجزاء ، وإنما يعلم الله المستقبل كله بجميع أجزائه وأطرافه ، ومنه عمل العاملين ومايترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده في كتابه المنزل وكتابته للمقادير ، ولا تناقض ولا تعارض بينهما ، ونحن لا نعلم الغيب ولكن النبي ﷺ علمنا مانعلم به ماسيكون في الجملة وهو ان الجزاء بالعمل ، وان كل انسان ميسر له ومسهل عليه ماخلقه الله لاجله من سعادة الجنة وشقاوة النار ، وان ما وهبه للانسان من العزم والارادة يكون له من التأثير في تربية النفس مايوجهها به إلى مايعتقد أن فيه سعادته . ثم بين جزاء الفريقين بالتفصيل فقال

١٠٦ ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ أي الذين شقوا في الدنيا بالفعل بما كانوا يعملون من أعمال الاشقياء لفساد عقائدهم الموروثة بالتقليد حتى أحاطت بهم خطيئاتهم وأطفأت نور الفطرة من أنفسهم ﴿ ففي النار ﴾ مستقرهم ومثواهم ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ من ضيق أنفاسهم ، وحرج صدورهم ، وشدة كروبهم : فالزفير والشهيق صوتان يخرجان من الصدر عند شدة الكرب والحزن في بكاء أو غيره . قال الزمخشري في الكشاف : الزفير إخراج النفس والشهيق رده . قال الشماخ:

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

وقال الراغب في الآية: فالزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه ثم قال:

الشهيق طول الزفير وهو رد النفس والزفير مده . وقال في اللسان: الشهيق أقبح الاصوات، شهق (كعلم وضرب) شهيقا وشهاقا ردد البكاء في صدره اهـ . والتحقيق ان تنفس الصعداء من الهم والكرب إذا امتد واشتد فسمع صوته كان زفيراً ، وان النشيج في البكاء إذا اشتد تردده في الصدر وارتفع به الصوت سمي شهيقا ، وأصل اشتقاقه من الشهوق، وقولهم جبل شاهق ، وما أبلغ قول شيخنا في مقدمة العروة الوثقى يصف كرب المسلمين من شدة اعتداء المستعمرين الظالمين : وسرى الألم في أرواح المؤمنين سريان الاعتقاد في مداركهم ، فهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيراً بل نفيراً عاماء بل يكون صاخة تمزق من أصمخة الطمع

---

١٠٧ ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والارض﴾ أي ماكثين فيها مكث بقاء وخلود لايبرحونها مدة دوام السموات التي تظلهم والارض التي تقلهم ، وهذا بمعنى قوله في آيات أخرى (خالدين فيها أبداً) فان العرب تستعمل هذا التعبير بمعنى الدوام ، وغلط من قالوا المراد مدة دوامها في الدنيا ، فان هذه الارض تبدل وتزول بقيام الساعة ، وسماء كل من أهل النار وأهل الجنة ما هو فوقهم ، وأرضهم ماهم مستقرون عليه وهو تحتهم ، قال ابن عباس لكل جنة أرض وسماء

وروي مثله عن السدي والحسن ﴿ إلا ما شاء ربك﴾ أي ان هذا الخلود الدائم هو المعد لهم في الآخرة المناسب لصفة أنفسهم الجهول الظالمة التي أحاطت بها ظلمة خطيئاتها وفساد أخلاقها كما فصلناه مراراً — إلا ما شاء ربك من تغيير في هذا النظام في طور آخر ، فهو إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى في قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء في سياق الاحكام القطعية للدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئته تعالى فقط لا لافادة عدم عمومها ، كقوله تعالى (٧:١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله) أي لا أملك شيئا من ذلك بقدرتي وإرادتي إلا ماشاء الله أن يمكنني منه بتسخير أسبابه وتوفيقه ومثله في (١٠:٤٩) مع تقديم الضر . وقوله (٨٧ : ٦ سنقرئك فلا تنسى

إلا ماشاء الله) على أن الاستثناء لتأكيد النفي أي إنه تعالى ضمن لنبيه حفظ هذا القرآن الذي يقرئه إياه بقدرته وعصمه أن لا ينسى منه شيئا بمقتضى الضعف البشري فهو لا يقع الا أن يكون بمشيئة الله ، فهو وحده هو القادر عليه ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ فهو إن شاء غير ذلك فعله ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن وانما تتعلق مشيئته بما سبق به علمه واقتضته حكمته، وما كان كذلك لم يكن إخلافا لشيء من وعده ولا من وعيده كخلود أهل النار فيها فان هذا الوعيد مقيد بمشيئته ، وهي تجري بمقتضى علمه وحكمته ، ولهذا قال في مثل هذا الاستثناء من سورة الانعام (٦ : ١٢٨ قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم) وقد فصلنا في تفسير تلك الآية ماقاله العلماء من المفسرين وغيرهم في الخلاف في أبدية النار وعذابها[1] ووعدنا بالعودة اليه في تفسير هذه الآية وسنجمله في الخلاصة الاجمالية للسورة لتبقى سلسلة التفسير هنا متصلة

١٠٧ ﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ أي دائما غير مقطوع ، من جذه يجذه (من باب نصر) إذا قطعه أو كسره فهو كقوله تعالى (لهم أجر غير ممنون) والفرق بين هذا التذييل وماقبله عظيم ، فكل من الجزاءين منه تعالى ومقيد دوامه بمشيئته، ولكنه ذيل هذا بأنه هبة منه وإحسان دائم غير مقطوع ، ولو كان الاول مثله غير مقطوع لما كان فضلا وإحسانا، وقد تكرر وعد الله للمؤمنين المحسنين بأنه يجزيهم بالحسنى وبأحسن مما عملوا ، وبأنه يزيدهم من فضله ، وبأنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر من ذلك إلى سبعمائة ضعف. ولم يعد بزيادة جزاء الكافرين والمجرمين على ما يستحقون ، بل كرر الوعد بأنه يجزيهم بما عملوا وبأن السيئة بمثلها وهم

---

(١) راجع ص ٦٨ — ٩٩ ج ٨ طبعة اولى

لا يظلمون ، وبأنه لا يظلم أحداً ، دع ما ورد من الآيات في سعة رحمته ، وفي الاحاديث الصحيحة من سبقها لغضبه . وما قاله العلماء في حل هذا الإشكال غير ظاهر ، وخلاصته أن عذاب النار الشديد الابدي الذي لانهاية له إنما كان جزاء لاهلها بمثل ماعملوا في سنين أو أشهر معدودة باعتبار انهم كانوا عازمين على الاستمرار على كفرهم وظلمهم وفسقهم لو كانوا خالدين في الدنيا، فهو إذن جزاء لهم على نيتهم وعزمهم اه وانما كان هذا الجواب غير ظاهر لان الجاحدين عناداً واستكباراً من الرؤساء والزعماء هم الذين يصح فيهم العزم على الاستمرار وهم الاقلون ، لما علم بالاختبار والواقع من إيمان أهل مكة ثم أكثر العرب لما زالت الموانع من الايمان، وظهر لهم منه ما كان خفيا عليهم، على أن قاعدة هذه الشريعة السمحة ان الله لا يؤاخذ من نوى أن يعمل سيئة ولم يعملها ، والمعقول في تعليل الخلود في النار هو ما بيناه في سورة الانعام وغيرها من أن عذاب النار الدائم أثر طبيعي لتدسية النفس بالكفر والظلم والفساد... وسنعود اليه في الخلاصة الاجمالية للسورة ان شاء الله تعالى

١٠٩ ﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ هذه فذلكة ماتقدم من الارشاد إلى الاعتبار بما حل بالامم المهلكة، وإنذار أعداء النبي ﷺ به، يقول إذا كان أمر الامم المشركة الظالمة في الدنيا ثم في الآخرة كما قصصناه عليك أيها الرسول فلا تكن في أدنى شك وامتراء مما يعبد قومك هؤلاء في عاقبته بمقتضى تلك السنة التي لا تبديل لها، فالنهي تسلية له ﷺ وإنذار لقومه . ثم بين حالهم في عبادتهم وجزائهم بياناً مستأنفا فقال

﴿ ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ فهم مقلدون لآبائهم كما يقولون وكما قال أقوام أولئك الانبياء من قبلهم ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ أي وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة وافيا تاما لا ينقص منه شيء ، كما وفينا آباءهم الاولين من قبل ، فانه ما من خير يعمله أحد منهم كبر الوالدين وصلة الارحام واغاثة الملهوف وعمل المعروف الا ويوفيهم الله تعالى جزاءهم عليه في الدنيا بسعة الرزق وكشف الضر جزاء تاما وافيًا لا ينقصه شيء يجزون عليه في الآخرة. فلا يغترن أغنياؤهم وكبراؤهم بما هم فيه من سعة ونعمة ووجاهة فهو متاع

عاجل لا يلبث أن ينقضي، ولا يحتجن به على رضى الله عنهم وإعطائهم مثله في الآخرة على فرض وجودها كما أعطاهم في الدنيا كما حكى عن قائلهم (١٨: ٣٧ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا) وعن آخر (٤١ : ٥٠ ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى) فإن الحسنى عند الرب تعالى في الآخرة لا تكون الا للمؤمنين المتقين، الذين يزكون انفسهم في الدنيا باتباع رسوله ﷺ وما بلغهم عنه من موجبات الرحمة عنده بفضله

---

(١١٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١١)
وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

هاتان الآيتان في بقية العبرة بسنة الله تعالى في الامم وأقوام الانبياء عليهم السلام، ذكر الله قوم خاتم النبيين وأمته أولا بأقوام الذين غلب عليهم الكفر والجحود فلم يؤمن إلا قليل منهم فوفاهم الله جزاء أعمالهم في الدنيا وسيوفيهم إياها في الآخرة، فان سنته في الدارين واحدة — وذكرهم في هاتين الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتاب فاختلفوا فيه، وكيته في تأخير جزائهم إلى الآخرة لأنهم لم يستحقوا عذاب الاستئصال في الدنيا، وان مثل الذين يختلفون من أمته في الكتاب كمثل هؤلاء. قال

---

١١٠ ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ أي فاختلف فيه قومه من بعده بغياً بينهم وتنازعا على الرياسة فكانوا شيعاً كل شيعة تنتحل مذهبا وتعادي من يخالفها فيه، وإنما أوتوا الكتاب لجمع الكلمة، وتقدم تفصيل إنزال الله الكتب على الانبياء للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه في الآية (٢ : ٢١٣) الجامعة ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ أي في الدنيا باهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم، وإبقاء المعتصمين بالوحدة والاتفاق على هدايته، كما أهلك

الذين ردوا دعوة الرسل جحوداً وعناداً ، والمراد بهذه الكلمة إنظارهم الى يوم القيامة ، وتقدم مثل هذا التعليق بالكلمة في جميع المختلفين في (١٠: ١٩) ثم فسرت في بني اسرائيل بقوله (١٠: ٩٣ ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ومثله في (٤٥: ١٧) وسيأتي تحقيق القول في الاختلاف في تفسير الآية ١١٩

هنا ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ الظاهر أن هذا في قوم موسى وكتابهم التوراة أي انهم لمرتكسون في شك من أمر كتابهم موقع في الريب والاضطراب

وذهب بعض كبار المفسرين الى أنه في مشركي مكة وأمثالهم الذين شكوا في القرآن، وهو خطأ ظاهر في اللفظ والمعنى والسياق، وما في معنى الآية من السور الاخرى ، ومثلها في سورة حم السجدة (فصلت) بنصها ، وفي معناها من سورة الشورى مايفسر الاجمال في هاتين الآيتين ويفصله فانه بعد ذكر بعثة نبينا ﷺ بالقرآن واختلاف البشر فيه وحكمه تعالى هو في الاختلاف قال (٤٢: ١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب ١٤ وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب) فهذه الآية الاخيرة تفسير لآيتي هود وحم السجدة (فصلت) فان الذين أورثوا الكتاب من بعد من ذكر في الآيات هم اليهود والنصارى الذين جاءوا بعد أنبيائهم وقبل بعثة نبينا ﷺ وهؤلاء قد عرض لهم من الشك والريب في كتبهم مالم يكن في عهد سلفهم ، فان التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد فقدت في إحراق البابليين لهيكل سليمان كما بيناه مفصلا من قبل. ولذلك قال الله تعالى في عيسى عليه السلام (ويعلمه التوراة والانجيل) فهو لم يأخذ التوراة من أيدي اليهود الذين زعموا ان عزرا كتبها بعد الرجوع من سبي بابل، وان كان يحتج عليهم بما كانوا يخالفونه مما حفظوه منها، وقد اختلفوا في كتبهم وفي شرعهم الى مذاهب، وأما النصارى فكانوا أشد اختلافا في كتبهم ومذاهبهم كما فصلناه من قبل.

ومن الغفلة الشنيعة والتكلف البعيد أن يفسروا الكتاب في آية سورة الشورى مع هذا التفصيل فيها بالقرآن الذي وصف بأنه لاريب فيه ، ويصفوا الذين أورثوه بأنهم في شك منه مريب ، ولا يصح أن يقال فيمن لم يؤمنوا به انهم أورثوه ، وكذلك الذين لم يؤمنوا بموسى وبعيسى لايقال انهم أورثوا التوراة والانجيل ، وانما يقال ورث الكتاب من آمن به سواء منهم من أحسن العمل ومن أساء كما قال تعالى (٣٥ : ٣٢ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) ولكن الذين أخطأوا في فهم الآيتين المجملتين في السورتين حملوا عليهما الآية المفصلة وجعلوا تفسيرهن واحداً

---

١١١ ﴿وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي وان كل أولئك المختلفين فيه أو كل أحد منهم والله ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم لا يظلم منهم أحداً ﴿ انه بما يعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه منه شيء، فيترتب عليه بعض التوفية دون بعض ،

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر (وإن) بتخفيف النون مع إعمالها عمل الثقيلة اعتباراً للاصل و(لما) بالتخفيف على أن لامها موطئة للقسم أو فارقة وهي فاصلة بينها وبين اللام الداخلة على فعل القسم. وأما على قراءة تشديد (لما) وهي قراءة ابن عامر ونافع وحمزة فهي بمعنى إلا وإن نافية قاله الجلال

---

(١١٢) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٣) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ

هذا السياق تفصيل للاوامر والنواهي التي هي ثمرة الاعتبار بما كان من سيرة الامم مع الرسل: من جحدوا فأهلكوا، ومن آمنوا ثم اختلفوا وتفرقوا، فمن جمع بين هذا الامر والنهي كمل إيمانه ، وما بعدهما تفصيل لهما.

١١٢ ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أي اذا كان أمر أولئك الامم كما قصصنا عليك أيها الرسول فاستقم مثل ما أمرناك في هذا الكتاب أي إلزم الصراط المستقيم الذي لاعوج فيه بالثبات عليه واتقاء الاختلاف فيه ﴿ ومن تاب معك ﴾ أي وليستقم معك من تاب من الشرك وآمن بك واتبعك ﴿ ولا تطغوا ﴾ فيه بتجاوز حدوده غلواً في الدين، فان الافراط فيه كالتفريط، كل منهما زيغ عن الصراط المستقيم، وهو يدل على وجوب اتباع النصوص في الامور الدينية وهي العقائد والعبادات وعلى اجتناب الرأي وبطلان التقليد فيها ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ أي أنه تعالى بصير بعملكم يبصر به ويراه ويحيط به علما فيجزيكم به . يقال بصر بالشيء في اللغة الفصحى ومنه (فبصرت به عن جنب)

وقال تعالى في مثل هذا السياق من سورة الشورى بعد ما تقدم (٤٢: ١٥ فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير) أمره أن يدعو إلى الدين الذي كان عليه الرسل في عصورهم، قبل الاختلاف فيه الذي ابتدع من بعدهم، وأن يستقيم عليه كما أمره الله، وأن يخاطب أهل الكتاب بما يتبرأ به من الاختلاف، ومن إثارته بحجج الجدال، واكتفى في سورة هود بالامر بالاستقامة على الجادة والنهي عن الطغيان، ومنه البغي الذي يورث الاختلاف، لان المقام مقام العبرة العامة بقصص الرسل كافة، لا بحال قوم موسى ومن أورثوا الكتاب خاصة، فهذا فرق ما بين المقامين في هذه الآيات المتشابهة

وقد أوجز القاضي البيضاوي في وصف هذه الاستقامة فقال « وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصونا من الطرفين - والاعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت الحقوق ونحوها، وهي في غاية العسر » [كذا قال] ثم قال « وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس أو استحسان » اه وهذا أحسن مما قبله وهو ينقض بعضه

فأحق النصوص بالاتباع من غير تصرف نصوص العقائد من صفات الله

تعالى وعالم الغيب إذ لا مجال للعقل والرأي فيها ، وقد كان تحكيم النظريات العقلية فيها مثار الاختلاف والشقاق والافتراق في الامة الذي نعاه القرآن على أهل الكتاب، وحذرنا منه في هذا السياق ، وفيما هو أوضح منه من سياق سورة الشورى، وما في معناهما من السور الاخرى ، وقد ترك البيضاوي بابه مفتوحا بزعمه ان الاستقامة في العقائد وسط بين التعطيل والتشبيه ، ويعني به التأويل الكلامي لانه من أساطين نظاره ، وحجته قوله : بحيث يبقى العقل مصونا من الطرفين

والصواب أن تحكيم العقل البشري في الخوض في ذات الله وصفاته وفيما دون ذلك من عالم الغيب كملائكته وعرشه وجنته وناره طغيان من العقل وتجاوز لحدوده وقد نهي عنه، لاصيانة له، فان أكبر نظار البشر وفلاسفتهم عقولا قد عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم وأنفس مادونهم من المخلوقات حتى الحشرات كالنحل والنمل، فأنى لهم أن يعرفوا كنه ذات الله وصفاته وأفعاله أو ملائكته، ولما خرجوا عن هدي سلف الامة من الصحابة والتابعين وحملة الآثار زاغوا فكانوا (٣٠ : ٣٢ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) سقط بعضهم في حبال التعطيل ، وبعضهم في خيال التشبيه ، وبعضهم في حيرة النفي المحض هربا من الامرين ، وبعضهم في الذبذبة بتأويل بعض النصوص دون بعض ، وهو ماسماه البيضاوي وسطا ، فهم يتأولون علو الرب على جميع خلقه ، واستواءه على عرشه ، ورحمته بعباده ، وحبه للمحسنين والمتوكلين ، وأمثال هذه الصفات المرغبة في الحق والعدل، والمنفرة من الظلم والبغي، يتأولونها هربا من التشبيه بزعمهم لانها مستعملة في صفات البشر ، وما من تأويل لها إلا وهو بألفاظ بشرية مثلها تحتاج إلى تأويل، وقصاراها انها إيثار لما اختاروه في وصفه تعالى على ما أنزله في كتابه ورضيه لنفسه

ثم انهم لا يأولون صفات العلم والقدرة والمشيئة والسمع والبصر مع القطع بأن معانيها اللغوية المستعملة في البشر تستلزم التشبيه الذي قالوه في الرحمة والحب والرضى والغضب، فان علمه تعالى ليس كعلمنا في استمداده من المعلومات ولا في صورها في النفس — فكيف إذا قلنا في الدماغ — ولا في انقسامه إلى تصور وتصديق ينقسمان إلى بديهي ونظري ، ولا قدرته تعالى ومشيئته في كنهها وتعلقها بالاشياء كقدرتنا

ومشيئتنا، فالواجب إذاً أن نؤمن بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه فهو حق وكمال إلا انه أعلى وأكمل من صفات خلقه التي وضعت لها تلك الاسماء، وكذلك الافعال وقد قالوا في رؤيته تعالى انها حق بلا كيف فلم لا يقولون مثل هذا في غيرها ؟

وانما نقول هنا لو أن التأويل الكلامي الذي عناه البيضاوي هنا شيء يقتضيه ادراك العقل البشري بالعلم الضروري أو النظري الذي ينتهي الى الضرورة باجماع العقلاء لما وقع فيه ما وقع من الاختلاف المذموم شرعا ومصلحة، حتى انتهى ببعض الفرق الى المروق من الملة بتأويل أركان الدين حتى العملية التي لا مساغ فيها للتأويل، ولم يقع مثل هذا الاختلاف فى أصول العقائد ولا أركان الاسلام العملية بين الصحابة رضوان الله عليهم وهم أعلم بالدين ممن بعدهم بالاجماع

فقوله تعالى (فاستقم كما أمرت) يقتضي الايمان بالغيب كله كما جاء في القرآن بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، وبذلك دون سواه نجتنب ما أمر الله به جميع رسله وأتباعهم من اجتناب الاختلاف والتفرق في الدين، الذي أوعد الله أهله بالعذاب العظيم، وبرأ رسوله من أهله المفرقين والمتفرقين

وكذلك يقتضي التزام كتاب الله وما فسرته به سنة رسوله ﷺ من العبادات العملية بدون تحكم بالرأي والقياس كما قال البيضاوي وغيره، وفي معناها وحكمها التحريم الديني، فكل منهما لا يثبت إلا بالنص القطعي أو الاجماع، وأما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة فهو طبيعي لا يمكن الاحتراس منه ولا يخل بالدين، ولا يصح أن يجعل سبباً لقطع اخوته، وقد بين الله المخرج منه في سورة النساء بقوله (٤: ٥٩ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) الآية

هذا وإن مقام الاستقامة لأعلى المقامات، يرتقي به لأعلى الدرجات، كما يدل عليه هذا الامر به للرسول ﷺ في هاتين الآيتين، ولموسى وهارون (ع م) في قوله (١٠: ٨٩ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) وقوله تعالى (٤١: ٣٠ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا) الآيات . وروى مسلم عن سفيان الثقفي قال قلت يارسول الله قل لي في الاسلام قولا لا أسأل

عنه أحداً بعدك ، قال «قل آمنت بالله ثم استقم» فالاستقامة عين الكرامة كما قالوا

قال السيد عبد الفتاح الزعبي الجيلاني لعم والدي السيد أحمد أبي الكمال وهو زوج عمته : ياسيدي إنك صحبت الشيخ محموداً الرافعي واني أرى أتباعه يذكرون له كثيراً من الكرامات فأرجو أن تخبرني بما رأيت منه؟ قال رأيت منه كرامة واحدة هي الاستقامة. أخبرني الشيخ عبد الفتاح هذا الخبر وقال أنا لم أكن أصدق ماينقلونه من تلك الكرامات فسألته لانني أعتقد انه كان من الصديقين في هذا العصر . وكان الشيخ عبدالفتاح نقادة وسيء الظن بما ينقله أهل طرابلس عن بعض شيوخ الطريق الذين اشتهروا بالصلاح ممن لم يدركهم ، ويعتقد ان بعض ما ينقلونه عنهم من الكرامات كذب كما عهده من كثير من معاصريه وبعضه أوهام . واختبر التزام الشيخ احمد للصدق بطول المعاشرة ، المودة بين الاسرتين والمصاهرة. وقد ذكرت هـذه الحكاية على صغر شأنها لان أولي الصدق والاستقامة في هذه البيوتات القديمة أمسى قليلا في بعضها وخلا من بعض ، وإذا كان البيضاوي قال في القرن السابع وغيره قبله وبعده ان الاستقامة في غاية العسر فما قل ذلك إلا لقلة من يرعاها حق رعايتها بالثبات عليها او بلوغ الكمال فيها ، لا لعسرها في نفسها ، فان الله لم يكلفنا من شرعه عسراً (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)

١١٣ ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ أي ولا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فتجعلوهم ركنا لكم تعتمدون عليهم فتقرونهم على ظلمهم ، وتوالونهم في سياستكم الحربية أو أعمالكم المالية . فان الظالمين بعضهم أولياء بعض ، فالركون من ركن البناء وهو الجانب القوي منه، ومنه قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام (لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) والسند بمعنى الركن وقد اشتق منه سند إلى الشيء (كركن اليه) واستند اليه ، وفسره الفيروزابادي في قاموسه بالتبع للجوهري بالميل إلى الشيء والسكون له ، وهو تفسير بالاعم كعادتهم ، وفسره الزمخشري بالميل اليسير وتبعه البيضاوي وغيره من المفسرين الذين يعتمدون عليه في تحريره للمعاني اللغوية لدقة فهمه وذوقه وحسن تعبيره ، وانه لكذلك وقلما يخطيء في اللغة إلا متحرفا الى شيوخ المذهب(المعتزلة) أو متحيزاً إلى فئة رواة المأثور من

الصحابة والتابعين أو نقلة اللغة ، وشيوخ المذهب يخطئون في الاجتهاد ، وفئة الروايات تخطيء في اعتماد الاسانيد الضعيفة والاسرائيليات، ورواة اللغة يفسرون اللفظ أحيانا بما هو أعم منه أو بلازمه أو بغير ذلك من قرائن المجاز في بعض كلام العرب ، ولا يعنون ان ذلك هو حد اللفظ المعرف بحقيقته ، وقد فسر الركون بعضهم بالميل والسكون إلى الشيء، وهو من تساهلهم ، ولكنهم قد ذكروا في مادته ما يدل على هذا التساهل ويؤيد ماحققناه . قال في القاموس المحيط تبعاً للصحاح : ركن اليه كنصر ركوناً مال وسكن، والركن بالضم الجانب الاقوى (زاد الجوهري من كل شيء) والامر العظيم والعز والمنعة اه ومثله في لسان العرب وذكر الآية وان الركون فيها من مال إلى الشيء واطمأن اليه ، والاطمئنان أقوى من السكون، وفسره في المصباح المنير بالاعتماد على الشيء وهو أقوى من الاطمئنان ، والمعاني الاربعة أي الميل والسكون والاطمئنان والاعتماد من لوازم معنى الركون ولا تحيط بحقيقته وأقواها آخرها . قال في اللسان كغيره : وركن الشيء جانبه الاقوى ، والركن الناحية القوية وماتقوى به من ملك وجند وغيره ، وبه فسر قوله تعالى (فتولى بركنه) ودليل ذلك قوله تعالى (فأخذناه وجنوده) أي أخذناه وركنه الذي تولى به الخ ما قال وهو يدل على ما حققناه في معنى الركون الحقيقي ، وإنما عنيت بتحقيقه لما جاءوا به في تفسيره وتفسير الظلم الطاغي المعاقب عليه من التشديد الذي لاترضاه الآية كما فعلوا في تفسير الاستقامة إذ تجاوزوا بها سماحة دين الفطرة ، ويسر الحنيفية السمحة ، فان الله تعالى جعل دينه يسراً لا عسر فيه ، وسمحاً لا حرج على متبعيه

فسر الزمخشري الذين ظلموا بقوله : أي إلى الذين وجد منهم الظلم ولم يقل إلى الظالمين، وحكي أن الموفق صلى خلف الامام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال هذا فيمن ركن إلى ظلم فكيف بالظالم ؟ اه ومعنى هذا ان الوعيد في الآية يشمل من مال ميلا يسيراً إلى من وقع منه ظلم قليل أي ظلم كان، وهذا غلط أيضاً ، وإنما المراد بالذين ظلموا في الآية فريق الظالمين من أعداء المؤمنين الذين يؤذونهم ويفتنونهم عن دينهم من المشركين ليردوهم عنه ، فهم كالذين كفروا في الآيات

الكثيرة التي يراد بها فريق الكافرين ، لا كل فرد من الناس وقع منه كفر في الماضي ، وحسبك منها قوله تعالى (٢: ٦ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) والمخاطبون بالنهي هم المخاطبون بالآية السابقة بقوله (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) وقد عبر عن هؤلاء الاعداء المشركين بالذين ظلموا كما عبر عن أقوام الرسل الاولين في قصصهم من هذه السورة في الآيات (٢٧ و ٦٧ و ٩٤) وعبر عنهم فيها بالظالمين أيضاً كقوله (٤٤ وقيل بعداً للقوم الظالمين) فلا فرق في هذه الآيات بين التعبير بالوصف والتعبير بالذين وصلته فانهما في الكلام عن الاقوام بمعنى واحد

فقوله تعالى ﴿ فتمسكم النار ﴾ معناه فتصيبكم النار التي هي جزاء الظالمين بسبب ركونكم اليهم بولايتهم والاعتزاز بهم والاعتماد عليهم في شؤونكم الملية لان الركون إلى الظلم وأهله ظلم (ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) روي عن ابن عباس (رض) أنه فسر الظلم هنا بالشرك والذين ظلموا بالمشركين، إذ السورة مكية ولم يك في مكة وما حولها غير المشركين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا المؤمنين ، ومعنى الآية عام في موضوعها فولاية أهل الكتاب على المؤمنين كولاية المشركين، لا خلاف في هذا وهو منصوص ، ولكن قال بعض المفسرين ان الآية عامة في كل نوع من أنواع الظلم فيشمل ظلم المسلمين لانفسهم في أحكامهم وأعمالهم وسيأتي بيانه بعد تمام تفسيرها الذي نفهمه من مدلول ألفاظها وسياقها وحال المخاطبين بها مع الظالمين لهم في عصرهم ، ويدل على ما حققناه قوله تعالى :

﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ أي وما لكم في هذه الحال التي تركنون اليهم فيها غير الله من أنصار يتولونكم ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ بسبب من الاسباب ولا بنصر الله تعالى فان الذين يركنون إلى الظالمين يكونون منهم وهو لا ينصر الظالمين كما قال (وما للظالمين من أنصار) بل تكون غايتكم الحرمان مما وعد الله رسله ومن ينصره من المؤمنين من نصره الخاص ، فالتعبير بثم للدلالة على الغاية والعاقبة المقدرة لهم إن ركنوا إلى أعدائه وأعدائهم الظالمين . وقال الزمخشري

ومن تبعه انها دالة على استبعاد نصرهم في هذه الحالة لان حكمة الله اقتضت عقابهم بالنار ، وما قلته أقرب ولله الحمد والمنة

وفي معنى الآية ماورد من الآيات الكثيرة في النهي عن ولاية الكفار واتخاذ وليجة من دون الله ورسوله منهم، وعن اتخاذ المؤمنين بطانة من دونهم ، وقد اتخذ المشركون وسائل كثيرة لاستمالة الرسول ﷺ إلى الركون اليهم فعصمه الله من ذلك بعد أن كاد يرجح له اجتهاده ان في بعض ذلك مصلحة واستمالة لهم إلى الايمان وذلك قوله تعالى (١٧:٧٤ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ٧٥ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) يعني لولا أن ثبتناك بالعصمة لقاربت أن تركن اليهم شيئا قليلا من الركون كأن تصدقهم أنهم أهل لان يعتمد عليهم بعض الاعتماد، إذا أقبلت عليهم وأعرضت عن فقراء المؤمنين لاستمالتهم كافعلت مع الاعمى، ولكن تثبيتنا إياك عصمك من مقاربة أقل الركون اليهم فضلا عن مقارفة هذا الاقل، فالآية الاولى نص في أنه ﷺ ماركن أقل الركون ولا قارب أن يركن، والآية الثانية نص في أنه لو فعل ذلك (فرضا) لعاقبه الله عقاباً مضاعفا في الحياة والممات معاً، وهذه مبالغة في الزجر والوعيد لغيره ﷺ على الركون اليهم لاتصل بلاغة الكلام البشري إلى مبادئها فضلا عن أوساطها أو غاياتها

ولو كان معنى الركون في اللغة الميل اليسير مهما يكن نوعه كما زعم الزمخشري ومقلدوه لكان هذا الوعيد الشديد على قليل منه على قلته في نفسه مما لا يمكن أن تراد به حقيقته، لانه أشد الوعيد على ما لا يستطيع بشر اتقاءه إلا بعصمة خاصة من الله تعالى كما سترى في تفسيرهم له ، أما والحق ماقلناه وهو أن الركون إلى الشخص أو الشيء هو الاعتماد عليه والاستناد اليه وجعله ركناً شديداً للراكن، فأجدر بقليله أن يتعذر اجتنابه على أكمل البشر إلا بالعصمة والتثبيت الخاص من الله عز وجل ، فكيف ينهى جميع المؤمنين عن الميل اليسير إلى من وقع منه أي نوع من الظلم ؟

لم يكن ميل النفس الطبيعي من المؤمنين إلى أولادهم وأرحامهم المشركين الظالمين ولا البر بهم والاحسان اليهم محظوراً عليهم ، لانه ليس من الركون اليهم الخاص بالولاية لهم والاعتماد عليهم وهو المنهي عنه ، ولا من الميل اليهم لاجل الظلم، ولما فعل

حاطب بن أبي بلتعة (رض) فعلته التي هي أقرب إلى الولاية الحربية منها إلى صلة الرحم كما تأولها أنزل الله تعالى سورة الممتحنة التي نهى فيها عن ولاية المشركين الظالمين المقاتلين في الدين والمودة فيها وقال (ومن يتولهم فأولئك الظالمون) وأذن بالبر والقسط لغيرهم منهم، ولا تنس ما ورد في الصحيح من نزول قوله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت) في حرص النبي ﷺ على إسلام عمه أبي طالب الذي كفله في صغره، وكان يحميه ويناضل عنه في نبوته، واذكر قول السيدة خديجة (رض) له في حديث بدء الوحي: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل الخ

بل لم تكن الثقة ببعض المشركين والاعتماد عليهم في أهم الاعمال من الركون المنهي عنه فقد وثق النبي ﷺ والصديق الاكبر (رض) بمشرك من بني الديل وائتمناه على الراحلتين اللتين هاجرا عليهما ليوافيهما بهما في الغار بعد ثلاث، وكان المشركون الظالمون يبحثون عنهما وقد جعلوا لمن يدلهم عليهما قدر ديتهما

واختلف أئمة العلم في استعانة المسلمين بالكافر في الحرب لتعارض الاحاديث فيها وجمع الحافظ بينها في التلخيص بقوله ان الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيها. قال الشوكاني وهذا أقربها وعليه نص الشافعي اه ولا شك انهم لم يعدوها من الركون اليهم

ومن مباحث القراءات اللفظية ان بعضهم قرأ (تركنوا) بضم الكاف وهي لغة قيس وتميم ونجد. وبعضهم قرأها وقرأ تمسكم بكسر تائهما وهي لغة تميم

﴿نموذج من قصور أقوال المفسرين وغلطهم وتقليدهم في تفسير الآية﴾

(١) الروايات المأثورة والمعتمدون عليها

روى الامام ابن جرير المتوفى سنة ٣١٠ عن ابن عباس (رض) أنه فسر الآية بالركون إلى الشرك (وهو أقوى ماروي فيها) وروى عنه تفسيره بالميل وانه قال لا تميلوا إلى الذين ظلموا. وروى عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم (ولا تركنوا) لا تذهبوا، وهو ليس تفسيراً بالمعنى اللغوي ولا يظهر المراد الشرعي منه إلا بقرينة ماقبله إن جمع بينهما بارادة المشركين الظالمين للمؤمنين، وروى عن عكرمة انه فسر

الركون بالطاعة أو المودة أو الاصطناع ، وعن أبي العالية قال : لا ترضوا أعمالهم (وهو تفسير بأحد اللوازم البعيدة) وعن الحسن قال : خصلتان إذا صلحتا للعبد صلح ماسواهما من أمره : الطغيان في النعمة والركون إلى الظلم ، ثم تلا الآية ، وهذا من فقه الآيتين لا تفسير لهما . وعن قتادة قال : يعني لا تلحقوا بالشرك وهو الذي خرجتم منه. وأخذ ابن جرير خلاصة هذه الروايات فقال في تفسير الآية : ولا تميلوا أيها الناس إلى قول هؤلاء الذين كفروا بالله فتقبلوا منهم وترضوا عن أعمالهم فتمسكم النار بفعلكم الخ

وما قاله ورواه حق في نفسه ولكنه لا يحيط بمعنى الآية ، وما كانت تلك الروايات إلا كلمات مجملة وجيزة ذكرت بالمناسبة لا بقصد تحقيق معنى الآية في نظمها وأسلوبها وموقعها من العبرة بقصص الرسل مع أقوامهم الظالمين . وقال مثله كل من البغوي وابن كثير فانهما يعتمدان على المأثور قل أو كثر

(٢) قال أبو بكر الجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠ في تفسيره (أحكام القرآن)

والركون إلى الشيء هو السكون اليه والمحبة فاقتضى ذلك النهي عن مجالسة الظالمين ومؤانستهم والانصات اليهم ، وهو مثل قوله تعالى (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) اه وقد أبعد كل البعد وإنما هو فقيه لا لغوي ولا مفسر عام

(٣) قال الزمخشري المعتزلي المتوفى سنة ٥٢٨ في كشافه بعد ذكر القراءات في الآية :

والنهي متناول للانحطاط في هواهم ، والانقطاع اليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم ، وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم والتزيي بزيهم ، ومد العين إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم ، وتأمل قوله (ولا تركنوا) فان الركون هو الميل اليسير ، وقوله (الى الذين ظلموا) أي الى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل الى الظالمين . اه المراد منه، وذكر بعده حكاية صلاة الموفق خلف الامام الذي قرأ الآية فغشي عليه وتقدمت ، وموعظة بليغة وعظها الزهري أحد اخوانه من عباد السلف وزهادهم

أقول كل ما أدغمه في النهي عن الركون إلى الذين ظلموا قبيح في نفسه لا ينبغي للمؤمن اجتراحه، وقد يكون من لوازم الركون الحقيرة، ولكن لا يصح أن يجعل شيء منه تفسيرا للآية مرادا منها والمخاطب الاول بها رسول الله ﷺ والسابقون الاولون

الى التوبة من الشرك والايمان معه، ولم يكن أحد منهم مظنة الانقطاع لظلمة المشركين والانحطاط في هواهم والرضا بأعمالهم ، وأما زيارتهم ومصاحبتهم ومجالستهم والتزيي بزيهم وأمثال ذلك من العادات فلم يكونوا منهيين عنه، بل كان زي المؤمنين وزيهم واحدا وعاداتهم الدنيوية واحدة ، إلا ما كان قبيحاً نهى عنه الاسلام ، وكانت صلة الرحم معهم مشروعة زادها الاسلام تأكيدا، وكذلك سائر فضائل المعاشرة. ولما نزلت هذه السورة كان المسلمون ضعفاء في مكة والمشركون أقوياء فيها ، ولما نزلت سورة الممتحنة كان الامر بالعكس إذ كان النبي ﷺ عازما على الزحف بالمؤمنين لفتح مكة ، وكان الفصل فيها في معاملتهم للمشركين ان الله تعالى لا ينهاهم عن الذين لم يقاتلوهم في الدين أن يبروهم ويقسطوا اليهم وإنما ينهاهم عن الذين قاتلوهم في الدين ... أن يتولوهم وينصروهم

(٤) وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣ في أحكام القرآن :

في الآية مسألتان (الاولى) الركون فيه اختلاف بين النقلة للتفسير وحقيقته الاستناد والاعتماد على الذين ظلموا (المسألة الثانية) قيل في الذين ظلموا انهم المشركون ، وقيل انهم المؤمنون ، وأنكره المتأخرون ، وقالوا أما الذين ظلموا من أهل الاسلام فالله أعلم بذنوبهم ، لا ينبغي أن يصالح على شيء من معاصي الله ولا يركن اليه فيها ، وهذا صحيح لان هذا لا ينبغي لأحد أن يصحب على الكفر ، وفعل ذلك كفر ، ولا على المعصية ، وفعل المعصية معصية . قال الله في الاول (ودوا لو تدهن فيدهنون) وسيأتي إن شاء الله . وإن كانت في الكفار فهي عامة فيهم وفي العصاة ، وذلك على نحو من قوله (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) الآية . وقال حكيم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

والصحبة لا تكون إلا عن مودة ، فان كانت عن ضرورة وتقية فقد تقدم ذكرها في آية آل عمران على المعنى ، وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار . اهـ وقد أصاب المعنى اللغوي والمأثور دون فقه الآية

وتبعه القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ في تفسيره جامع احكام القرآن فنقل كلامه بدون عزو اليه ولم يزد عليه

(٥) وقال أبو علي الفضل بن الحسن الطوسي الشيعي المتوفى سنة ٥٦١ في تفسيره مجمع البيان :

(اللغة) الركون الى الشيء هو السكون اليه بالمحبة له والانصات والانصباب اليه بالمحبة ، نقيضه النفور (المعنى) ثم نهى الله سبحانه عن المداهنة في الدين والميل الى الظالمين فقال (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) أي ولا تميلوا الى المشركين في شيء من دينكم عن ابن عباس ،وقيل لا تداهنوا عن السدي وابن زيد،وقيل إن النهي عن الركون الى الظالمين المنهي عنه هو الدخول معهم في ظلمهم وإظهار الرضاء بفعلهم أو إظهار موالاتهم . فاما الدخول عليهم أو مخالطتهم ومعاشرتهم دفعا لشرهم فجائز عن القاضي وقريب منه ما روي عنهم (ع) ان الركون المودة والنصيحة والطاعة اه وهو لم يأت من عنده بشيء وانما ذكر بعض الروايات المتقدمة وزاد عليها عبارة عن أستاذهم القاضي عبد الجبار المعتزلي وروايةعن آل البيت (ع)

(٦)وقال فخر الدين الرازي الشافعي المتوفى سنة ٦٠٦ في تفسيره الكبير مفاتح الغيب الركون هو السكون الى الشيء والميل إليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه ... قال المحققون الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الابواب،فاما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون،ومعنى قوله (فتمسكم النار) أي إنكم إن ركنتم إليهم فهذه عاقبة الركون ، واعلم أن الله حكم بأن من ركن الى الظلمة لابد وأن تمسه النار ، وإن كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه » اه

قد تبع الامام الرازي خصمه المعتزلي (الزمخشري) فأساء التقليد واختصر على خلاف عادته وما أفاده، بل زاد عليه الاعتذار لطلاب المنافع ودرء المضار من الظالمين فأخرج مداخلتهم إياهم من جريمة الركون اليهم، وهل يداخلهم أحد إلا لهذا ؟

(٧)وقال القاضي ناصر الدين عبدالله عمر البيضاوي الشافعي المتوفى سنة ٦٨٥ (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) فلا تميلوا إليهم أدنى ميل فان الركون هو الميل اليسير كالتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم (فتمسكم النار) بركونكم إليهم، واذا

كان الركون إلى من وجد منه مايسمى ظلما كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ثم بالميل إليهم كل الميل ، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه ، ولعل الآية أبلغ مايتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه ، وخطاب الرسول ومن معه من المؤمنين بها والتثبيت على الاستقامة التي هي العدل ، فان الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فهو ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه اهـ

(٨) قال عبدالله بن احمد النسفي الحنفي المتوفي سنة ٧٠١ في تفسيره مدارك التنزيل : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) ولا تميلوا، قال الشيخ رحمه الله هذا خطاب لاتباع الكفرة أي لا تركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم وفيما يدعونكم اليه (فتمسكم النار) وقيل الركون اليهم الرضا بكفرهم ، وقال قتادة : ولا تلحقوا بالمشركين ، وعن الموفق أنه صلى خلف الامام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه ، فلما أفاق قيل له ؟ فقال هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم . وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين : ولا تطغوا ولا تركنوا . وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون الملوك . وعن الاوزاعي مامن شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله ﷺ « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية يسقى شربة ماء ؟ فقال لا ، فقيل له يموت ؟ قال دعه يموت (وما لكم من دون الله من أولياء) حال من قوله (فتمسكم النار) أى فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ومعناه وما لكم من دون الله من أولياء يقدررن على منعكم من عذابه ولا يقدر على منعكم منه غيره (ثم لا تنصرون) ثم لا ينصركم هو لأنه حكم بتعذيبكم ومعني ثم الاستبعاد أي النصرة من الله مستبعدة اهـ وفيه خطأ غير ما قد به الزمخشري

(٩) وقال أبو السعود شيخ الاسلام مفتي دولة الروم العثمانية المتوفى سنة ٩٨٣ في تفسيره (ارشاد العقل السليم) ـ (ولا تركنوا) أي تميلوا أدنى ميل (إلى الذين ظلموا) أي الى الذين وجد منهم ظلم في الجملة ومدار النهي هو الظلم ، والجمع باعتبار جمعية المخاطبين ، وماقيل من أن ذلك للمبالغة في النهي من حيث إن كونهم جماعة مظنة الرخصة في مداهنتهم ، إنما يتم ان لو كان المراد النهي عن الركون إليهم من حيث

إنهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم) بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم، ويلقي شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ، ويبتهج بالتزيي بزيهم ، ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية ، ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، وهي في الحقيقة من الحبة طفيف ، ومن جناح البعوضة خفيف ، بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ، ضعف الطالب والمطلوب، وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل ، فان الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره اه وفيه خطأ خير ما قلد به الزمخشري وتكلف

(١٠) وقال السيد محمود الآلوسي مفتي الحنفية في بغداد (بعد ان كان شافعيا) في تفسيره روح المعاني :

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) أي لا تميلوا اليهم أدنى ميل، والمراد بهم المشركون كما روى ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس(رض) وفسر الميل بميل القلب إليهم بالمحبة ، وقد يفسر بما هو أعم من ذلك ، كما يفسر الذين ظلموا بمن وجد منه مايسمى ظلما مطلقا قيل ولارادة ذلك لم يقل الى الظالمين ، ويشمل النهي حينئذ مداهنتهم وترك التغيير عليهم مع القدرة والتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم ومجالستهم من غير داع شرعي، وكذا القيام لهم ونحو ذلك، ومدار النهي على الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين ، وقيل ان ذلك للمبالغة في النهي من حيث إن كونهم جماعة مظنة الرخصة في مداهنتهم مثلا، وتعقب بأنه انما يتم أن لو كان المراد النهي عن الركون إليهم من حيث إنهم جماعة وليس فليس (فتمسكم) أي فتصيبكم بسبب ذلك كما تؤذن به الفاء الواقعة في جواب النهي (النار) وهي نار جهنم والى التفسير الثاني ـ وما أصعبه على الناس اليوم بل في غالب الاعاصير من تفسير ـ ذهب أكثر المفسرين ، قالوا واذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مساس النار ، فما ظنك بمن يميل الى الراسخين في الظلم كل الميل ، ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ، ويتعب قلبه وقالبه في إدخال

السرور عليهم ، ويستنهض الرجل والخيل في جلب المنافع اليهم، ويبتهج بالتزيي بزيهم ، والمشاركة لهم في غيهم ، ويمد عينيه الى مامتعوا به من زهرة الدنيا الفانية، ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، غافلا عن حقيقة ذلك، ذاهلا عن منتهى ماهنالك ، وينبغي أن يعد مثل ذلك من الذين ظلموا لا من الراكنين اليهم، بناء على ماروي أن رجلا قال لسفيان إني أخيط للظلمة فهل أعد من أعوانهم؟ فقال له لا أنت منهم والذي يبيعك الابرة من أعوانهم اه

من تأمل أقوال من بعد الزمخشري في تفسير الآية يرى انهم كلهم قلدوه فيما فسر به الركون وهو غلط منه كما حققته في أول تفسير الآية وانه هو مشتق من الركون وهو الجانب القوي من البناء ومن كل شيء ، فمعنى الركون اليهم الاستناد اليهم والاعتماد على ولايتهم ونصرهم الخ وفي تفسير الذين ظلموا بالذين وقع منهم ظلم ما هو غلط أيضا وانما هو في الكلام على الاقوام كالوصف باسم الفاعل فقوله تعالى (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) معناه جماعة الكافرين الراسخين في الكفر لا من وقع منهم كفر ما الخ ماتقدم

(١١) أختم هذه النقول بما أورده السيد محمد صديق حسن خان نائب ملك بهوبال (الهند) المتوفى سنة ١٣٠٧ في تفسيره (فتح البيان في مقاصد القرآن) الذي أودعه تفسير أستاذه القاضي الشوكاني المسمى (بفتح القدير) وزاد عليه ، فكان ما أورده عنه مغنيا عن أصله ،

فقد اتفق المفسران على تخطئة الزمخشري ومن تبعه في تفسير الركون بالميل اليسير وأوردا بعض ماقاله رواة التفسير واللغة في معناه مخالفا له، مما نقلناه وزدنا عليه، وانفردنا بتحقيق معناه دونهم ودونهما ، ثم انفردا بالبحث الآتي بنصه قال:

« وقد اختلف أيضا الائمة من المفسرين في هذه الآية هل خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقيل خاصة ، وان معنى الآية النهي عن الركون الى المشركين وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

(فان قلت) وقد وردت الادلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الائمة والسلاطين والامراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح « أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة » وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة ، ومالم يظهر منهم الكفر البواح ،ولم يأمروا بمعصية الله،وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم الى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه ،مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح فان طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله، ومن جملة مايأمرون به تولي الاعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله، ومن جملة مايأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم واقامة الحدود على من وجبت عليه

« وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل مايأمرون به مالم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لابد منه ، ولا محيص عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الادلة الواردة به،بل قد ورد به الكتاب العزيز (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة وإن منعوا ماهو عليهم للرعايا كما في بعض الاحاديث الصحيحة « أعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم » ورد الامر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي ﷺ حتى قال « وإن أخذ مالك وضرب ظهرك » فان اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ماتستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون ، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطنا فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال اليهم في الظاهر لأمر يقتضي ذلك شرعا كالطاعة أو التقية ، ومخافة الضرر منهم ، أو لجلب مصلحة عامة أوخاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة اذا لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بأفعالهم اهـ

(قلت) أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا

الاشارة اليها ، ولاشك في هذا ولاريب، فكل من أمروه ابتداءً أن يدخل في شيء من الاعمال التي أمرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل اليه فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له. وأما ماورد من النهي عن الدخول في الامارة فذلك مقيد بعدم وقوع الامر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والامراء جمعاً بين الادلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الاحاديث الصحيحة ، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ماهم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة ، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالادلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والاعمال بالنيات وانما لكل امريء مانوى ، ولايخفي على الله خافية ،

وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع ، فان زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له والاليق به ، يامالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اجعلنا من عبادك الصالحين ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لايخافون فيك لومة لائم، وقونا على ذلك ، ويسره لنا ، وأعنا عليه اه

تحقيق مسألة طاعة الأئمة والأمراء

إن هذا البحث الذي فتح بابه ودخله هذان المجددان في تفسيريهما (فتح القدير وفتح البيان) كان استدراكا ضروريا لما فسر به الآية جمهور من قبلهما فاقتصروا وقصروا ، لولاه لما كان اليه حاجة في فهم الآية ، على انهما على سبقهما لم يسلما من تقصير ، ولم يأتيا بكل ما يحتاج اليه البحث من تحرير ، وأوردا الاحاديث بالمعني بدون تخريج ولا تدقيق

أهم مافي البحث من حاجة إلى التحرير مسألة طاعة الملوك والسلاطين والامراء

الظالمين وإن تفاقم ظلمهم فسلبوا الاموال ، وضربوا ظهور الرجال ، ما داموا لا يظهرون الكفر البواح (هو بالفتح : الظاهر المكشوف) وقد اشتهر أن هذا مذهب أهل السنة ، وأن وجوب الخروج عليهم مذهب الزيدية

والصواب ان المسألة فيها نظر ، فاطلاق القول فيها يحتاج إلى تقييد ، وإجماله لا ينجلي إلا ببيان وتفصيل ، وقد سبق لنا تحريره في كتاب (الخلافة — أو الامامة العظمى) وفي هذا التفسير

وخلاصة القول الحق انه لا تعارض بين وجوب طاعة الائمة والامراء فيما لا معصية فيه لله تعالى من المعروف ، وبين النهي عن الركون إلى الظالمين وحظر ما دون الركون اليهم مما قاله المفسرون وغيرهم ، وما في معنى هذا النهي من آيات الذكر الحكيم في تقبيح الظلم وبيان كونه سبباً لهلاك الامم في الدنيا وعذابها في الآخرة ، وكذا الآيات الدالة على سلطة الامة عليهم

وما ورد من الاحاديث في طاعتهم يقابله ما ورد فيها من وجوب الأخذ على أيدي الظالمين عامة ، وعلى أئمة الجور والامراء خاصة ، ووجوب تغيير المنكر باليد أولاً فان لم يستطع فباللسان ، وكون إنكاره بالقلب عند عدم الاستطاعة لما قبله أضعف الايمان ، ومنه عدم الميل اليهم ولو يسيراً وهو الذي فهمه من ذكرنا من المفسرين من النهي عن الركون ، فانكارهم له حق في نفسه ، وإنما أخطأ من أخطأ في تفسير الركون به

وحسبنا هنا ما رواه الامام أحمد وأصحاب السنن وغيرهم في تفسير قوله تعالى (٥ : ١٠٨ عليكم أنفسكم) الآية ، ففي المسند من طريق قيس (أبي حازم) قال : قام أبو بكر (رض) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ياأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ــ حتى أتي على آخر الآية ــ ألا وان الناس اذا رأوا الظالم لم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وانى سمعت رسول الله يقول « إن الناس . . . وفي رواية أخرى عنه انه خطب فقال يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الناس اذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » وهذا الحديث رواه

ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحميدي في مسانيدهم وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم

وفي معنى هذا الحديث ما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «لما وقعت بنو اسرائل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض فلعنهم (على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) قال فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئا فقال «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم أطراً» وفي رواية أبي داود قال: قال «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم الله كما لعنهم» اه أطره على الحق وغيره عطفه وثناه، وقصره عليه حبسه وأمسكه عليه حتى لا يتعداه (وبابهما ضرب)

والاصل المجمع عليه أن الطاعة الواجبة في الشرع هي لأولي الأمر من الائمة (الخلفاء) ونوابهم من السلاطين وأمراء الجيوش والولاة وكلها مقيدة بالمعروف من الواجب والمندوب والمباح، دون المحظور. وأما طاعة المتغلبين فهي للضرورة وتقدر بقدرها بحسب المصلحة ويجب إزالتها عند الامكان من غير فتنة ترجح مفسدتها على المصلحة، فخروج الامام الحسين السبط عليه السلام على يزيد الظالم الفاسق كان حقا موافقا للشرع ولكنه ما أعد له عدته الكافية، بل خذله من عاهدوه على نصره، وقد امتنع أبو حنيفة من الاجابة الى ولاية القضاء، وفر منها الشافعي، وكان من أمر مالك ما كان حتى روي انه ترك صلاة الجمعة مع ولاتهم

قال الامام أبو محمد بن حزم في كتابه (مراتب الاجماع) واتفقوا ان الامام الواجب امامته فان طاعته في كل ما أمر ما لم يكن معصية فرض، والقتال دونه فرض، وخدمته فيما أمر به واجبة، وأحكامه وأحكام من ولى نافذة، واختلفوا فيما بين هذين الطرفين من امام قرشي غير عدل أو متغلب من قريش أو مبتدع الخ

وأورد الشوكاني في الباب من نيل الاوطار حديث عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا

وأثرة علينا ، وأن لاننازع الامر أهله» «إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله سلطان » متفق عليه . وقال الشوكاني في شرحه مانصه :

قوله (عندكم فيه من الله برهان) أي نص آية أوخبر صريح لا يحتمل التأويل ومقتضاه انه لا يجوز عليه الخروج مادام فعلهم يحتمل التأويل ، قال النووي المراد بالكفر هنا المعصية ، ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الامور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الاسلام فاذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم انتهى

«قال في الفتح : وقال غيره اذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا اذا ارتكب الكفر ، وحمل رواية المعصية على ما اذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فاذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق، ويتوصل الى تثبيت الحق له بغير عنف، ومحل ذلك اذا كان قادرا ، ونقل ابن التين عن الداودي قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، والا فالواجب الصبر ،وعن بعضهم لايجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء ،فان أحدث جورا بعد ان كان عدلا فاختلفوا في جواز الخروج عليه والصحيح المنع الا أن يكفر فيجب الخروج عليه ، قال ابن بطال ان حديث ابن عباس المذكور في أول الباب حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار

« قال في الفتح : وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وان طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء ولم يستثنوا من ذلك الا اذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها كما في الحديث انتهى

«وقد استدل القائلون بوجوب الخروج على الظلمة ومنابذتهم السيف ومكافحتهم بالقتال بعمومات من الكتاب والسنة في وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا شك ولا ريب ان الاحاديث التي ذكرها المصنف في هذا الباب وذكرناها أخص من تلك العمومات مطلقا وهي متواترة المعنى كما يعرف ذلك من له أنسة بعلم السنة، ولكنه لا ينبغي لمسلم أن يحط على من خرج من السلف

الصالح من العترة وغيرهم على أئمة الجور فانهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى لله وأطوع لسنة رسول الله من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم، ولقد أفرط بعض اهل العلم كالكرامية ومن وافقهم في الجمود على احاديث الباب حتى حكموا بأن الحسين السبط (رض) وأرضاه باغ على الخمير السكير الهاتك لحرم الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية لعنهم الله، فيالله العجب من مقالات تقشعر منها الجلود، ويتصدع من سماعها كل جلمود اه ما في نيل الاوطار

هذا وان حديث ابن عباس الذي عزاه إلى أول الباب هو قوله ﷺ من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فانه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية» هو متفق عليه. وهذا وما في معناه من أحاديث لزوم الجماعة وامامهم الذي بايعوه واجتمعت كلمتهم عليه أخص مما تقدم الكلام فيه عن العلماء في أمراء الجور. وقد قالوا في معنى موته ميتة جاهلية انه يموت وليس في عنقه بيعة لامام يلتزمها مع جماعة المؤمنين كما صرح به في بعض الروايات، فيكون كما كان عليه أهل الجاهلية من الفوضى لا انه يكون كافرا اه

وكل هذا في خروج بعض الافراد أو الفئات على إمام المسلمين وجماعتهم بشق عصا الطاعة، وتفريق شمل الجماعة، وهو الفساد في الارض، وإن كان الامام ظالما، فان كف الامام عن الظلم ولو بالعزل فهو حق أهل الحل والعقد الذين هم محل ثقة الامة، الذين يمثلون الرأي العام فيها، الذين عناهم خليفة رسول الله ﷺ بقوله في خطبته الاولى عقب مبايعته «فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني»

---

(١١٤) وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٥) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

هذا أمر بأعظم العبادات وبأعظم الاخلاق، اللذين يستعان بهما على ما قبلهما من الامر بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون الى أولي الظلم، ولذلك عطفا عليهما

١١٤ ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ خص إقامة الصلاة بالذكر في هذه الوصية العامة المجملة لانها رأس العبادات المغذية للايمان والمعينة على سائر الأعمال، أي أدها على الوجه القويم وأدمها في طرفي النهار من كل يوم ، طرف الشيء والزمن الناحية والطائفة منه ونهايته ، فطرفا النهار هنا البكرة والاصيل أو الغدو والعشي وقد أمرنا تعالى في التنزيل بالذكر والتسبيح فيهما ﴿ وزلفا من الليل ﴾ أي وفي زلف من الليل جمع زلفة وهي بالضم كقرب جمع قربة لفظا ومعنى وتطلق كما في معاجم اللغة على الطائفة من أول الليل لقربها من النهار، وقالوا الزلف ساعات الليل الآخذة من النهار، وساعات النهار الآخذة من الليل ، روي عن ابن عباس أن صلاة طرفي النهار المغرب والغداة (أي الفجر) وزلف الليل العتمة (أي العشاء) وعن الحسن أن صلاة طرفي النهار الفجر والعصر ، وقال في زلف الليل هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وقال:قال رسول الله ﷺ « هما زلفتا الليل » وهذا أقرب إلى اللغة مما قبله،فان صح الحديث فلا معدل عنه ، ولكنه من مراسيل الحسن فيبحث عمن رفعه،وأدخل بعض المفسرين صلاة الظهر في طرفي النهار ، إذ يصح أن يسمى وقتها طرفا بمعنى أنه طائفة وناحية من النهار يفصلها من غيرها زوال الشمس ولكنه طرف ثالث واللفظ هنا مثنى، وفي سورة طه (٢٠:١٣٠ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) فجمع الاطراف بعد ذكر الطرفين الاخيرين بالمعنى وهما وقتا صلاتي الفجر والعصر

والاظهر في أمثال هذه الآيات أن ذكر الله تعالى وتسبيحه المطلق فيها عام فيدخل فيه الصلاة وغيرها والآية الصريحة في أوقات الصلوات الخمس قوله تعالى (٣٠:١٨ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ١٩ وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) تمسون تدخلون في المساء وهو ما بين الظهر إلى المغرب، نقله في المصباح عن ابن القوطية وذكره هو وغيره مثل هذا في تفسير العشي وهو غلط سببه اشتراك الوقتين باتصال آخر المساء بأول العشي وهو أول الليل حيث يختلط النور بالظلام، فصلاة المغرب العشاء الاولى، وصلاة العتمة العشاء الآخرة التي يزول عندها الشفق وهو آخر أثر لنور النهار، وفي معنى هذا قوله تعالى (١٧:٧٨ أقم الصلاة لدلوك الشمس

إلى غسق الليل وقرآن الفجر) الآية فدلوك الشمس زوالها أي أقمها لأول وقتها هذا وفيه صلاة الظهر، منتهيا الى غسق الليل وهو ابتداء ظلمته ويدخل فيه صلاة العصر والعشاءين وأقم صلاة الفجر

﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ الجملة تعليل للأمر قبلها مبين لحكمته وفائدته ومعناها أن للاعمال الحسنة من تزكية النفس واصلاحها، مايمحو منها تأثير الاعمال السيئة وافسادها ، روي عن ابن مسعود وابن عباس تفسير الحسنات فيها بالصلوات الخمس ، زاد ابن عباس والباقيات الصالحات، ولا غرو فالصلاة أعظم الحسنات ، وأكبر العبادات المكفرة للسيئات ، ولكن لفظ الحسنات عام يشمل جميع الاعمال الصالحات حتى التروك فانها عمل نفسي ومنه (٤:٣١ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وفي الحديث « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » ﴿ إن في ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ أي إن فيما ذكر من الوصايا من الامر بالاستقامة إلى هنا لموعظة للمتعظين الذين يراقبون الله ولا ينسونه ،

وقد فسروا السيئات هنا بالصغائر، وأيدوه بما روي في سبب نزول الآية عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك كأنه يسأله عن كفارتها فأنزلت عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار) الخ فقال يارسول الله ألي هذه ؟ قال « هي لمن عمل بها من أمتي » رواه الجماعة إلا أبا داود ، وأشهر رواة التفسير المأثور ، وفي رواية لغير البخاري وأبي داود منهم ان الرجل قال للنبي اني وجدت امرأة في البستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ماشئت ، فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئا فذهب الرجل فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله بصره فقال « ردوه علي » فردوه فقرأ عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار) الآية . فقال معاذ بن جبل يارسول الله : أله وحده أم للناس كافة ؟ قال « بل للناس كافة » وليس في هذه الرواية أن الآية نزلت في هذه النازلة ، وهنالك روايات أخرى عن معاذ بن جبل وابن عباس في معنى حديث ابن مسعود في الجملة أو

مغزاه وقد سمي الرجل في بعضها بأبي اليسر ، ومنها حديث أبي أمامة عند أحمد ومسلم وأبي داود وغيرهم أن رجلا قال للنبي ﷺ يارسول الله أقم في حد الله — مرة أو مرتين — فأعرض عنه ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ منها قال «أين الرجل ؟» قال أناذا، قال «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟» قال نعم ،قال «فانك خرجت من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » والمراد خرجت من خطيئتك التي طلبت تكفيرها باقامة الحد وهي لا حد فيها، وانما يجب في تكفيرها التوبة والعمل الصالح الذي يزكي النفس ، ومن أعظمها الوضوء التام واقامة الصلاة ، وقد تاب الرجل توبة نصوحا بدليل طلبه اقامة الحد عليه، والتوبة مع العمل الصالح تكفر الصغائر والكبائر إلا حقوق العباد ، فانه يجب أداؤها أو استحلال أهلها منها إن أمكن . وذهب بعض العلماء إلى أن تكفير الحسنات للصغائر لا يشترط فيه التوبة اذا اجتنبت الكبائر ، ويقول الغزالي ان كل نوع من الحسنات يكفر ماهو ضده من السيئات ، كتكفير البخل بالانفاق والاساءة الى الناس بالاحسان الخ

والآيات في تكفير السوء والسيئات المطلقة والمعينة كثيرة ، ومن الثاني كفارات الظهار ومحرمات الاحرام والحنث بالايمان ، وأمثال هذه لا يشترط فيها التوبة ، فذنوبها عارضة ليس من شهوات النفس تكرارها كالفواحش والمنكرات المدنسة للنفس باتباع الهوى والشهوات الباعثة على الاصرار، فهذه لا يطهرها منها ويزكيها الا التوبة وإنما تتحقق التوبة بالندم على فعل الذنب المقتضي لتركه وإزالة أثره من النفس بالعمل الصالح ، فبجملة هذه المعاني الثلاث يحصل الرجوع إلى الله بعد الاعراض والبعد عنه بعصيانه ، وشرح الغزالي هذا المعنى للتوبة بقوله إنها مركبة من علم وحال وعمل كل منها سبب لما بعده ، فالعلم بحرمة الذنب وكونه سببا لسخط الله تعالى وعقابه يوجب الحال أي يحدثه وهو الخوف وألم النفس وهذا يوجب العمل وهو ترك الذنب وتكفيره بالعمل الصالح اه بالمعنى موجزا

وقد تكلمنا على التوبة في مواضع من هذا التفسير منها الكلام على توبة آدم في سورتي البقرة والاعراف ، ومنها في سورة النساء قوله تعالى (٤ : ١٧ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) إلى آخر الآيتين،

ومنها في سورة الانعام (٦ : ٥٤ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) وسيأتي في معناه من سورة النحل (١٦ : ١١٩ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ومثله في سورة طه (٢٠ : ٨٢ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وناهيك بما تقدم في أواخر التوبة من آيات التوبة ولا سيما توبة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ففيها أكبر العبر للمؤمنين المسلمين

١١٥ ﴿ واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي ووطن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيت عنه في هذه الوصايا حق الصلاة كما قال (٢٠ : ١٣٢ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) واستعن بالصبر والصلاة على سائر أعباء الدعوة إلى الاسلام والاصلاح، وانتظار عاقبتها من النصر والفلاح، فان هذا من الاحسان الذي لا جزاء له إلا الاحسان ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين في أعمالهم في الدنيا ولا في الآخرة، بل يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، ولكن للجزاء في أمور الأمم آجالا وأقدارا يجب الصبر في انتظارها ، وعدم استعجالها قبل أوانها .

---

(١١٦) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٧) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٩) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

هذه الآيات الثلاث في بيان سنن الله العامة في اهلاك أولئك الأقوام الذين قص على رسوله قصصهم وأمثالهم، جاءت بعدما تقدم من بيان عاقبتهم في الدنيا والآخرة وانذار قومه ﷺ بهم، وما يجب عليه وعلى من آمن وتاب معه من الاستقامة والصلاح، واجتناب أهل الظلم والفساد، قال

١١٦ ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾ لولا تحضيضية بمعنى هلا، والقرون الأمم والأقوام، والقرن في اللغة كما في المصباح: « الجيل من الناس قيل ثمانون سنة وقيل سبعون » اقول ثم اشتهر تقديره بمائة سنة. والبقية من الشيء ما يبقى منه بعد ذهاب أكثره، ومن الناس كذلك، واستعمل في الخيار والاصلح والانفع، قيل لأن الناس ينفقون في العادة أردأ ماعندهم وأقربه إلى التلف والفساد أولا ويستبقون الأجود فالأجود، ونقول لأن الأحياء يهلك منهم الأضعف فالأضعف أولا ويبقى الأقوى فالأقوى، ومن هذا ما يعرف في علم الاجتماع بسنة الانتخاب الطبيعي، وهو إفضاء تنازع الاحياء الى بقاء الأمثل والاصلح، كما ورد في المثل الذي ضربه الله للحق والباطل بقوله تعالى (١٣: ١٧ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ومن ثم يعبرون عن الخيار بالبقية يقولون: في الزوايا خبايا، وفي الناس بقايا، وبهذا فسرت الآية

والمعنى: فهلا كان أي وجد من أولئك الاقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم في الارض جماعة أصحاب بقية من النهى والرأي والصلاح ينهونهم عن الفساد في الارض وهو الظلم واتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحول نهيهم إياهم دون هلاكهم، فان من سنتنا أن لا نهلك قوما إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم كما يأتي في الآية التالية ﴿إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾ أي لم يكن فيهم بقية من هؤلاء العقلاء الأخيار، الناهين عن المنكر، الآمرين

بالمعروف ، ولكن كان هنالك قليل من الذين أنجيناهم أو هم الذين أنجيناهم مع الرسل منهم، وكانوا منبوذين لا يقبل نهيهم وامرهم ، مهددين مع رسلهم بالطرد والابعاد ، بعد الاذى والاضطهاد ﴿ واتبع الذين ظلموا ﴾ وهم الاكثرون منهم ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أي ما رزقناهم وآتيناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا . يقال أترفته النعمة أي أبطرته وأفسدته ، والبطر الطغيان في المرح وخفة النشاط والفرح ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ أي متلبسين بالاجرام الذي ولده الترف راسخين فيه ، فكان هو المسخر لعقولهم في ترجيح ما أعطوا من ذلك على اتباع الرسل .

روى ابن مردويه في تفسيره عن أبي بن كعب قال أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم « أولوا بقية وأحلام » والأشبه عندي أنه ﷺ ذكر الاحلام تفسيراً لا قرآناً . والمعنى أن العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما في دعوة الرسل عليهم السلام من الخير والصلاح لو لم يمنع من استعمال هدايتها الافتتان بالترف ، والتفنن في أنواعه، بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر الله المنعم به عليه ، فالاتراف هو الباعث على الاسراف والفسوق والعصيان ، والظلم والاجرام ، يظهر في الكبراء والرؤساء ، ويسري بالتقليد في الدهماء ، فيكون سبب الهلاك بالاستئصال، أو فقد الاستقلال ، وذلك قوله تعالى (١٧:١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فهذا بيان لسنته تعالى في الامم قديمها وحديثها ، ولا تغني عن شعوب الافرنج معرفتهم بهذه السنة ومحاولة اتقائهم لها، فحكماؤهم وهم أولو البقية والاحلام الذين ينهونهم عن الفساد في الارض يصرحون بأنهم سيهلكون كما هلك من قبلهم، ولن تغني عنهم قوتهم ، بل تكون هي المهلكة لهم بأيديهم، كما قال تعالى (٧ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) فراجع تفسيرها

ومن عجائب الجهل والغي أن متبعي الاتراف من شعوبنا يقلدون الافرنج

في الاسراف فيه دون ما به يرجو الافرنج اتقاء الهلاك من فساده وهو القوة الحربية وفنون الصناعة، فاذا كان فسق الاتراف يهلك الامم القوية، فكيف تبقى مع اتباعه وفساده الامم الضعيفة؟ وكيف يزول والمتبعون له هم الملوك والامراء، والزعماء والحكام، والكتاب والخطباء، وهم الاكثرون الظاهرون، والناهون عن فسادهم الاقلون الخاملون؟ ثم بين سنته تعالى في إهلاك الأمم ومايحول دونه بقوله

١١٧ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ اي وما كان من شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الامم بظلم منه لها في حال كون أهلها مصلحين في الارض، مجتنبين للفساد والظلم، وانما أهلكهم ويهلكهم بظلمهم وإفسادهم فيها، كما ترى في الآيات العديدة من هذه السورة وغيرها

وفي الآية وجه آخر وهو انه ليس من سنته تعالى أن يهلك القرى بظلم يقع فيها مع تفسير الظلم بالشرك وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية، وأحكامهم المدنية والتأديبية، فلا يبخسون الحقوق كقوم شعيب، ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر كقوم لوط، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود، ولا يذلون لمتكبر جبار يستعبد الضعفاء، كقوم فرعون - بل لا بد أن يضموا إلى الشرك الافساد في الاعمال والاحكام، وهو الظلم المدمر للعمران، ويحتمل أن يراد أنه لا يهلكها بظلم قليل من أهلها لأنفسهم، إذا كان الجمهور الاكبر منهم مصلحين في جل أعمالهم ومعاملاتهم للناس، أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير بن عبدالله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسئل عن تفسير هذه الآية فقال «وأهلها ينصف بعضهم بعضا» وروي موقوفا على جرير (رض)، فتنكير الظلم في هذا للتقليل والتحقير، وفيما قبله للتعظيم، وهو مأخوذ من قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والآية تدل على أن إهلاك المصلحين ظلم فلذلك يتنزه الله عنه

وذكر المفسرون في الوجه الثاني القول المشهور المعبر عن تجارب الناس، وهو

أن الامم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، والاوجه الثلاثة في الآية صحيحة ويجوز إرادتها كلها على القول بأن جميع ما يدل عليه الكلام مما شأن صاحبه أن يعلمه ولا يكون متعارضا في نفسه يصح أن يكون مراداً له، وإن كان من المشترك أو كان بعضه حقيقة وبعضه مجازاً، ومن أركان بلاغة القرآن جمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، وأن يكون بعضها واضحاً في هذه المعاني وبعضها خفيا يراد به أن يذهب الذهن والفكر فيه كل مذهب، وهذا مما يتنافس فيه البلغاء

١١٨ ﴿ولو شاء ربك﴾ أيها الرسول الحريص على إيمان قومه الآسف على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته، واتباع هدايته ﴿لجعل الناس أمة واحدة﴾ على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا رأي لهم فيه ولا اختيار، وإذن لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى بالبشر وبنوع الانسان، بل لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله عز وجل، فلا يقع بينهم اختلاف، ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته كاسبين للعلم لا ملهمين، وعاملين بالاختيار وترجيح بعض الممكنات المتعارضة على بعض لا مجبورين ولا مضطرين، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم واختلاف الاختيار، وقد كانوا في طور الطفولة النوعية في الحياة الفردية والزوجية والاجتماع البدوي الساذج أمة واحدة لا مثار للاختلاف بينهم، ثم كثروا ودخلوا في طور الحياة الاجتماعية فظهر استعدادهم للاختلاف والتنازع فاختلفوا، كما قال تعالى (١٠: ٢٠ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) في كل شيء بالتبع لاختلاف الاستعداد ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في كل شيء حتى الدين الذي شرعه الله لتكميل فطرتهم وإزالة الاختلاف بينهم ﴿إلا من رحم ربك﴾ منهم فاتفقوا على حكم كتاب الله فيهم، وهو القطعي الدلالة منه الذي لا مجال للاختلاف فيه، وعليه مدار جمع الكلمة ووحدة الامة، إذ الظني لا يكلفون الاتفاق على معناه لانه موكول إلى الاجتهاد الذي لا يجب العمل به إلا على من ثبت عنده رجحانه، وتقدم تفصيل وحدة البشر فاختلافهم فبعثة النبيين وانزال الكتاب معهم للحكم بين الناس في

الآية (٢١٣:٢) وتفسيرها في الجزء الثاني من هذا التفسير ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ أي ولذلك الذي دل عليه الكلام من مشيئته تعالى فيهم خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم ، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم ، ومن ذلك الدين والايمان والطاعة والعصيان ، وحكمته أن يكونوا مظهراً لأسرار خلقه المادية والمعنوية في الاجسام والارواح وسننه في الاحياء ، وتعلق قدرته ومشيئته بخلق جميع الممكنات، وبهذا كانوا خلفاء الارض (وعلم آدم الاسماء كلها) وقال الحسن وعطاء خلقهم للاختلاف ، وقال مجاهد وعكرمة خلقهم للرحمة ، وقال ابن عباس خلقهم فريقين : فريقا يرحم فلا يختلف، وفريقا لا يرحم فيختلف، فذلك قوله (فمنهم شقي وسعيد) وهذا أصح مما قبله لانه جامع للقولين، وفي معناه قول مالك بن أنس وقد سأله أشهب عن الآية فقال : خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير اه أي كان الاختلاف سبب دخول كل من الدارين، وفي الرواية عن ابن عباس تقديم المعلول على العلة ، والمعقول المشروع عكسه، فالترتيب في الجزاء أن يقال: فريق اتفقوا في الدين فجعلوا كتاب الله حكما بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله بوقايتهم من شر الاختلاف وغوائله في الدنيا ومن عذاب الآخرة، وفريق اختلفوا فيه كما اختلفوا في مصالح الدنيا ومنافعها وسلطانها فكان بأسهم بينهم شديداً فذاقوا عقاب الاختلاف والشقاق في الدنيا وأعقبهم جزاءه في الآخرة فكانوا محرومين من رحمته بظلمهم لانفسهم لا بظلم منه لهم ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ التي قالها في غير المهتدين

﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أي من عالمي الانس والجن الذين لا يهتدون بما أرسل به رسله وأنزل معهم كتبه لهداية المكلفين والحكم بين المختلفين، ففي سورة ألم السجدة (١٣:٣١ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم) الآية ، فهذا فريق السعير ، ومنه يعلم جزاء الفريق الآخر ، والمقام يقتضي الانذار

(١٢٠) وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢١) وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢٢) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٣) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

هذه الآيات الاربع خاتمة هذه السورة وهي في بيان ما أفادت رسول الله وخاتم النبيين ﷺ من أنباء أشهر الرسل الاولين مع أقوامهم في نفسه، وما تفيده المؤمنين بما جاء به، وما يجب أن يبلغه غير المؤمنين به من الانذار والتهديد لهم، والاشارة الى ما ينتظره كل فريق، وان عاقبته له لا لهم. ثم أمره بعبادته والتوكل عليه، وعدم المبالاة بما يعملون من عداوته والكيد له، قال تعالى:

١٢٠ - ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ﴾ أي وكل نوع من أنباء الرسل نقص عليك ونحدثك به على وجهه الذي يعلم من تتبعه واستقصائه به، فان معنى القص في الاصل تتبع أثر الشيء للاحاطة به، ومنه (وقالت لأخته قصيه) ثم قيل قص خبره اذا حدث به على وجهه الذي استقصاه، والنبأ الخبر المهم، فهذه الكلية تشمل أنواع الانباء المفيدة من قصص الرسل الصحيحة في صورها الكلامية وأساليبها البيانية، وأنواع فوائدها العلمية، وعبرها ومواعظها النفسية، دون الامور العادية المستغنى عن ذكرها، كالتي تراها في سفر التكوين الذي يعدونه من التوراة وأمثاله ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ أي نقص منها عليك ما نثبت به فؤادك، أي نقويه ونجعله راسخا في ثباته كالجبل في القيام باعباء الرسالة

ونشر الدعوة بما في هذه القصص من زيادة العلم بسنن الله في الاقوام، وماقاساه رسلهم من الايذاء فصبروا صبر الكرام ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ اي في هذه السورة ـ وهو المروي عن ابن عباس وابي موسى الاشعري من الصحابة وسعيد ابن جبير والحسن البصري من التابعين وعليه الجمهور ، ـ وقيل في هذه الأنباء المقتصة عليك ـ بيان الحق الذي دعا اليه جميع أولئك الرسل من أصل دين الله وأركانه وهو توحيده بعبادته وحده واتقائه واستغفاره والتوبة اليه وترك ما يسخطه من الفواحش والمنكرات والظلم والاجرام والايمان بالبعث والجزاء والعمل الصالح ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ الذين يتعظون بما حل بالامم من عقاب الله ويتذكرون مافيها من عاقبة الظلم والفساد ، ونصره تعالى لمن نصره ونصر رسله، فالمؤمنون هنا يشمل من كانوا آمنوا بالفعل ، والمستعدين للايمان الذين آمنوا بهذه الموعظة والذكرى كالذين آمنوا بعد، وفي هذه الآية من اعجاز الايجاز ، ما يناسب اعجاز تلك القصص التي جمعت فوائدها بهذه الكلمات

١٢١ ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ أي فبشر به المؤمنين الذين يتعظون ويتذكرون، وقل للكافرين الذين لا يؤمنون فلا يتعظون : اعملوا على ماقي مكنتكم أو تمكنكم واستطاعتكم من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعي والمستجيبين له، وهذا الامر للتهديد والوعيد ، أي فسوف تلقون جزاء ما تعملون من العقاب والخذلان ﴿ إنا عاملون ﴾ على مكانتنا من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته ﴿ وانتظروا ﴾ بنا ما تتمنون لنا من انتهاء أمرنا بالموت أو غيره مما تتحدثون به ، ومنه ما حكاه تعالى عنهم في قوله (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وما في معناه ﴿ إنا منتظرون ﴾ ماوعدنا وبنا من النصر وظهور هذا الدين كله ولو كره الكافرون،

وإتمام نوره ولو كره المشركون ، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين

١٢٢ ﴿ ولله غيب السموات والارض ﴾ أي وله وحده ماهو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، مما تنتظر من وعد الله لك ووعيده لهم ، ومما ينتظرون من أمانيهم وأوهامهم ، فهو المالك له المتصرف فيه، العالم بما سيقع منه وبوقته الذي يقع فيه ﴿ واليه يرجع الامر كله ﴾ فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، قرأ الجمهور «يرجع» بفتح الياء وكسر الجيم ، ونافع وحفص بضم الاولى وفتح الثانية ، والمعنى واحد ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ أي واذا كان له كل شيء ، واليه يرجع كل أمر، فاعبده كما أمرت باخلاص الدين له وحده من عبادة شخصية قاصرة عليك، ومن عبادة متعدية النفع لغيرك، وهي الدعوة إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وتوكل عليه ليتم لك وعليك ما وعدك بما لا تبلغه استطاعتك، فالتوكل لا يصح بغير العبادة، والاخذ بالاسباب المستطاعة، وانما يكون بدونهما من التمني الكاذب والآمال الخادعة ، كما أن العبادة وهي ما يراد به وجه الله من كل عمل لا تكمل إلا بالتوكل الذي يكمل به التوحيد، قال(ص) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد بن أوس بسند صحيح ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ جميعاً : ماتعمله انت أيها النبي والمؤمنون من عبادته والتوكل عليه، والصبر على أذى المشركين ، وتوطين النفس على مصابرتهم وجهادهم ، فهو يوفيكم جزاءه في الدنيا والآخرة ، وما يعمله المشركون من الكفر والكيد لكم ، وهذه قراءة نافع وحفص، وقرأ الجمهور (يعملون) بالتحتية ، وهي نص في وعيد المشركين وحدهم بالجزاء على جميع أعمالهم ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده محمداً رسول الله وخاتم النبيين ، فالحمد لله رب العالمين

(تم تفسير السورة التفصيلي ويليه خلاصته الاجمالية)

الخلاصة الاجمالية لسورة هود عليه السلام

(وفيها ستة أبواب)

هذه السورة أشبه السور بسورة يونس التي قبلها في أسلوبها وما اشتملت من أصول عقائد الاسلام التي بيناها في خلاصتها من التوحيد والبعث والجزاء والعمل الصالح وعاقبة الظلم والفساد في الارض، وحجج القرآن واعجازه والتحدي به، واثبات نبوة محمد ﷺ وقصص الرسل عليهم السلام وسنن الله في الامم، ومناسبتها في براعة المطلع والمقطع كما بيناه في فاتحة هذه - ولكن في تلك من التفصيل في محاجة المشركين في التوحيد والقرآن والرسالة ما أجمل في هذه، وفي هذه من التفصيل في قصص الرسل ما أجمل في تلك. لهذا نختصر في خلاصتها الاجمالية فيما عدا قصص الرسل والبعث والجزاء وعاقبة الاقوام في الدنيا والآخرة فنقول:

(الباب الاول)

(في توحيد الله تعالى وصفاته وتدبيره لأمور عباده وسننه في تصرفه فيهم بالرحمة والفضل، وجزائهم على أعمالهم بالعدل، والتنزه عن الظلم وفيه ثلاثة فصول:

(الفصل الاول في توحيد الربوبية والالوهية)

(١) توحيد الالهية

هو أول مادعا اليه محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ وأول مادعا اليه جميع من قبله من رسل الله عز وجل، أعني عبادة الله وحده، وعدم عبادة شيء غيره أو معه، كما تراه بعد افتتاح السورة بذكر القرآن من خطابه تعالى لقومه وأمته بقوله في الآية الثانية (ألا تعبدوا إلا الله) ومثله أول مادعا اليه نوح عليه السلام في الآية (٢٦) منها، وفي معناه أول ما دعا اليه هود في الآية (٥٠) وصالح في الآية (٦١) وشعيب في الآية (٨٤) (قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

وان أكثر الذين يقرءون القرآن أو يسمعونه وهم يأخذون عقائدهم المشوبة بالوثنية من تقاليد آبائهم الجاهلين لا من القرآن يظنون أن المراد بالعبادة في هذا الامر والنهي عبادة الاسلام المنزلة من الصلاة والصيام ونحوهما مما جاء به أولئك الرسل ايضا ، لأنهم يجهلون أن دعوتهم هذه هي أول ما وجهوه إلى المشركين غير المؤمنين بهم، قبل فرضية العبادات المنزلة عليهم، نهوهم بها عن عباداتهم الوثنية التقليدية وهي دعاء غير الله لجلب النفع وكشف الضر ، والذبح لغير الله ، والنذر لغير الله ، وشد الرحال لتعظيم غير الله تعظيما تعبديا يتقربون به إلى غير الله ليقربهم إلى الله ، ويشفع لهم عنده، ويظنون أن المراد بغير الله من هذه المعبودات خاص بالاصنام كما يرون تفسيرها في مثل الجلالين ، وان دعاء الانبياء والاولياء لدفع الضر وجلب النفع والنذور وتقريب القرابين لهم لا ينافي دين الله وتوحيده على هذا التفسير.

والصواب المجمع عليه المعلوم من دين الاسلام بالضرورة ونصوص القرآن القطعية أنه لا فرق في عبادة غير الله بمثل ما ذكرنا بين الاصنام وغيرها من حجر وشجر وكوكب ، أو بشر ولي أو نبي ، أو شيطان أو ملك ، إذا توجه العبد اليها توجها تعبديا ابتغاء نفع أو كشف ضر في غير العادات والاسباب التي سخرها الله لجميع الناس ، فعبادة الملك أو النبي أو الولي كفر كعبادة الشيطان أو الوثن والصنم بغير فرق ، اذ كل ما عدا الله فهو عبد وملك لله، لا يتوجه اليه مع الله ولا من دون الله ، ولا لاجل التقريب زلفى إلى الله ، بل يتوجه في كل ماسوى العادات العامة إلى الله وحده كما أمر الله ابراهيم ومحمداً ﷺ في كتابه ، ولا فرق في هذا التوجه بين تسميته عبادة كما كانت العرب تقول وهي أعلم بلغتها ، وبين تسميته توسلا أو استشفاعا كما فعل بعض المتأخرين ، فالمعنى واحد لا يختلف حكمه باختلاف أسمائه

(٢) توحيد الربوبية

الاله هو المعبود الذي يتوجه بالدعاء والتأله والخشوع الخاص بالايمان بالسلطان الغيبي ، والرب هو الخالق المربي والمدبر لعباده والمتصرف فيهم بذاته ، ومقتضى حكمته ونظام سننه ، وتسخيره الاسباب لمن شاء بما شاء ، وكان أكثر

مشركي العرب ومن قبلهم من أقوام الانبياء يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد، وإنما يقولون بتعدد الآلهة التي يتقرب اليها توسلا إلى الله وطلباً للشفاعة عنده، وكانت الانبياء والرسل تقيم الحجة عليهم بأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الالوهية، إذ العبادة لا تصح ولا تنبغي إلا للرب وحده، وآيات القرآن في هذا كثيرة جداً

تأمل كيف خاطب الله أمة خاتم النبيين في الآية الثانية من هذه السورة بعبادته وحده، وفي الآية الثالثة عقبها باستغفار ربهم والتوبة اليه من كل ذنب ليمتعهم متاعا حسنا ويؤتي كل ذي فضل فضله، وتجد مثل هذا في قصة هود (٥٢) وفي قصة شعيب (٩٠) وتأمل كيف بين لنبيه في الآيتين ٦ و٧ أنه مامن دابة في الارض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، وانه هو الذي خلق السموات والارض الخ والمراد أن العبادة لا تصح ولا تنبغي إلا له سبحانه

ثم تأمل كيف أخبر نوح وهو أول الرسل قومه وهم أول من ابتدع الشرك بالغلو في تعظيم الصالحين في الآية (٣١) بأنه ليس عنده خزائن الله فيقدر على رزقهم أو نفعهم، وانه لا يعلم الغيب ولا يقول إنه ملك يتصرف في تدبير العالم باقدار الله اياه على ذلك كما فعلوا اذ صاروا يدعون غير الله من المقربين عنده والمقربين اليه بزعمهم، وتقدم مثلها عن نبينا ﷺ في الآية (٥٠) من سورة الانعام وفي معناها من سورة الاعراف (٧ : ١٨٧) ومن سورة يونس (١٠ : ٤٩)

ثم تأمل في قصة هود آية (٥٦ اني توكلت على الله ربي وربكم) الخ وفي معناه توكل شعيب في الآية (٨٨) ثم ختم السورة بأمر نبينا صلوات الله وسلامه عليه بقوله (١٢٣ ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه) فجمع بين العبادة وهي أعلى توحيد الالوهية، والتوكل وهو أعلى توحيد الربوبية، ونعزز هذه الشواهد بما يأتي عن الرسل (ع . م) في الباب الثالث ولاسيما الفصل الثالث منه

الفصل الثاني في صفاته تعالى

في السورة من صفات الذات والافعال : الحكيم الخبير العليم القدير الوكيل الغفور الرحيم الحفيظ القريب المجيب القوي العزيز الرقيب الودود البصير ، فمنها ماوصف به تعالى مفرداً وما وصف به مقترنا بغيره ، وما اتصل بمتعلقه ، ولكل منها أتم المناسبة لموضوعه في موضعه مما يذكر المتدبر له بتدبيره تعالى لأمور عباده ، ويزيده إيمانا بمعرفة جلاله وجماله ، وكماله في صفاته وأفعاله ، ورحمته وإحسانه للمحسنين ، وتربيته وعقابه للمجرمين والظالمين ، وحسبك شاهداً عليه في نفسك تدبر إحاطة علمه تعالى بما تسر وتعلن في الآية الخامسة (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألاحين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) فلا تغفلن عن هذه المعاني أيها التالي للقرآن أو المستمع له فيفوتك من العرفان وغذاء الايمان ، ما أنت في أشد الحاجة اليه لتزكية نفسك ، التي هي أقرب الوسائل لفلاحك وسعادتك ، فان تأمل هذه الاسماء في مواضعها من بيان شئونه تعالى في العباد أقوى تفقيها في الدين وتكميلا للعرفان من تكرار الاسم الواحد مراراً كثيرة كما يفعل المتصوفة المرتاضون ، ومقلدتهم المرتزقون ، وهو غير مشروع خلافا لما زعمه المتأولون لقوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) فاسم الجلالة هنا مبتدأ لجملة في جواب سؤال حذف خبره لدلالة ما قبله عليه وهو قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) الخ والمعنى : قل الله هو الذي أنزله ، فهو ليس اسما مفرداً يكرر تعبداً

ومثله تأولهم لحديث « لاتقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله » رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس ، ولفظ الجلالة فيه مرفوع على أنه مبتدأ حذف خبره للعلم به من القرينة ، والمعنى حتى لا يقال : الله فعل كذا ، الله أمات وأحيا مثلا ، لذهاب الايمان به تعالى . والاسم المفرد في ذكرهم يكررونه بالسكون لا يقصد به معنى جملة ، وإنما يقصد به حصر التوجه وجمع الهمة بما جربه الرياضيون ، وجهله المقلدون

﴿ الفصل الثالث آياته تعالى في الخلق والتقدير ، والتصرف والتدبير ﴾

(وفيه أربعة شواهد على ماقبله)

(ش١) قوله تعالى بعد آية توحيد العبادة للاله الواحد استدلالا عليه بتوحيد الربوبية (٣ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا) الخ فهو صريح في أن رب الناس هو الذي يعطيهم مايتمتعون به من منافع الدنيا المادية الجسدية ، وما يفضل به بعضهم بعضا من الفضائل النفسية من علم وأدب وخلق ، وأن الوسيلة لهذا وذاك بعد الايمان بوحدانيته ولقائه في الآخرة هي استغفاره من كل ذنب ، والتوبة من كل تقصير في طاعته ، والرجوع اليه عقب كل إعراض عن آيات هدايته ، ليس لغيره تأثير شخصي في إعطاء هذا ولا ذاك بتصرفه بنفسه ، ولا بشفاعته عنده ، فيدعى من دونه أو يتوجه اليه معه في طلبه ، ومن راقب نفسه وحاسبها في هذا شاهد تأثيره في نفسه ، فازداد إيمانا بربه ، وشاهده في غيره من الموحدين المستغفرين التوابين ، وضده في المشركين والمصرين على ذنوبهم وجرائمهم ، فانه يرى أكثر هؤلاء متاعا في همّ واصب ، وتنغيص دائب ، لان سعادة الدنيا من صفات النفس ، لا من كثرة الاعراض في اليد

ولهذا كان رسل الله الاولون يأمرون أقوامهم بعد التوحيد بالاستغفار والتوبة أيضا كما ترى في الآية (٥٢) من قصة هود وقد جعل جزاءه إرسال المطر عليهم وهو سبب سعة الرزق ، وزيادة القوة البدنية لهم ، اذ كان هذان أهم مايطلبه قومه من ربهم ، ويتوسلون الى مايعجزون عنه منه بآلهتهم ، وفي الآية (٦١) من قصة صالح وقد بنى الامر فيها على ماسبق من فضله تعالى على قومه بسعة الرزق واستعمارهم في الارض ، وفي معناها الآية (٩٠) من قصة شعيب عليهم السلام

(ش٢) قوله تعالى (٦ وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) الآية ـ أي عليه وحده فانه لم يشاركه في خلق رزق هوامها وأنعامها وطيرها ووحشها وإنسها وجنها أحد من الانداد الذين اتخذهم المشركون ، ولا يشاركه أحد منهم في تسخير هذا الرزق لها ، ولا في ايصاله اليها بشفاعة ولا وساطة أخرى بينه وبينها ،

فلذلك لم يشرك به أحد منها ولا من غيرها من خلقه غير بعض الانس والجن المكلفين

(ش٣) قوله بعدها وهو دليل على مضمونها (٧ خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) الآية. أي خلقهما وما كان يوجد معه أحد من هؤلاء الشفعاء والاولياء المزعومين، فهو غني عنهم الآن وفي كل آن، كما كان غنيا عنهم عند بدء التكوين، وراجع ما فصلناه في تفسيرها من خلق كل شيء حي من الماء، تر فيه من عجائب قدرته وحكمته ما يربأ بكل عاقل أن يجعل له وسيطا بينه وبين خلقه من هذا الانسان الضعيف كما وصفه خالقه القوي القدير

(ش٤) الآيات (٩ و ١٠ و ١١) في بيان أحوال الناس فيما يذيقهم ربهم بحكمته من البأساء والضراء، في هذه الحياة الدنيا دار البلاء، وأصنافهم فيها من يائس كفور، وفرح فخور، وصبور شكور، فبهذا التقسيم المشهود المخبور، تعرف توحيد الله تعالى وفضله على المؤمنين الموحدين، وجدارتهم بسعادة الدارين، واستحالة أن يكون له شريك في فضله عليهم، أو وسيط في نعمه وتكريمه لهم

الباب الثاني

(في الوحي المحمدي «القرآن العظيم» وإثبات رسالته ﷺ به، وفيه سبع مسائل)

(م الاولى) افتتح هذه السورة كالتي قبلها بذكر هذا الكتاب العظيم، وإحكام آياته ثم تفصيلها من لدن حكيم خبير، إعلاما بأن إحكامها مبني على أساس الحكمة، وتفصيلها مرفوع على قواعد العلم ودقة الخبرة

(م الثانية) قوله تعالى (١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) يعني ان حالك أيها الرسول مع هؤلاء المنكرين المقترحين عليك ما ليس أمره اليك، حال من يتوقع منه ترك بعض ما يثقل عليهم من الوحي، وضيق صدره من ذلك القول، فلا تترك شيئا مما يوحى اليك، ولا يضق به صدرك، إنما أنت رسول وظيفتك التبليغ والانذار، لا الاتيان بالآيات، ولا الوكالة عليهم فتكرههم على الايمان

(م الثالثة) الرد في الآية (١٣) على قولهم «افتراه» بتحديهم بالاتيان بعشر سور مثله مفتريات، ودعوة من استطاعوا من دون الله لمظاهرتهم وإعانتهم على الاتيان بها إن كانوا صادقين . وقد بينا في تفسيرها معنى هذا التحدي بالعشر المفتريات بعد ماسبق في سورة يونس من التحدي بسورة واحدة ، وهو ما لا تجد مثله في تفاسير الاولين ولا الآخرين، والحمد لله رب العالمين ، وفيه إثبات أن المراد بهذه السور ما اشتمل على قصص الرسل ، وان في إعجاز هذه القصص بالبلاغة والاساليب والنظم والعلم ماليس في غيرها ، وحكمة جعلها عشراً ،وما في العشر من هـذه السورة وما قبلها من أنواع العلم والهدى والاصلاح ، فراجعه (في ص ٣١ — ٤٦)

(م الرابعة) قوله (١٤ فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما انزل بعلم الله) وبينا في تفسيره معنى إنزاله بعلم الله وكونه حجة على ما فسرنا الاعجاز فيها وقد غفل عنه المفسرون

(م الخامسة) قوله (٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا)وهو استدلال بقصة نوح على رسالة النبي ﷺ ووجه الدلالة انه ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل إنزالها عليه في هذا الوحي الالهي، ولو كان أحد من قومه يعلمها قبل ذلك لاحتجوا به عليه ، وإذن لامتنع إيمان من لم يكن آمن منهم ، ولارتد من كان آمن

(م السادسة) قوله تعالى (١٠٠ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) الآية ، وفيه الاستدلال بجملة قصص السورة على كونها وحياً من وجهين أحدهما ما في المسألة الخامسة من كونهما لم يكن علمه محمد النبي الامي ﷺ وثانيهما ما اشتملت عليه من العلم الالهي والاجتماعي والتشريعي الذي فصلناه في بيان التحدي بالعشر السور من عشر جهات

(م السابعة) قوله تعالى (١٢٠ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) الآية وهي في موضوع التي قبلها من فوائد قصص الرسل الا أن تلك في فوائدها الاجتماعية في الامم واهلاك الظالمين ،وانجاء المتقين ، وهذه في فوائدها الخاصة بالرسول ﷺ في نفسه وتأييد دعوته ، وفي المؤمنين به من قومه

فهذه جملة ما في السورة خاصا بالقرآن العظيم من حيث كونه وحيا من الله تعالى دالا على نبوة محمد ﷺ ورسالته ، وقد فصلنا معنى كل منها في موضعه

الباب الثالث

في الرسالة العامة وقصص الرسل مع أقوامهم وفيه ستة فصول

الفصل الاول في رسالة محمد (ص)

بدئت السورة بدعوة هذه الرسالة من أولها إلى الآية ٢٤ وهي متضمنة لأصول دين الله (الاسلام) على ألسنة جميع الرسل وهي التوحيد والبعث والجزاء والعمل الصالح، المبينة في الآية (٢: ٦٢) وسأذكرها في أول الفصل التالي لهذا، ومتضمنة لاعجاز القرآن بقسميه اللغوي والعلمي ، وقد فصلناه بفضل الله وإلهامه بما لا نظير له في سائر التفاسير ، ثم ختمت بمثل ما تضمنته أوائلها من الآية (٩٩ الى ١٢٣) فالتقى قطراها واحتبك طرفاها ، فأحاطا بالقصص التي بينهما مؤيدة لها ، وذكر في أثنائها برهان على رسالته ﷺ في آخر قصة نوح (ع . م) وهو الآية (٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك) الخ ولعل حكمة تخصيص هذا بالذكر ما في هذه القصة من زيادة التفصيل والتأثير ببلاغته الممتازة ، وإلا فسائر هذه القصص من أنباء الغيب ودلائل اعجاز القرآن ، كما أشير اليه في الآية (١٠٠) وهي المقصودة بالذات ، فيسهل على المتفقه في القرآن أن يراجع تفسير هذه الآية مضمومة إلى كلامنا المفصل في إعجازه بقسميه المشار اليه آنفا من ص ٣١ إلى ٤٧ — وأن يتأمل الآيات الاربع والعشرين من أول السورة والآيات الخمس والعشرين من آخرها ، ليحيط بما في السورة من علوم رسالة خاتم النبيين علما إجماليا

وأما بيان أنواعها مفصلة في السورة فيراها في الفصول التالية من هذا الباب وفي الابواب التي بعدها ويفقه سر افتتاحها بقوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وجعله عنوانا لها

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في الهداية الاجمالية في قصص السورة وأصول الدين الثلاثة التي دعا اليها جميع الرسل)

قد بينا في الكلام على إعجاز القرآن العلمي الذي فصله في قصص الرسل (ع م) وتكرارها أنها مشتملة فيه على عشرة أنواع كلية من العلم والهداية فراجعها أيها المتدبر المتفقه في الصفحة ٤١ — ٤٣ وتأملها إجمالا ، ثم تأمل ما في هذه السورة منها في الفصول التالية

وأما أصول الدين فهي المجملة في قول الله تعالى (٢ : ٦٢) ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

(الاصل الاول) الايمان بالله تعالى وقد بينا في الباب الاول شواهده من قصص السورة كلها

(الاصل الثاني) الايمان باليوم الآخر وهو البعث والجزاء وسيأتي تفصيله في الباب الرابع

(الاصل الثالث) العمل الصالح وهو قسمان ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه على ألسنة رسله (ع م) بعد الامر بالتوحيد والنهي عن الشرك. وقد ذكر العمل الصالح باللفظ المجمل الدال على كل ماتصلح به أنفس البشر في موضعين من هذه السورة (الاول) قوله بعد بيان قسمي اليئوس الكفور والفرح الفخور من الناس (١١ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) الآية. (الثاني) قوله بعد ذكر الذين خسروا أنفسهم (٢٣ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وفي معناها الاحسان في قوله (٧ ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقوله (١١٥ إن الحسنات يذهبن السيئات)

وأما الاوامر والنواهي المفصلة فهي من خصائص السورة المدنية ونذكر ما هنا من أصولها في الباب الخامس

﴿ الفصل الثالث ﴾

(في وظيفة الرسل الاساسية وصفاتهم وبيناتهم وفيه تسع مسائل أو عقائد)

(الاولى وظيفة الرسل الاساسية) هي ما بعثهم الله لاجله من تبليغ رسالته بانذار من تولى عن الايمان وعصى، وتبشير من أجاب الدعوة فآمن واهتدى ، والشواهد عليها من هذه السورة قوله تعالى في دعوة رسوله خاتم النبيين (٢) إنني لكم منه نذير وبشير) وقوله له (١٢) إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) ومثل هذا الحصر في القرآن كثير ، وقوله حكاية عن نوح (ع . م) وهو أول رسله الى الاقوام المشركة (٢٥ إني لكم نذير مبين) وقوله حكاية عن رسوله هود (ع . م) ٥٧ فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم)

وموضوع التبليغ هو الدعوة إلى أركان الدين الثلاثة المبينة آنفا وعليها مدار سعادة المكلفين في الدنيا والآخرة، وكلها مبطلة لما كان عليه أقوامهم المشركون من أن بينهم وبين الله تعالى وسائط منهم أو من غيرهم من خلقه يقربونهم اليه بجاههم الشخصي، ويقضون حوائجهم من جلب نفع أو دفع ضر بشفاعتهم لهم عنده ، أو بتصرفهم في خلقه بما خصهم به من خوارق العادات ، إلا ما جعله من آياته دليلا على صدقهم في دعوى الرسالة ، كابراء عيسى عليه السلام الاكمه والابرص واحيائه الموتى باذن الله له ، بأن دعاه في ذلك فاستجاب له وسيأتي بيانه

(الثانية أنهم بشر مرسلون) أي لايملكون من أمور العالم شيئا مما هو فوق كسب البشر غير ما خصهم الله به من الرسالة دون شئون ربوبيته أو ما خص به ملائكته، حتى انهم لايملكون هداية أحد إلى الدين بالفعل لان هدايتهم خاصة بالتبليغ والتعليم كما تقدم آنفا ، وحكاية نوح مع ابنه الكافر حجة في هذا الموضوع واضحة، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

و (منها) في هذه السورة ما علمت من آيات توحيد الربوبية ، والرد على مشركي مكة في اقتراحهم مجيء الملك بقوله تعالى (١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما

أنت نذير والله على كل شيء وكيل) وقوله حكاية عن نوح (٣١ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إني ملك) وتقدم ما في معناه عن خاتم النبيين ﷺ قريبا ، وفي معناه آيات كثيرة في السور الاخرى

(ومنها) في احتجاج المشركين على رسلهم بأنهم بشر في قصة نوح (٢٧ فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشراً مثلنا) وقد قال مثل هذا سائر أقوام الرسل بعده إلى خاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين

ولو كان أولئك الرسل في عصرهم على غير ما يعهد أقوامهم من البشر ، بأن كانوا يتصرفون في الكون بالضر والنفع وعلم الغيب لما احتجوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما يدعي الذين ضلوا من أقوامهم من بعدهم عما جاؤا به مع دعوى اتباعهم ، فزعموا انهم هم وبعض من وصفوا بالصلاح والولاية من أتباعهم يضرون وينفعون ، ويُشقون ويُسعدون ، ويميتون ويحيون : أحياؤهم وأمواتهم في هذا سواء ، بل يزعمون انهم أحياء في قبورهم حياة مادية بدنية يأكلون فيها ويشربون ، ويسمعون كلام من يدعوهم ويستغيث بهم ، ويستجيبون دعاءهم فيها ، وقد يخرجون من قبورهم فيقضون حوائجهم في خارجها ، يخالفون بهذا الدعاوى مئات من آيات القرآن المحكمات في التوحيد وصفات الربوبية ، وفي صفات الانبياء وكونهم بشراً لا يقدرون على شيء مما لا يقدر عليه البشر ، وأن النبوة والرسالة وآياتها ليست من كسبهم ، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فيما ورد فيه من بعض أنباء الغيب في حياة الشهداء البرزخية ، فيقيسون عليها بأهوائهم حياة أوليائهم رجما بالغيب وافتراء على الله ، وحسبنا هنا التذكير بما امر الله نبينا ان يرد به على الذين سألوه بعض الآيات الكونية (قل سبحان ربي : هل كنت الا بشرا رسولا ؟)

(الثالثة بيناتهم وآياتهم) ما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وجاءهم ببينة على صدقه في دعواه من حجة عقلية وآية كونية ، وكانت تشتبه على عامتهم الآيات الكونية بالسحر لانهم يرون ان كلا منها أمر غريب لا يعرفون سببه ، ويرونه من الدجالين والمرتزقة ، وكان المهتدون هم الذين يميزون بين الفريقين بالبينات العقلية ، والهداية الخلقية والعملية ، وكذلك الجاحدون المعاندون منهم

بينت لنا هذه السورة ان كل رسول كان يحتج ويستدل على قومه بأنه على بينة من ربه ، وليس فيها ولا في غيرها أن كلا منهم تحدى قومه بآية كونية كما تحدى موسى فرعون وملأه وكما تحدى محمد قومه والانس والجن معهم، ومن استطاعوا ليظاهروهم على معارضة القرآن بمثله في مزايا إعجازه العامة الظاهرة في كل سورة منه، ومزايا إعجازه المكررة في عشر سور مما ادعوا افتراءه منه ، ثم انه بعد التحدي بعشر مثله مفتريات في الآية (١٣) من هذه السورة ، وبعد تقرير عجزهم عن المعارضة في الآية (١٤) قال في تقرير الحجة العقلية والنقلية التاريخية (١٧ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة)

ثم قال في حجة نوح (٢٨ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم) الآية، وحكى عن قوم هود أنهم (٥٣ قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)ولكنه كذبهم بعد ذلك بقوله عز وجل(٥٩ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) الآية

ثم قال في قصة صالح (٦٣ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة) الآية ، وذكر بعدها آيته الكونية التي أنذرهم العذاب بها فقال (٦٤ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) الخ ثم قال في قصة شعيب (٨٨ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا)الآية ثم قال (٩٦ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ٩٧ إلى فرعون وملائه) الآية

ومن المعلوم القطعي أن هذه الآيات وغيرها ليست من أعمال أولئك الرسل وكسبهم ولا في حدود استطاعتهم، فآية خاتمهم الكبرى هي كلام الله عز وجل كان ﷺ عاجزا عن الاتيان بسورة مثله بعد النبوة فعجزه قبلها أظهر، وناقة صالح لم تكن من خلقه ولا كسبه ، ولما رأى موسى آيته الكبرى وهي العصا إذ ألقاها فاذا هي حية تسعى ، ولى مدبرا خائفا منها ، كما ترى في سورتي النمل والقصص

وأما آيات عيسى التي أسند اليه فعلها فقد صرح القرآن بأنها كانت باذن الله تعالى وإرادته ، وفي رسائل الاناجيل المتداولة أنه كان يدعو الله تعالى ويتضرع اليه بطلبها ليؤمنوا به ويعلموا أنه يستجيب له ، وقد قال اليهود انها سحر مبين،

وأهل هذا العصر يوردون عليها شبهات من غرائب صوفية الهنود وغيرهم من الروحانيين ، كما بيناه في كتاب الوحي المحمدي ، وبينا أن آيات موسى كانت أعظم منها مظهرا ، وأدل على قدرة الله تعالى وتأييده له ، لايمان أعلم علماء السحر بها ، ولم تكن فتنة للناس بموسى كما كانت تلك فتنة للناس بعيسى إذ اتخذوه بها إلها ، فالذين فتنوا وضلوا بخوارق العادات الصورية من الاولين والآخرين ، أضعاف أضعاف الذين اهتدوا بالحقيقي منها ، فان الملايين من مدعي اتباع عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام يتبعون الدجالين المدعين للتصرف في الكون بأنفسهم أو باستخدامهم للجن ، وسدنة قبور الاولياء والقديسين الذين يدعون التصرف لمن تنسب اليهم ، وكل هؤلاء يجهلون حقيقة الايمان الذي بعث الله به جميع رسله ووظيفة رسالاتهم

(الخامسة حجة الرسل على أقوامهم باخلاصهم لله وعدم طلب أجر على عملهم)

هذه المسألة مكررة في القرآن ومن الشواهد عليها هنا حكاية عن نوح قوله تعالى [٧٩ وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن اجري إلا على الله] وتقدم عنه معناه في سورة يونس وسيأتي مثله في سورة الشعراء بلفظ الاجر [ومنها] عن هود [٥١ ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون] وراجع مثل هذا عن الرسل في سورة الشعراء [٢٦ : ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠]

وقد تكرر هذا عن نبينا ﷺ في عدة سور : الانعام (٦ : ٩٠] ويوسف (١٢ : ١٠٤) والشورى (٤٢ : ٢٣) ونص هذه الاخيرة بعد تبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات (ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور) والاستثناء في هذه الآية منقطع ، والمعنى لا أسألكم عليه اجرا البتة ، سنة الله في النبيين المرسلين ، ولكن اسألكم المودة في أولي القربى لكم وصلة أرحامكم ، وكانت هذه الوصية مما يحمدونه من هدي الاسلام لتعصبهم لانسابهم ، ويفسرها قوله تعالى (٣٤ : ٤٧ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد)

ولكن الشيعة جعلوا الاستثناء متصلا وفسروا المودة في القربى بمودة قرابته

ﷺ وخصوها بابن عمه علي وذريته عليهم السلام دون عمه العباس وذريته وسائر ذرية أعمامه ، واشتهر هذا التأويل الباطل في كتب التفسير والمناقب ودواوين الشعر ، وجعلوه عهداً من الله عاهد عليه المؤمنين كما قال شاعر العراق في عصره عبد الباقي العمري :

وعهد لا أسألكم عليه من   أجر لمن به الولا قد وجبا

وهذا التأويل تحريف للقرآن وطعن شنيع على رسول الله وخاتم النبيين ﷺ باخراجه من سنة الله تعالى في جميع رسله بأنهم يبلغون رسالاته لوجهه الكريم لا يسألون عليه أجراً لانفسهم ولا لأولي قرباهم ، وأنه هو الذي انفرد بطلب الاجر لاولى قرباه ، (وحاشاه) وهل يسعى جميع طلاب الدنيا إلا لذرياتهم ؟ وللتنزه عن هذه الشبهة حرم الله تعالى الصدقة على آل رسوله وهم بنو هاشم ومن كان يواليهم من بني المطلب دون إخوتهم من بني أمية وبني عبدشمس الذين كانوا يعادونهم ، وموالاة علي وآله واجبة لا خلاف فيها ، ولا حاجة إلى الاستدلال عليها بهذا التحريف للقرآن بباطل التأويل للآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب

(السادسة :عصمتهم صلوات الله تعالى عليهم في تبليغ الدعوة والعمل بها)

من الشواهد عليها قوله تعالى(١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) الآية. المراد منها انه لا يترك مما أوحي اليه شيئا لا يبلغه (ومنها) قوله حكاية عن نوح(٢٩ وما أنا بطارد الذين آمنوا) الآية ، والنفي فيها للشأن ، أي ما كان طردهم من شأني ، ولا مما يقع من نبي مثلي ، فأنا معصوم من إجابتكم اليه فلا تطمعن فيها ، والوعيد عليه في الآية (٣٠) التي بعدها مبني على فرض وقوع الطرد منه المعبر عنه بأداة الشرط التي ليس من شأن فعلها أن يقع (ومنها) قول شعيب لقومه (٨٧ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه وهو يدل على أن الرسول لا ينهى عن شيء لا ينتهي هو عنه ،فهو لا يخالف رسالته في شيء ،إذ لو خالفها لدحض حجته ، ونقض دعوته، (ومنها) قوله لهم (٩٣ ويا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل) الآية وما فيه من الوعيد

فان قيل: ان أمر الله تعالى ونهيه لهم بالتكاليف ووعيده على المخالفة والمعصية

الشامل لهم ولأقوامهم والخاص بهم كقوله تعالى لنوح (٤٦ اني أعظك أن تكون من الجاهلين) واستعاذة نوح به تعالى من مخالفة الموعظة وقوله (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وحكايتهم عن أنفسهم ما يعملون وما يتركون. كل هذا وأمثاله يدل على جواز وقوع المعصية منهم لا استحالته، وفي بعضه ما يدل على وقوع الذنب بالفعل، ومنه سؤال نوح ربه نجاة ولده الكافر، وكونه من سؤال ما ليس له به علم، وهو منهي عنه

«قلت» ان المتكلمين استدلوا على ماسموه عصمة الانبياء بالعقل لا بالنقل، وتأولوا الآيات والاحاديث الواردة بوقوع الذنوب منهم بَله الدالة على إمكانها، وليس المراد بدلالة العقل على عصمتهم أنها كعصمة الملائكة منافية لطباعهم، فان مما فضلوا به على الملائكة انهم بشر كسائر البشر جبلوا على الشهوات الجسدية، وداعية كل من المعصية والطاعة، كما علم من قصة أبيهم آدم، ولكنهم بقوة الايمان ومعرفة الله عز وجل والخوف منه والرجاء فيه والحب له يرجحون الطاعة على المعصية بملكة راسخة فيهم، يعصمهم الله تعالى بها من الخطأ في التبليغ ومن الكتمان لشيء مما امروا به منه، ومن مخالفته، ومن الرذائل والمعاصي المنافية للرسالة، المبطلة للحجة، دون الخطأ في الاجتهاد والرأي، الذي لا يخالف نص الوحي، فاذا وقع منهم بهذا الاجتهاد ما كان الخير والكمال لهم في علم الله خلافه بينه الله لهم تعليما، وعلمهم ماهو الأليق بهم تربية وتكميلا، ومنه اجتهاد نوح الذي رجحه له بالحنان الابوي جواز دخول ابنه الكافر فيمن وعده الله بنجاتهم كما بيناه في موضعه، ولم يعلم ان سؤاله ربه ما ليس له به علم قطعي ممنوع إلا بعد أن سأله نجاة ولده فأجابه بهذه الموعظة، وقد فصلنا هذه المسألة في تفسير أخذ النبي ﷺ الفداء من أسرى بدر من سورة الانفال [٨:٦٧] وتفسير عتابه على الاذن لبعض المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك والعفو عنه من سورة التوبة [٩:٤٣]

﴿ السابعة والثامنة والتاسعة ﴾

(كمال إيمانهم وثقتهم بالله وتوكلهم عليه وشجاعتهم ويقينهم بعاقبة أمرهم)

هـذه المزايا الثلاث ظاهرة أوضح الظهور في كل قصة من قصصهم إذ هي عبـارة عن تصدي رجـل واحد من وسط قوم لتجهيلهم في تقاليدهم الدينيـة الموروثة ودعوتهم لتركها إلى ماهو خـير منها في حقيته وكماله ، وحاله ومآله ، وتوبيخهم على الاصرار عليها ، وانذارهم سوء عاقبتها ، وعـدم مبالاته بكفرهم به ، وسخريتهم منه، وتهديدهم له ، ومقابلته لذلك بما هو أشد منه، كما ترى في الآيتين (٣٨ و٣٩) من قصة نوح وما هو أشد منها في معناها من سورة يونس (١٠ : ٧٦) التي صرح لهم فيها باعتصامه بالتوكل على الله وأمرهم باجماع أمرهم وشركائهم والتثبت فيه والقضاء اليه بما يجمعون عليه من عقابه بدون انظار ولا امهال ، وفي معناه من هذه السورة الآيات (٥٥ـ٥٧)

﴿العاشرة﴾ انذارهم الاخير لاقوامهم وقوع عذاب سماوي يهلكهم، ويقطع دابر المعاندين المصرين على جحودهم وظلمهم ، ووقوع ذلك كله كما بلغوهم عن الله تعالى بلا تأخير ولا تقديم ، وهو برهان على أنه كان بعلم الله وإرادته لعقابهم به

﴿الحادية عشرة﴾ احتجاج المتأخر من هؤلاء الرسل على قومه بما وقع لمن قبله من الرسل مع أقوامهم المعروفين عند قومه كما ترى في انذار شعيب قومه ذلك في الآية (٨٩) وفي سورة الاعراف تذكير هود قومه بقوم نوح قبلهم، ثم تذكير صالح بقوم هود من قبلهم، وقد أنذر محمد ﷺ قومه بجميع هؤلاء الاقوام وماحل بهم. فدل على أنه وقع بأمره عقابا لهم ، وان كان موافقا لسننه تعالى في الاسباب العامة

وجملة القول في قصص الرسل مع أقوامهم وما فيها من أصول دين الله تعالى « الاسلام » ومن سنته تعالى في تبليغهم له وهدايتهم وفضائلهم وضلال المكذبين لهم وظلمهم وفسادهم — أنها دلائل واضحة على رسالة خاتمهم محمد ﷺ واعجاز كتابه وكونه من عند الله تعالى أكمل به دينه ، ووجوه الدلالة فيها كثيرة من عقلية وعلمية واجتماعية وتاريخية وغيبية، وقد فصلناها في « كتاب الوحي المحمدي » تفصيلا

(الباب الرابع في البعث والجزاء)

آيات البعث في القرآن نوعان (أحدهما) لدعوة المشركين إلى الايمان به والاستدلال على قدرة الخالق تعالى عليه وإزالة استبعادهم له وتقريبه الى ادراكهم بضرب الامثال له (والثاني) لتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب والموعظة، والجزاء قسمان أيضاً : جزاء المؤمنين المتقين الصالحين، وجزاء الكافرين الظالمين المجرمين ، ولكل من البعث والجزاء بقسميه ألوان من البيان الرائع العجيب ، وأساليب في التعبير البليغ ، وكل من النوعين والقسمين يجتمعان ويفترقان في التعبير عنهما والخطاب بهما بتلك الاساليب المختلفة في الآية والآيتين والآيات، ولكل منهما تأثيره في الخوف والرجاء ، بجعل التكرار الضروري لتثبيت المعاني في النفس ، غير ممل للسمع ، ولا مسئم للطبع ، وهذا من أبدع ما يمتاز به كلام الرب المعجز على كلام خلقه. فتأمل ذلك وتدبره في قوله أول السورة بعد ذكر الانذار والتبشير، والتخويف من عذاب يوم كبير (٤ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) ثم تأمل قوله بعد ذكر خلق السموات والارض إذ كان عرشه على الماء ليبلو العقلاء المخاطبين أيهم أحسن عملا (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) فالآيتان من نوع الاستدلال على البعث والجزاء معاً بأن الخالق القدير، ذي الحكمة البالغة في التقدير والتدبير ، لا تظهر عظمة قدرته، وسر حكمته في تقديره ، إلا باختبار عباده الذين وهبهم العقل والتمييز بين الحق ، الذي تتجلى به الحكمة في الخلق، والباطل العبث بخلوها منه، وبالجزاء على ما يعملون من خير وشر ، وحسن وقبيح ، وهذا الجزاء لا يكون تاماعاما للافراد في الدنيا لقصر أعمارهم فيها ، فدل على أن الحكمة الربانية تقتضي أن يكون في حياة ثانية بعد هذه الحياة الدنيا ، فكل ما يدل على ربوبيته تعالى وحكمته وعدله يدل على البعث والجزاء لانه من لوازمها

وإن ما بعد هذا من الآيات في رسالة نبينا ﷺ قد تكرر فيه جزاء الكافرين والمؤمنين في الآخرة لان مشركي العرب كانوا أكثر جدالا من كل قوم في البعث بعد الموت، فترى بعدها كل جدال نوح وصالح لقومه في عقيدة التوحيد بعبادة الله وحده دون عقيدة البعث، وزاد شعيب مسألة الامر والنهي في المكيال والميزان، وانحصر انذار لوط في النهي عن الفحشاء والمنكر، ثم ختم الله العبرة في هذه القصص بهلاكهم في الدنيا وعدم إغناء آلهتهم عنهم من شيء وهو دليل التوحيد وبعذاب الآخرة إذ عاد الكلام كما بدأ في إنذار مشركي أم القرى وما حولها من العرب فذكر اليوم الآخر وما فيه من الجزاء بتلك الآيات البليغة الممتازة (١٠٣ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) الآيات ـ ولما بين فيها جزاء كل من فريقي الاشقياء والسعداء وخلودهم في النار والجنة استثنى بعد كل منهما استثناء لم يسبق له فيما قبله ولا فيما بعده من القرآن نظير في ذاته ولا في التفرقة بينهما وهو قوله في أهل النار (خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) وفي أهل الجنة (خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ)

حار في هذا الاستثناء والتفرقة فيه بين الدارين المفسرون من علماء الآثار والمتكلمين والصوفية لتعارضه في الظاهر مع الآيات الكثيرة في خلود الفريقين وتأكيد بعضها بكلمة التأبيد ولكن أكثره في المؤمنين أصحاب الجنة حتى في الآيات التي فيها المقابلة بين الفريقين كما تراه في سورة النساء (٤ : ٥٦ مع ٧٥ و١٢١ مع ١٢٢) وفي سورة التغابن (٦٤ : ٩ مع ١٠) وفي سورة البينة (٩٨ : ٦ مع ٨) ففي هذه الآيات يؤكد خلود المؤمنين في الجنة بالتأبيد دون خلود الكافرين في النار، كما يؤكده في آيات أخرى من سور كالنساء والتوبة والمائدة والطلاق بدون مقابلة،

ومثل هذه الفروق لا تأتي في الذكر الحكيم جزافا أو عبثا أو عن غفلة ككلام البشر، بل يتعين أن يكون لها حكمة في التشريع، ونكتة في بلاغة التعبير، ولا يقدر

على الغوص في هذا البحر الخضم واستخراج أمثال هذه الدرر منه الا الجامع بين اسرار العلمين ـ علم حكم التشريع وعلم اسرار البلاغة ـ ولقد كان أقرب ما يقال في تلك الآيات أنها بمعنى الاستثناء في هاتين الآيتين المتبادر منهما في ذاتهما وهو التفرقة بين الجزاء بالفضل فوق العدل الذي يضاعف من عشرة اضعاف الى سبعمائة ضعف ، والجزاء بالعدل والمساواة الذي لايظلم فيه مثقال ذرة ، وما فوقه من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ولكن يقف في طريق هذا الفهم على وضوحه أن التأبيد أكد به جزاء الذين كفروا وظلموا في أواخر سورة النساء (٤:١٢٨)وجزاء الذين لعنهم الله منهم في سورة الاحزاب (٣٣ : ٦٤) وجزاء العصاة في سورة الجن (٧٢ : ٢٣ ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) والقواعد تقتضي جعل العصيان هنا عاما شاملا لترك الايمان بمعنى الشرك

على اننا بينا في تفسير ماتقدم من الآيات في الخلود والتأبيد معناهما اللغوي وانه لم يكن عند العرب لفظ منها ولا من غيرها يدل على التأبيد في الاصطلاح الشرعي وهو عدم النهاية في الوجود وان قدرت بألوف الالوف وما لايحصى من السنين

وبينا في تفسير الاستثناء هنا وفي سورة الانعام ان جمهور المفسرين تأولوه لموافقة المقرر في العقائد من أن خلود أهل النار كأهل الجنة، وان بعضهم جمله على ظاهره لانه معارض بنصوص القرآن والحديث الصريحة في سعة رحمة الله وعدله وكون العقاب عنده على قدر الذنب لان الزيادة ظلم وهو محال على الله عز وجل عقلا ونقلا ، وكنت وعدت بأن أذكر هنا كل ماقاله العلماء في هذا الموضوع ثم رأيت الآن ان لا حاجة اليه بعد ان وجهت تفسير الاستثناء بما يجمع بين النصوص المتعارضة الظاهر وما سبق في تفسير آية الانعام (٦ : ١٢٧ ص ٦٨ ـ ٩٩ ج ٨ تفسير طبعة أولى) وهو مابسطه المحقق ابن القيم من دلائل الفريقين وخلاصته ان رحمة الله تعالى أوسع وأكمل ، وإرادته أعم وأشمل ، فلا يقيدهما شيء ولايحيط بهما إلا علمه . وقد تعرض لهذا الموضوع من المفسرين المتأخرين القاضي الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) وتبعه السيد حسن صديق خان في تفسيره (فتح البيان) فليراجعهما من شاء

الباب الخامس

في صفات النفس وأخلاقها من الفضائل والرذائل التي هي مصادر

الاعمال من الخير والشر والحسنات والسيئات والصلاح والفساد وفيه فصلان

مقدمة في أسلوب القرآن المعجز في الاخلاق والفضائل والرذائل

للحكماء والصوفية والأدباء والشعراء مناهج وأساليب مختلفة في علم الاخلاق وما يترتب عليها من الاعمال خيرها وشرها، والعادات حسنها وقبيحها، كما تراه في كتب أهلها من فلسفة وحكمة، وأدب وتربية، وحكايات تمثيلية لوقائع بين الحاضرين أو أساطير الاولين، أو على ألسنة الحيوان، أو خرافات الشياطين والجان، تبارى في تصنيفها علماء الشعوب في عهد حضارة كل منها، وفي كل منها فوائد لقرائها بقدر استعدادهم، وأخطاء ينكرها بعضهم على بعض، ولم تهتد أمة من الامم بكتاب منها كما اهتدى اتباع الانبياء المرسلين الذين آمنوا لهم في دينهم

وعند الامم المتدينة كتب مقدسة في أصول أديانها وآدابها يعزى بعضها إلى الوحي الالهي وبعضها إلى مواعظ الانبياء والصالحين من سلفها، وأعلاها الاحاديث الشريفة المسندة إلى نبينا محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ رويت منثورة متفرقة، ثم جمعت في دواوين مرتبة، فما تجد من خير وفضيلة عند هؤلاء الامم فهو من تأثير اتباع هذه الكتب وما حفظوا وفقهوا منها، وما تجد من شر وباطل فهو من فلسفة رؤساء الدين والدنيا واضلالهم إياهم عنها، أو تحريفهم لها،

وأما القرآن فلا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء من هذه الكتب في أسلوبه، ولا في منهاجه وترتيبه، ولا في تربيته وتأديبه، ولا في تأثيره فيما يحمده ويرغب فيه، ولا فيما يذمه ويزجر عنه، فيه كل ما يحتاج اليه المكلفون لتزكية أنفسهم وتطهيرها عقلا ونفسا وخلقا، وكأنه ليس فيه شيء منها تصنيفا ووصفا، فمن تلاه حق تلاوته، وتدبره حق تدبره، وجد كل علم وحكمة، وخير وفضيلة، وبر ومكرمة، حاضراً في نفسه، وكل جهل وشر كان ملتاثا به أو عرضة له كأن بينه وبينه حاجزاً كثيفا،

أو أمداً بعيداً ، ولكنه لا يجد شيئا من هذا ولا ذاك في سوره مدلولا عليه بعناوينه ، كما يجده في أبواب الكتب التي صنفها علماء البشر وفصولها ، فمقاصده ومعانيه ممزوج بعضها ببعض في جميع سوره ، طوالها وقصارها ، بل في جملة آياته منها ، لاجل أن يرتل بنغمه اللائق به ترتيلا ، ويتعبد بتدبر ما فصله من آياته تفصيلا ، فجملة القول فيه انه هو أعلى من كل ما عهده البشر وعرفوه صورة ومعنى ، وهداية وتأثيراً ، كما فصلناه في كتاب (الوحي المحمدي) مقتبسا من هذا التفسير ، ولاسيما اجمال كل سورة فسرت فيه بعد تفصيل ، وتأمله في فصلي هذا الباب ، وما هو بدع من سائر الابواب .

يقرأ كثير من الناس هذه السورة فلا يكادون يفطنون لما فيها من بيان فضائل الرسل والمؤمنين التي يجب التأسي بها ، ومساوي الكفار التي يجب تطهير الانفس منها ، فمن قرأ منهم تفسيرها في أكثر كتب التفسير المتداولة كانت أشغل شاغل له عن ذلك مباحث الفنون العربية والمجادلات الكلامية ، والاساطير الاسرائيلية ، ومن يهمه العلم الذي يعينه على تهذيب نفسه صار يطلبه من كتب الاخلاق والادب والتصوف دون القرآن ، وهو هو الذي قلب طباع الامة العربية كلها وزكى أنفسها ، وسوّدها على بدو العالم وحضره منذ الجيل الاول من اسلامها ، إلى أن أعرضوا عن هدايته وأدبه اشتغالا بفلسفة الشعوبية وآدابها ، أو تنازعا في زينة الدنيا وسلطانها ، فكانوا يبعدون عن الحق والعدل والفضل والسيادة والملك بقدر ما يبعدون عن هداية القرآن فيها

اني بعد أن كتبت تفسير السورة ونشرته وشرعت في كتابة هذه الخلاصة تأملت السورة في المصحف الشريف وحده فوقفت في هذا الباب منها أطول من وقفاتي فيما سبقه من الابواب ، فرأيت في تضاعيف الآيات من دعوة نبينا ﷺ في فاتحتها وخاتمتها ، ومن قصص الرسل في وسطها ، عشرين مسألة أو أكثر في عقائل الفضائل ومكارم الاخلاق وأحاسن الاعمال ، ومثلها في فساد النفس باتباع الهوى ، واجتناب الهدى ، بعضها يخص العقل والفهم ، والعلم والجهل ، وبعضها يخص الخلق والعادة والاعمال ، لهذا جعلت هذا الباب في فصلين أسرد فيهما ما لاح الآن لفهمي منها

﴿ الفصل الاول ﴾

(في مساوي النفس العقلية والخلقية وسيئات الاعمال والعادات وفيه ٢١ مسألة)

﴿ المسالة الاولى خسارة النفس ﴾

أبدأ بهذه المسألة وان كانت نتيجة تابعة لمفاسد ذكرت في هذه السورة قبلها لغفلة أكثر الناس في عصرنا عنها ، على تكرار ذكرها في القرآن ، وانفراده دون جميع كتب العلم البشرية والسماوية بالتذكير بها ، فقال هنا في الظالمين لأنفسهم بالافتراء على الله الصادين عن سبيله يبغونها عوجا ، الذين فقدوا الاستعداد للانتفاع بسمعهم وأبصارهم (٢١ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢٢) لا جرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون) ثم ذكر أضدادهم من المؤمنين الصالحين ، وضرب للفريقين مثل الاعمى والاصم والسميع والبصير ، فكان هذا آخر ما افتتحت به السورة من الكلام في رسالة خاتم النبيين ﷺ ومعنى هذه الخسارة هنا يفهم مما قبل الآيتين وما بعدهما وخلاصته أن فطرتهم الانسانية فسدت كلها ففقدت استعدادها الخاص بها الخ . أرأيت من خسر نفسه فأي شيء بقي له ؟ أيغني عنه ربح تجارته وكثرة ماله وجاهه بالباطل ؟ كلا ، إنك تفهم من معنى هذه الكلمة الكبيرة المرعبة باستعمال عوام المصريين لها ما لا تفهمه من مثل تفسير الجلالين ، يقولون فيمن فسد خلقه وضاع شرفه وصار مهينا محتقرا : فلان خسر — أي ذهبت مزاياه وفضائله حتى لم تبق له قيمة في الوجود

﴿ م — الثانية فقد هداية السمع والبصر وهما أول طرق الاستدلال ﴾

وهذا معنى يغفل عنه أكثر الناس أيضا ، ولذلك قرره القرآن كثيرا بأساليب بليغة ، ومنها قوله قبل مسألة خسران النفس في أهلها (٢٠ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) ونكتة اختلاف التعبير فيه أن الانسان يسمع الاصوات وان لم يقصد سماعها ولم يصخ لها ، فالمراد هنا أنهم لشدة كراهتهم أن يسمعوا آيات الله وحججه في كتابه ما كانوا يستطيعون إلقاء السمع له إذا تلي لئلا يسمعوه فيحوّلهم عما كانوا فيه كما يدل عليه قولهم (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا

عليها) ولو ألقوا السمع لما سمعوا اسماع فهم وتأمل، ولو سمعوا لما عقلوا وفقهوا كما وصفهم في الانفال (٨: ٢١ — ٢٣) وقال هنا حكاية عن قوم مدين (٩١ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) وكذلك ما كانوا يبصرون الآيات المرئية إذا هم نظروا دلائلها ومنها رؤية المصطفى ﷺ ولذلك قال فيهم (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) ووضح هذا بضربه المثل لهم وللمؤمنين بقوله فيهما (٢٤ مثل الفريقين كالاعمى والاصم والسميع والبصير)

﴿ م — الثالثة الشك والارتياب في دعوة الرسل ﴾

وصف القرآن الكفار بهذا الجهل في قوله تعالى حكاية عن قوم صالح (٦٢ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب) ومثله في قوم موسى الذين اختلفوا في كتابه قال (١١٠ وانهم لفي شك منه مريب) أكد شك قوم موسى في كتابهم بعد ايمانهم ولكنه قال في قوم محمد قبل ايمانهم (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) الى قوله (إن كنتم صادقين) انكم في ريب منه فكذبهم في دعوى الريب. وفي سائر السور كثير من هذا في الكفار كوصفهم باتباع الظن وبالخرص ونفيه العلم عنهم، فهذه شواهد في وصف حالهم العقلية وردت في سياق قصصهم دالة على مطالبة الاسلام الناس بالعلم وفقه الشرائع وبراهين العقائد، وانى لهم به والتقليد يصدهم عن النظر العقلي الموصل اليه ؟

﴿ م — الرابعة التقليد ﴾

المراد منه اتباع بعض الناس لمن يعظمه أو يثق به أو يحسن به الظن فيما لا يعرف أحق هو أم باطل، وخير هو أم شر، ومصلحة أم مفسدة، وأصل التقليد في اللغة تحلية المرأة بالقلادة أو الرجل بالسيف أو الهدي بما يعرف به (وهو بالفتح ما يهديه مريد النسك إلى الحرم من الانعام) وتقليده أن يعلق عليه جلدة أو غيرها ليعرف انه هدي فلا يتعرض له، ومنه تقليد الولايات والمناصب، يقال قلده السيف أو العمل فتقلده، وقولهم قلد فلان الامام الشافعي مثلا معناه جعل رأيه وظنه الاجتهادي في الدين قلادة له، والاصل أن يقال تقلد مذهب الشافعي. وعرف

الفقهاء التقليد بأنه العمل بقول من لا يعرف دليله ، وقد نهى الأئمة المعروفون الناس عن تقليدهم في دينهم، وقالوا لا يجوز لأحد أن يتبع أحدا إلا فيما عرف دليله وظهر له أنه حق ، فالعالم مبين للحكم لا شارع له، والتقليد بهذا المعنى شأن الطفل مع والديه والتلميذ مع أستاذه ، وهو لا يليق بالراشد المستقل ، ولكن المرءوسين مع الرؤساء والعامة مع الزعماء والامراء كالاطفال مع الامراء المستبدين، وأما تلقي النصوص القطعية والسنن العملية عن ناقليها فهو ليس بتقليد لهم ، وكذا أخذ الفنون والصناعات عن متقنيها ، وأما تشبه الشرقيين بالافرنج فيما لا باعث عليه الا تعظيمهم لانهم أقوى منهم ولاسيما أزياء النساء والعادات فكله من التقليد الضار الدال على الصغار

ولما كان الاسلام دين الرشد والاستقلال أنكر على العقلاء البالغين المكلفين جمود التقليد على ما كان عليه آباؤهم من أمر دينهم ودنياهم لا لأجل أن يقلدوا آخرين من أهل عصرهم ويسنوا لمن بعدهم تقليدهم، بل ليكونوا مستقلين في طلب الحقائق من أدلتها ، وعلله بقوله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) على مابيناه في مواضع من هذا التفسير متفرقة ، ثم في كتاب الوحي المحمدي مجتمعة، وفي قصص هذه السورة من حكاية هذا التقليد عن ثمود (٦٢ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) وعن مدين (٨٧ قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء ؟)

ومن عجائب الجهل بالقرآن أن يعود الخلق الكثير من مدعي اتباع القرآن إلى التقليد — لا تقليد أئمة العلم المتقدمين الذين نهوهم عن التقليد اتباعا للقرآن — بل تقليد آبائهم وشيوخهم المتأخرين المقلدين حتى فيما ابتدعوا أو قلدوا أهل الملل من عبادة غير الله بدعاء غير الله والنذر لغير الله، وشرع مالم يأذن به الله ، ولئن سألتهم ليقولن ليس هذا بعبادة لغير الله ، بل توسل إلى الله وتقرب اليه ؟ ! فان قلت لهم ان هذا ما كان يقوله المشركون الذين قاتلهم لاجله رسول الله ﷺ آل أمرهم إلى الاستدلال على الشيء بنفسه وهو تقليدهم لمن يفعل فعلهم أو يقره من مشايخ الازهر ومشايخ الطريق ، فان قلت لهم : إن هؤلاء مخالفون لنصوص الكتاب والسنة وللائمة الذين يدعون اتباعهم؟ قالوا انهم أعلم منا بما كان عليه الائمة المختصين بفهم

الـكتاب والسنة * فما أضيع البرهان عند المقلد * ولو كان التقليد حجة مقبولة عند الله لقبلها من مقلدي جميع الامم والملل فانه هو الحـكم العدل ، لا يظلم ولا يحابي بعض عباده على بعض

﴿ م — الخامسة الاختلاف في الدين ﴾

الاختلاف طبيعي في البشر وفيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية ما لا تظهر مزايا نوعهم بدونه ، وفيه غوائل ومضار شرها وأضرها التفرق والتعادي به ، وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذي لا مجال فيه للاختلاف ، ولكنهم اختلفوا في الكتاب المزيل للاختلاف أيضاً فاستحق الذين يحكمونه فيما يتنازعون فيه رحمة الله وثوابه ، والذين اختلفوا فيه سخطه تعالى وعقابه ، وذلك ما بيناه في الآية ١١٩ في خاتمة هذه السورة ، وسنعيد ذكرها في سنن الاجتماع

هذا ما يتعلق بالعقل والعلم والفهم من هذه الرذائل ، وهاك الشواهد الخاصة بصفات النفس من الاخلاق والاهواء والاعمال ، تابعة لما قبلها في العدد

﴿ م — السادسة اتباع الاتراف وما فيه من الفساد والاجرام ﴾

بين الله لنا في خواتيم هذه السورة الاسباب النفسية لهلاك الامم الذين قص علينا أنباء إهلاكهم فكانت الآية (١١٦) من أجمعها للمعاني والمراد منها هنا أن مثار الظلم والاجرام الموجب لهلاك أهلها هو اتباع أكثرهم لما أترفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات واللذات ، والمترفون هم مفسدو الامم ومهلكوها ، وفي معنى هـذه الآية آيات أخرى في سور الاسراء والانبياء والمؤمنون وسبأ والزخرف والواقعة ، ويؤيد مضمونها علم الاجتماع الحديث ووقائع التاريخ ، وإن كل ما نشاهده من الفساد في عصرنا فمثاره الافتتان بالترف واتباع ما يقتضيه الاتراف ، من فسوق وطغيان وافراط واسراف .

علم هذا المهتدون الاولون بالقرآن من الخلفاء الراشـدين ، وعلماء الصحابة والسلف الصالحين ، فكانوا مثلا صالحا في الاعتدال في المعيشة ، أو تغليب جانب

الخشونة والبأس والشدة ، على الخنوثة والمرونة والنعمة ، فسهل لهم فتح الامصار ، ثم أضاعها من خلف بعدهم من متبعي الاتراف ، فانظر كيف اهتدى السلف الصالح بالقرآن وحده وبيان السنة له إذ خرجوا به من ظلمات الجاهلية ، إلى نور العلم والعرفان والحكمة ، ثم كيف ضل الخلف الطالح عنه بعد أن استفادوا العلوم والفنون والملك والسلطان به ؟

﴿ م — السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ﴾

(ضعف العزيمة ، وما يلزمه من اليأس من رحمة الله ، أو فرح البطر والغرور وما يلزمه من الأمن من مكر الله)

تأمل في هذه الصفات النفسية الآيات الثامنة والتاسعة والعاشرة واقرأ تفسيرها فانها تصورها لك ماثلة أمام عينيك في الحالتين المتضادتين اللتين تعرضان للمترف الخوّار ، والكفور الختار ، اذا أذاقه الله نعماء بعد ضراء مسته ، إذ ينسيه فرح البطر الاعتبار وشكر المنعم فيأمن مكر الله ، وإذا نزعت منه بذنبه ، نعمة كان ذاقها من رحمة ربه ، إذ يخونه الصبر فييأس من رحمته ، ثم كيف استثنى الصابرين الذين يعملون الصالحات ، تجد في نفسك من العظة والاعتبار ، مالا تجده في قراءة المطولات من تلك الاسفار

﴿ م — الحادية عشرة حصر الارادة في شهوات الحياة الدنيا وزينتها ﴾

(دون الآخرة والاستعداد لها)

خلق الله تعالى هذا الانسان مستعداً لعلوم ومعارف لاحد لها ، فجعله خليفة له في الارض (وعلم آدم الاسماء كلها) ولذلك ترى الناس يبحثون عن جميع الموجودات مما في الارض وفي السموات ، من كشف عن قطبي الارض وشناخيب أعلى الجبال ، وغوص في أعماق البحار ، وتحليق في أقصى محيط الهواء ، بل تجاوزوا كل هذا الى رؤية ما فوقه من شموس وأقمار ، وما تتألف منه من ضياء وأنوار ، وما فيها من عجائب وأسرار ، ويبذلون في سبيل ذلك الاموال والشهوات والحياة

أيضاً، وهم مستعدون بفطرتهم الروحية للوصول إلى ما هو أعلى من ذلك كله من عالم الغيب، والوصول إلى العلم الاعلى بالله الواحد القهار، ومعرفته معرفة كشف ورؤية بالبصائر يغشى نورها الابصار، بالتجلي الذي ترفع به أكثر الحجب والاستار، بغير كيف ولا حد ولا انحصار، في حياة بعد هذه الحياة الدنيوية، المقيدة فيها أرواحهم بهذه الاشباح الكثيفة الجسدية، وان له تعالى هنالك لتجليات لعباده المقربين، كما تجلى كلامه في الدنيا لأسماعهم وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم بما يعلو كلام المخلوقين.

أفليس من الحماقة والجناية على هذا الاستعداد العلوي العظيم، أن يجعل هذا الانسان إرادته محصورة في هذه الحياة المادية، وزينتها الجسدية، فيكون منكراً أو كالمنكر لتلك الحياة الابدية؟ بلى وذلك قوله تعالى (١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ١٦ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وما في معناهما من الآيات

(فان قيل) وما تفعل بقوله تعالى (٧: ٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) الآية (قلت) انما كانت للمؤمنين في الدنيا بالاستحقاق، وإن شاركهم غيرهم بالكسب وسنن الاسباب، لأنهم هم الذين يشكرونها لله ولا تشغلهم عنه فتكون إرادتهم محصورة في التمتع بها، كيف وهم الذين قال فيهم (٦: ٥٢ و١٨: ٢٨) واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه)؟ فالمؤمن الشاكر الصابر تزيده النعم شوقا الى الله وحبا، والشدائد معرفة بالله وقربا

﴿م — الثانية عشرة: ازدراء الكفار المستكبرين، للفقراء والضعفاء من المؤمنين﴾

كان الملأ المستكبرون من الاقوام، المغرورون بالمال والجاه، هم أول الذين يجحدون آيات ربهم ويكذبون رسله، لانهم يرون في اتباعهم لهم غضاً من عظمتهم، وخفضا من علو رياستهم، ووقوفا مع الدهماء، حتى الفقراء والضعفاء، في صف

التابعين لاولئك الانبياء ، وجعلهم مثلهم مرءوسين لهم ، كما حكاه التنزيل عن جواب ملأ فرعون لموسى وأخيه (ع.م) بقوله (١٠ : ٧٨ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض ؟) كما كان الذين يسبقون إلى الايمان بهم من هؤلاء الضعفاء والفقراء وكذا الوسط ، ولهذا كان الكبراء المستكبرون يزدادون إعراضا عن الانبياء وعداوة لهم كما بينه التنزيل مراراً وتكراراً ، ومنه في قصة نوح (٢٧ — ٣١ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي — الى قوله عليه السلام — ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً) ومنه تهديد مدين لرسولهم شعيب (ع.م) بالرجم هنا لولا رهطه، وتهديده ومن آمن معه في سورة الاعراف بالنفي والاخراج من أرضهم ، ومنه تهديد فرعون لموسى وأخيه ، وما فعله مشركو مكة برسول الله وخاتم النبيين من التهديد بالقتل أو الحبس أو الاخراج من وطنه ، وقد فعلوا ما استطاعوا ، وكذلك يفعلون بدعاة الاصلاح وكل من يرشد الشعوب إلى مقاومة الظلم والاستبداد، والرياسة الطاغية المتكبرة في كل زمان ومكان ، فهذا الارشاد الرباني في كتاب الله تعالى عام دائم لانهاية له ، ولا غنى عنه. وقد غفل أهل القرآن عنه

﴿م — الثالثة عشرة : الصد عن سبيل الله وبغيها عوجا ﴾

كان الظالمون المعاندون للرسل يستهزئون بدعوتهم ويزدرون أتباعهم من الضعفاء حتى إذا ما كثروا وخافوا منهم قوة الكثرة طفقوا يصدونهم عن سبيل الله أي الطريق الموصلة الى مايحبه لهم من الحق والخير والسعادة ، يصدونهم بكل ما استطاعوا من أسباب الصد كالاهانة والتخويف والتعذيب للضعفاء ، وتزيين العصبية وحب الرياسة والغنى للاقوياء ، ويبغونها عوجا أي يطلبو جعلها معوجة بذمها وادعاء بطلانها وضررها، وقد ورد هذان الوصفان في الآية ١٩ من سياق رسالة نبينا ﷺ هنا وفي سورتي ابراهيم والاعراف، وفي قصة شعيب من سورة الاعراف أيضا إذ كان قومه يقعدون في كل طريق من طرقهم يصدون الناس عن دعوته ويبغونها عوجا، وتكرر ذكر الصد عن سبيل الله بدون وصفها بالعوج في سور أخرى، وكذلك يفعل أعداء الاسلام من الملاحدة ودعاة الاديان الباطلة حتى هذا الزمان

(م – الرابعة عشرة: العداوة بالكيد والتهديد والوعيد للرسل)

جاء في قصة هود (ع.م) قوله (٥٥ فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) فقد كان يتوقع الكيد منهم وهل كان وقع له فقاس المستقبل على الماضي أم علمه من حالهم، أم فرض وقوعه فرضا وأنبأهم بعدم مبالاته به؟ كل جائز. وفي قصة شعيب (ع.م) حكاية عن قومه (وإنا لنراك فينا ضعيفا، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت عيلنا بعزيز) وفيها من العبرة ان هذا دأب المفسدين في عدواة المصلحين ورثة الانبياء، وأشدهم كيدا لهم أهل الحسد والبدع من لابسي لباس العلماء، وأعوان الملوك والامراء.

(م – الخامسة عشرة: افتراء الكذب على الله تعالى)

الدين في حقيقته وطبيعته وعرف جميع الملل تشريع إلهي موضوعه معرفة الله تعالى وعبادته وشكره وتزكية النفس وتهذيبها باجتناب الشر وفعل الخير والتعاون بين الناس على البر والتقوى الخ ومصدره وحيه تعالى لمن اصطفى من عباده لرسالته، وتبليغهم لما ارتضاه وشرعه لهم من الدين، فليس لاحد غيره تعالى أن يشرع لهم عبادة ولا حكما دينيا من حرام أو حلال، ومن فعل ذلك كان مفتريا على الله الكذب، سواء أسنده اليه تعالى بالقول أم لا، لان كل ما يتخذ دينا من قول أو فعل أو ترك فهو يتضمن معنى نسبته إلى الله وادعاء أنه هو الذي شرعه، لان الدين لا يكون إلا منه وله، وآيات القرآن صريحة في هذا سبق بعضها في السور التي فسرناها ولا سيما الانعام والاعراف والتوبة ويونس، ومنه في هذه السورة [١٨ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا] الآية، أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ما، ومنه القول في الدين بغير علم من عقيدة وعبادة وتحليل وتحريم، وهو شرك بالله بيتعدى ضرره الى عباده، وبهذا كان أشد جرما وكفراً من عبادة الاصنام وغيرها كما تقدم بيانه في تفسير (٣٣:٧ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ومن ثم كان ابتداع العبادات والتحليل والتحريم في الدين شركا وكفرانا، إذ الجاهلون يعدونها عبادة يرجون بها ثوابا، ويسمون مبتدعيها أولياء لله وأحبابا، ويجهلون أنهم اتخذوهم من دونه أندادا وأربابا [١]

(١) راجع تفسير ٣١:٩ اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا الآية ص٣٦٣ ج١١ تفسير.

﴿م — السادسة عشرة : الاستهزاء بالانبياء وما جاؤا به من الحق ﴾

(والسخرية منهم ووصفهم بالسحر)

اقرأ في مسألة السحر الآية السابعة وفي مسألة الاستهزاء بالحق وما أنذروا به من العذاب الآية الثامنة وكلاهما في قوم خاتم النبيين ، وفي السخرية الآية ٣٨ في قوم نوح ، وفي هذا المعنى آيات في سور أخرى ، وتقدمت الشواهد في صفة المستهزئين المغرورين بزعامتهم وثروتهم وإترافهم ، واحتقارهم للضعفاء والفقراء في المسائل (١١ — ١٤) وهذا نوع منه فلا نطيل في العبرة به وبأهله في عصرنا

﴿م — السابعة عشرة : اعتقاد بعضهم أن آلهتهم تنفع وتضر بنفسها ﴾

بينا مراراً أن غريزة الشعور بوجود إله للخلق هو مصدر غيبي للنفع والضر بذاته هي أصل الدين الفطري ، وان العبادة الفطرية هي التقرب الى المعبود النافع الضار بقدرته الذاتية غير مقيد بالاسباب الكسبية ، وان سبب الشرك توهم أن بعض ما في عالم الشهادة يضر وينفع بذاته أو بوساطته عند الرب ذي القدرة الذاتية الغيبية على ذلك . فالشرك دركتان إحداهما أسفل من الاخرى ، والظاهر أن قوم هود كانوا في الدركة السفلى إذ قالوا له (٥٤ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وأما قوم نبينا ﷺ فقد ارتقوا عن هذه الوثنية السفلى ، إذ كانوا يعتقدون ان آلهتهم لا تضر ولا تنفع ولكنها تشفع لهم عند الله تعالى يقولون (٣٩ : ٣ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ونجد أمثالا للفريقين في مدعي الايمان بالقرآن كما بيناه في تفسير تلك الآية وغيرها ، فهم يقولون في كل من تصيبه مصيبة من المنكرين لخرافاتهم وتصرف أوليائهم في العالم : إن الولي تصرف فيه أو عطبه ، وراجع تفسير الآية والكلام في التوحيد ووظائف الرسل من هذه الخلاصة

كل هذه الرذائل والمخازي المبينة في المسائل السبع عشرة هي من فساد العقائد وصفات النفس الباطنة ، وأما الرذائل العملية التي اشتهر بها أولئك الاقوام فأجمعها للفساد إسراف بعضهم في الشهوة البدنية ، وإسراف آخرين في الطمع المالي ، وتجد في قصص هذه السورة منها المسألتين ١٨ و١٩

﴿ م — الثامنة عشرة : استباحة شهوة اللواط واعلان المنكرات ﴾

وهي ما حكاه الله تعالى عن قوم لوط في عدة سور ومنها في هذه السورة الآيات ٧٧ وما بعدها ، وقد بينا مخازيها في تفسير سورة الاعراف

﴿ م — التاسعة عشرة : استباحة أموال الناس بالباطل ﴾

وهو ما حكاه عن قوم شعيب من التطفيف في المكيال والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ، والعثي في الارض بالفساد ، واحتجاجهم على ذلك بحرية التصرف في الاموال ، وهو ما حكاه تعالى عنهم في الآيات ٨٤ — ٨٨

(م — العشرون : الطغيان والركون الى الظالمين)

الطغيان تجاوز الحد في الشر والركون إلى الظالمين ظلم وهما من أمهات الرذائل فاجتنابهما من الفضائل السلبية التي لا تتم الاستقامة بدونها ، ولذلك عطف النهي عنهما على الامر بها بقوله (ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ١١٤ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) الآية ، وقد أطلنا في الكلام على الركون إلى الظالمين ، وأوردنا فيه أقوال أشهر المفسرين فراجعه في (ص ١٦٩ — ١٨٥)

(م — الحادية والعشرون : الظلم)

جريمة الظلم أم الرذائل كلها لانها تشمل ظلم المرء لنفسه بدنا وعقلا ودينا ودنيا ، وظلمه للناس أفراداً وجماعة وامة ، فكل ماسبق من الرذائل فهو داخل في معناها ، ولذلك جعل إهلاك أولئك القرون عقابا على الظلم ، وترى بيان هذا في آخر الباب السادس من هذه الخلاصة

وجملة القول في هذا الفصل ان كل ما فيه من الرذائل يدخل في باب قسم المحرمات المنهي عنها من الركن العملي من أركان الدين الذي هو عمل الصالحات المستلزم لترك أضدادها ، وأما قسم المأمورات فهو ماتراه في الفصل الثاني وهو :

﴿ الفصل الثاني من الباب الخامس ﴾

(في الاخلاق والفضائل النفسية والعملية البدنية)

قلنا إن هذه السورة في دعوة النبي ﷺ قومه إلى الاسلام والتثبيت عليها بقصص أشهر الرسل الذين خلوا من قبله في جزيرة العرب وما جاورها مع أقوامهم مما يفهمه مشركو قومه وتقوم به الحجة عليهم ، فليس موضوعها بيان تفصيل الفضائل والاعمال الصالحة التي توجه إلى المؤمنين به ، ولكن ما يخصهم منها على قلته ، كثير في معناه وفائدته ، ولهم من الذكرى وما يجب التأسي به من فضائل الرسل غير ما خصهم الله من الوحي والعصمة ، ما يكفي المتدبرين له المعتبرين به في تزكية أنفسهم وجعلهم أسعد الناس بمعرفة ربهم وعبادته وارشاد عباده ، فالفضائل فيها قسمان نسرد لقارئي هذا التفسير ما فهمناه من مسائلهما والشواهد عليها جميعا وهي إحدى وعشرون أيضا

﴿ الاولى والثانية استغفار الرب ، والتوبة اليه من كل ذنب ﴾

هاتان فضيلتان فريضتان متلازمتان فكأنهما واحدة ، جاء الامر بهما في الآية الثالثة من صدر هذه السورة عقب النهي عن عبادة غير الله عز وجل من دعوة نبينا ﷺ ثم كرر في دعوة غيره في الآيات ٥٢ و ٦٠ و ٩٠ فعلم أنه كان أمراً عاما على ألسنة سائر الرسل (ع . م) وسنذكر فائدتهما العمرانية في الكلام على السنن الالهية من الباب السادس من هذه الخلاصة

﴿ الثالثة الصبر ﴾

ذكر الصبر في صفة المؤمنين في الآية الحادية عشرة من الكلام في رسالته ﷺ ثم أعيد ذكره في آية الاحتجاج على رسالته ﷺ بعد قصة نوح بقوله تعالى له (٤٩ فاصبر إن العاقبة للمتقين) ثم في آخر السورة بقوله تعالى (١١٥ واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين) فالصبر هو الخلق الذي يستعان به على جميع أعمال الافراد والامم في الشدة والرخاء

﴿ الرابعة العمل الصالح المطلق ﴾

ذكر العمل الصالح مع الصبر في آيته الاولى ، ثم ذكر في صفة المؤمنين في الآية ٢٣ وتقدم ذكره في اجمال الباب وفي معناه إحسان العمل في الآية السابعة وسيأتي الكلام عليها في ابتلاء البشر (ص ٢٣٧)

﴿ الخامسة الاخبات الى الرب عز وجل ﴾

ذكرت هذه الفضيلة معطوفة على العمل الصالح في آيته الثانية و(٢٣) ويالها من فضيلة تدل على كمال الايمان والعرفان والفرقان فراجع تفسير الآية في (ص ٥٧)

﴿ السادسة الاستقامة كما أمر الله تعالى ﴾

أمر الله رسوله خاتم النبيين في خواتيم هذه السورة بهذه الفضيلة بقوله (١١٣ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) فجمل هذا الامر بعد قصص الرسل فذلكة لفوائدها ، وأشرك معه فيها المؤمنين من أتباعه فراجع تفسيرها (في ص ١٦٦) وما فيه من تعظيم شأنها

﴿ السابعة اقامة الصلاة في اوقاتها من النهار والليل ﴾

جاء الامر للرسول ﷺ بهذه الاقامة للصلاة معطوفا على ما قبله من النهي عن الطغيان والركون إلى الظالمين والامر بالاستقامة ، وعلله بالقاعدة العامة في تكفير الحسنات للسيئات ، وأعظم الحسنات الروحية اقامة الصلوات ، إرشاداً لأمته إلى المبادرة إلى تطهير أنفسهم وتزكيتها في إثر كل مايعرض لهم مما يدسيها ويدنسها ، فراجع تفسيرها وتحقيق معنى هذا التطهير فيه بما يرشد اليه علم النفس

(الثامنة والتاسعة : النهي عن الفساد في الارض ، ويلزمه الامر بالصلاح فيها)

(وهما الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)

بعد أن بين الله تعالى لعباده في آخر كتبه على لسان رسوله خاتم النبيين ما يكفر سيئاتهم أفراداً وهو فعل الحسنات التي تمحو أثرها السيء من أنفسهم

بين لهم ماهو منجاة للامة والشعب من الهلاك في الدنيا قبل الآخرة وهو وجود طائفة عظيمة التأثير فيها تنهاها عن الفساد في الارض بالظلم والفساد والفسوق بارتكاب الفواحش والمنكرات ، وهو قوله (١١٦ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض) ويبين لنا عقب هذا في الآية أن القرون التي أهلكها لم يكن فيها الا قليلا من أمثال هؤلاء هم الذين أنجاهم مع رسلهم، وان الجمهور الذين أهلكهم كانوا متبعين للاتراف بالفسوق والاسراف ، وهو غاية الفساد والافساد، فالامر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الدين والاخلاق والآداب

وصرح في الآية التي بعدها (١٧) بأن سنته في الامم انه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون في لارض ، وعبر عن الامم بالقرى وهي عواصم ملكها ، لانها مأوى الزعماء والرؤساء الحاكمين الذين تفسد الامم بفسادهم ، وتصلح بصلاحهم، وهي حقائق فسرها علم الاجتماع الحديث ، وانا لنرى مصداقها بأعيننا، والذين يتعبدون بألفاظ القرآن دون معانيه لا يعتبرون بها لانهم لا يفقهون ما فيه وسنعود الى ذكرها في بيان سنن الاجتماع من الباب السادس، ولا بد من التكرار في هذه الابواب

فهذه التسع من امهات الفضائل تكفي من تدبرها علماً وعرفانا وهداية وإرشاداً لجميع الاعمال الصالحات التي هي الركن الثالث من أركان الدين ، وفي السورة من الفضائل التي تستمد فيها من سيرة الرسل عليهم السلام ويقتدى بهم فيها ، وجميع المكلفين مطالبون معهم بها فنشير اليها تتمة للعدد

(العاشرة : البينة من الله تعالى في الدين)

ان ماتقدم في صفات الرسل عليهم السلام (ص٢٠٨) من انهم كانوا على بينة من ربهم بما خصهم به من الوحي والآيات يشاركهم فيها المؤمنون بهم بالاتباع لهم فيها كما قال الله تعالى لنبينا ﷺ وهو خاتمهم (١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) فبصيرته ﷺ مقتبسة من نور القرآن ، تلقاه هو من وحي الله ، وتلقيناه نحن من تبليغه عن ربه وربنا عز وجل مؤيداً بالحجة والبرهان ، وانما المحروم من نوره، من يتلقى عقيدته وعبادته من غيره

(الحادية عشرة الحرية والاستقلال في هذه البينة)

قال تعالى حكاية عن رسوله نوح عليه السلام (٢٨ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) فيؤخذ من هذه الآية التي بلغها أول المرسلين لقومه ومن قوله تعالى لخاتم النبيين والمرسلين (١٠: ٩٩ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ومن إنزاله عليه عند إمكان الاكراه في عهد القوة (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين) ان دعوة الدين والهدى تقوم بالبينة والحجة، لا كما فعل نصارى الافرنج ولاتزال تفعل بعض دولهم من نشر النصرانية بالاكراه والقوة ، أو بالخداع والحيلة، فعلى كل مسلم أن يكون على بينة من ربه وبصيرة في دينه، وقد فسروا البصيرة بالحجة، والدعوة إلى سبيل الله كما أمر بالحكمة والموعظة الحسنة

(الثانية عشرة الاحتساب والاخلاص لله في الدعوة دون التجارة بها)

تقدم في صفات المرسلين عليهم السلام ان دعوتهم وهدايتهم كانت لاعلاء كلمة الله تعالى وإرادة وجهه الكريم، وانهم كانوا يصرحون لأقوامهم بأنهم لايسألونهم عليها مالا ولا أجرا كما رأيت في الآيتين ٢٩ و٥١ من هذه السورة وذكرناك بمثلها في السور الاخرى ، فعلى كل داع إلى الله تعالى أن يكون في دعوته وهدايته مخلصا لله تعالى لا يبتغي بها مالا ولا جاها في الدنيا ، ولكن هذا لايمنع وجوب بذل المسلمين المال لمساعدة الدعاة فانه تعالى قال لهم (وتعاونوا على البر والتقوى)

(الثالثة عشرة ولاية فقراء المؤمنين وضعفائهم ككبرائهم)

تقدم في صفات الرسل عليهم السلام ان هذه الفضيلة من أخص فضائلهم ، واستشهدنا عليها بما رد به نوح (ع.م) على أشراف قومه إذ طعنوا على أتباعه ولقبوهم بأراذلهم في الآيات ٢٧ — ٣٠ وما في معناها ، وناهيك في هذا الباب بسورة الاعمى ففيها العبرة الكبرى لكل ذي بصر وبصيرة ، ومن خصائص المسلمين الثابتة في الكتاب ان بعضهم أولياء بعض ، ومن صفاتهم في السنة « المسلمون

ذمتهم واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » الخ وانهم « كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وبهذا يكونون الآن كما كان سلفهم أمة قوية في قتالهم وسلمهم ، فهل مسلموا عصرنا كما وصف الله ورسوله ؟

(الرابعة عشرة النصيحة العامة)

كان الانبياء (ع . م) كلهم ناصحين لأقوامهم فيجب الاقتداء بهم وقد ذكرنا من شواهد النصح في قصة نوح قوله (٣٤ ولا ينفعكم نصحي) الآية ، وفيها من سورة الاعراف قوله لقومه (٧ : ٦٢ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) وفي قصة هود منها (٦٨ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) وفي قصة صالح منها (٧٩ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وفي قصة شعيب منها (٩٣ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) وقال نبينا ﷺ « الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم فهل مسلموا عصرنا على هذا الدين ، دين جميع النبيين والمرسلين ؟

(الخامسة عشرة محبة الاولاد وحدود السعي لخيرهم)

محبة الاولاد فضيلة من فضائل الفطرة الانسانية ، بل الغريزة الحيوانية ، وحقوقهم على الوالدين مقررة في الشرع بما يحدد دواعي الغريزة والطبع ، ويقف بها دون الغلو المفضي الى عصيان الله تعالى أو هضم حقوق عباده ، وفي قصة نوح مع ولده الكافر في هذه السورة ما فيه إرشاد وهدى للمؤمنين في ذلك ، فهل هم متبعون ؟

(السادسة عشرة اكرام الضيف وحفظ كرامته)

في خبر ابراهيم الخليل مع الملائكة المبشرين له باسحاق وعنايته بضيافتهم ، ثم في قصة لوط معهم وشدة عنايته بحفظهم من شر قومه قبل أن يعرف أنهم

ملائكة جاؤا لتعذيبهم — خير أسوة في فضيلة اكرام الضيف وتكريمه وقال نبينا (ص) «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليهما

(السابعة عشرة العمل بالعلم والائتمار والانتهاء على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)

هذه فضيلة هي فريضة ثابتة بنصوص القرآن تؤيدها بداهة العقل، وهي شرط طبيعي لقبول العلم والارشاد من القائمين به ، ورسل الله تعالى أئمة الهدى فيها ، وفي هذه السورة منها قول شعيب (ع . م) لقومه (٨٨ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وانها لعبارة بليغة في موضوعها فراجع تفسيرها وما هو أعم منها، كأول سورة الصف وآية (٢ : ٤٤ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) الخ وانظر أين تجد علماء عصرنا من هذه الآيات؟

(الثامنة عشرة الاصلاح العام بقدر الاستطاعة)

ما شرع الله الدين للبشر إلا ليكونوا صالحين في أنفسهم مصلحين في أعمالهم وقد بين ذلك شعيب (ع . م) بصيغة الحصر في الآية ٨٨ وهي (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت) وهو أبلغ البيان وأعمه وأتمه وهو واجب على كل مسلم

(التاسعة عشرة والعشرون الاستقامة والثبات على الفضائل والاعمال الصالحة)

قال تعالى (١١٢ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) وأهمها المحافظة على الصلوات في أوقاتها ومن شواهدها هنا (١١٤ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل) وقال ﷺ «أحب الاعمال الى الله أدومها وإن قل » متفق عليه

(الحادية والعشرون التوكل على الله عز وجل)

تقدم الكلام عليه في بحث التوحيد في الفصل الاول من الباب الاول وفي صفات الرسل من آخر الباب الثالث

الباب السادس

في سنن الله تعالى في التكوين والتقدير والطبائع والغرائز والاجتماع البشري وفيه ثلاثة فصول

(الفصل الاول في سنن التكوين والتقدير أي نظام الخلق وفيه أنواع)

(سننه تعالى في رزق الاحياء)

(النوع الاول) قوله تعالى (٦ وما من دابة في الارض إلا على رزقها) يشير الى سنن كثيرة فان الرزق المضاف إلى ضمير هذه الدواب الكثيرة عام يشمل أنواعا كثيرة منها ، ومن المعلوم بالآيات المنزلة والآيات المشاهدة ان رزق الله تعالى لجميع الاحياء هو ما خلقه من الاقوات لكل جنس ونوع منها وهداه إلى التغذي به لحفظ حياته ونمائه وبقائه إلى الاجل المقدر له، ويجري ذلك بسنن كثيرة وضع البشر لتفصيلها علوما كثيرة في النبات والحيوان ووظائف أعضاء التغذي والهضم وغير ذلك

(سننه فى مستقر الاحياء ومستودعها)

(الثاني) قوله (ويعلم مستقرها ومستودعها) يشمل سننا أخرى كثيرة ، فقد بينا في تفسير المستقر والمستودع أن فيهما أقوالا يحتملها اللفظ ونقول على المذهب المختار في جواز أن يكون كل معنى يحتمله اللفظ مرادا منه : إن تعدد أنواع الاستقرار والاستيداع، أماكنهما وأزمانهما لكل نوع من الدواب في الحمل به وحضانته وولادته وحياته وموته ووطنه وتنقله يقتضي أن يكون لكل من ذلك سنن في منتهى الحكمة والنظام ، ولك أن تجملها في نوع واحد وأن تفصلها فتجعلها عدة أنواع

(سننه فى كتابة نظام العالم ومقاديره)

(الثالث) قوله تعالى (كل في كتاب مبين) بيان لنوع آخر من النظام وهو نوع الكتابة الشامل لما ذكر قبله من نوع تعلق العلم ، وما قبله من نوع تعلق

القدرة بما وجد من المعلومات بالفعل ، ومثاله المقرب لتصوير حكمته تدوين كتاب ديوان الحكومة النظامية لكل ما فيها من أعيان وأموال وأعمال ومقادير وتدبير ، فالوحي يعلمنا أن الكون الاعظم قائم بنظام أحاط به علم الله تعالى وان مقاديره التي نفذت بقدرته تعالى (كل ذلك كان في الكتاب مسطوراً)فهو مسطور في لوح محفوظ في عالم الغيب لا نعلم تأويله ولا صفة كتابته فيه، وله تعالى في كل نوع منه وفي جملته في عالم الشهادة سنن حكيمة يقوم بها بقدرته وارادته (وكل شيء عنده بمقدار)وهو النظام فله تعالى كتابان،في احدهما نظام التكوين وفي الآخر بيان التكليف، فكتاب التكليف بين لنا ما نحن محتاجون اليه مما يفتح لنا أبواب العلم بما في كتاب التكوين،وكل منهما كتاب مبين، وقد اشتبه على بعض المفسرين أحد الكتابين بالآخر

﴿ سننه في خلق السموات والارض في ستة أيام ﴾

(الرابع) قوله تعالى (٧ وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام)فيه من بيان سنته تعالى في التكوين أنه كان أطواراً في أزمنة مقدرة بنظام محكم ولم يكن شيء منه أنفا (بضمتين) أى فجائيا بغير تقدير ولا ترتيب، فان كلمة الخلق معناها التقدير المحكم الذي تكون فيه الاشياء على مقادير متناسبة، ثم أطلقت بمعنى الايجاد التقديري ،ومنه أن السموات السبع المرئية للناظرين ، وكل جرم من الاجرام السماوية يرى فوق أهل الارض أو أرض من الارضين، فكلها قائمة بسنن دقيقة النظام،وان كل نوع من أنواع ما فيها من البسائط والمركبات الغازية والسائلة والجامدة قائم بسنن أيضا ، وان الكون في جملته قائم بسنة عامة في ربط بعضه ببعض ، وحفظ نظامه أن يبغي بعضه على بعض ، كالذي يسميه العلماء نظام الجاذبية العامة والجاذبيات الخاصة

﴿ سننه في خلق الاحياء من الماء وخلق المركبات أزواجا ﴾

(الخامس) قوله تعالى بعد ذكر هذا الخلق (وكان عرشه على الماء) فيه إشارة إلى نوع من أنواع التكوين الاول ، وهو الماء الذي خلق منه جميع أنواع الأحياء ، وقد كتبنا في تفسير هذه الجملة فصلا في هذا التكوين ذكرنا من سننه سنة الزوجية في خلق جميع المركبات ، فقد قال (وجعلنا من الماء كل شيء حي)

وقال (ومن كل شيء خلقنا زوجين) وقال (سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وقد وصل علم البشر في عصرنا إلى كثير من هذه السنن وماقامت به مما لم يكن يعلمه المتقدمون من علماء المواليد وغيرها ، ولا يزالون يتوقعون أن يظهر لهم غيرها ، مما يدل على أن هذه المخلوقات لا يحيط بها إلا علم خالقها عز وجل ، كما بسطناه في تفسير هذه الآية (٧)

(الفصل الثاني في سنن الطبائع والغرائز البشرية)

(وفيه بضعة شواهد)

(سننه تعالى في اختبار البشر لأجل احسان كل عمل)

(الشاهد الاول) بين الله تعالى لنا بعد ما تقدم آنفا من بدء الخلق حكمته العظمى فيه للبشر بقوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فان احسانهم لأعمالهم التي أعدهم لها هي التي تظهر ما في هذا الخلق علويه وسفليه من الحكم والاسرار التي لا حد لها ولا نهاية، بين هذا بأسلوب الالتفات عن الخبر إلى الخطاب العام، وياله من أسلوب لا يعرف له ضريب في كلام بلغاء البشر ، ثم التفت عنه إلى خطاب الرسول ﷺ بقوله (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) وفي هذا الخبر المؤكد بصيغة القسم بيان لسنتين من سنن الله تعالى في البشر ، إحداها في حالة من أحوال اجتماعهم وموضعها الفصل الثالث ، والاخرى في نوع من أنواع غرائزهم وطباعهم وهي أنهم اذا أخبروا بشيء لم تصل إلى إدراكه عقولهم أنكروه ، على أنهم مستعدون بالفطرة للعلم بكل شيء كما قال تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) فاذا قال لهم الرسول المخبر إن هذا الخبر عن الله القادر على كل شيء وجاءهم بالآية الدالة على صدقه من علمية أو عقلية يعجزون عن مثلها قال أكثرهم (إن هذا لسحر مبين) أي بين ظاهر ، يعنون أنهم ماعجزوا عن مثلها إلا لأن لها سببا خفيا عليهم قد يعرفه غيرهم وقد يعرفونه بعد ، فهذه سنة من سننه تعالى فيهم في حال من أحوالهم الناقصة المتعارضة كما بينته في محله من قبل ، والمراد هنا التذكير لاتفصيله وتحقيقه

﴿ غريزة الناس في العجل والاستعجال ﴾

(ش٢) قوله تعالى عقب ذلك (٨ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) الآية يرشدنا إلى سنتين من سننه تعالى في غرائز البشر وفي اجتماعهم كاللتين فيما قبله، نرجيء إحداهما إلى الفصل الثالث ونبين الاولى بأن من طباعهم العجلة والاستعجال لما يطلبون من خير للتمتع به، وما ينذرون من شر ينكرونه للاحتجاج على بطلانه كما بيناه في تفسير (١٠ : ١١ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم) فراجعه في ص ٣١٦ ج ١١ تفسير)

(غريزة الفرح بالنعمة واليأس عند المصيبة)

(ش٣و٤) في الآيتين ٩و١٠ بيان لغريزتين متقابلتين من الصفات المذمومة بيناهما في الفصل الاول من الباب الخامس من الوجه البشري وهما فرح البطر بالنعمة ، ويأس الكفر عند المصيبة، ونذكر بهما هنا من وجه النظام الالهي والسنن العامة ،ومن دقائق التناسب بين الآي ورود هذه السنن متعاقبة متصلة .

(غريزة الافراط في توجيه القوى الى شيء يلزمه ضعف ضده)

(ش ٥) قوله تعالى (١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الآية . فيه شاهد على سنة العجل في غرائز البشر المبينة في الشاهد الثاني آنفا ، وشاهد على سنة أخرى هي ان الانسان إذا وجه إرادته بكل قوتها إلى ما فيه متاع له من اللذة والمنفعة العاجلة عسر عليه أن يعقل ما ينذر به من الضرر الآجل الذي يعقبه في الدنيا ، وما ينذر به مما لا يؤمن به من عذاب الآخرة يكون فقهه له أعسر ، واقتناعه به أبعد ، إلا أن يهديه الله للايمان بالقرآن ، إيمانا يشترك فيه العقل والوجدان

(فقد هداية السمع والبصر)

(ش٦) قوله تعالى (٢٠ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) في معنى ما تقدم من سنته تعالى في توجيه الانسان كل إرادته الى شيء يضعف فيه غريزة الادراك لما يخالفه ، ونزيد عليه انه يضعف هداية السمع والبصر حتى يفقد القدرة على الاهتداء بهما والانتفاع بدلائلها ، فهي من هذه الناحية سنة أخرى ،

(الايمان بالاقناع دون الاكراه واستعداد البشر للاضلال)

(ش٧) الآية ٢٨ حكاية عن نوح (ع.م) في شأن ما آتاه الله من البينة على صحة دعوته لهم إذا عميت عليهم أنه لا يمكن أن يلزمهم إياها وهم كارهون لها، تدل على أن سنته في البشر ان الايمان لا يكون بالالزام، وان الكاره للشيء لا تتوجه إرادته إلى طلبه وفهم ما يدل عليه من الآيات والحجج، وان دعوة الرسل توجه الى استعمال ما أعطوا من الاستعداد للنظر و لاستدلال وهو المراد بقوله تعالى في غريزة الانسان (وهديناه النجدين) وقوله في صفة نفسه (فألهمها فجورها وتقواها

(سنته في ضلال الناس وغوايتهم)

(ش٨) قوله تعالى حكاية عنه في مجادلة قومه (٣٤ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) فيه بيان لسنته تعالى في غواية الغاوين وكفر الكافرين وضلال الضالين الخ وقد بيناها في تفسير الآيات الكثيرة التي أسند فيها اليه تعالى فعل شيء من ذلك بما خلاصته ان الاغواء والاضلال عبارة عن وقوع الغواية والضلال بسنة الله في تأثير ارتكاب أسبابهما من الاعمال الاختيارية والاصرار عليها إلى أن تتمكن من صاحبها وتحيط به خطيئته حتى يفقد الاستعداد للرشاد والهدى؛ وقد غفل عن هذه السنن علماء الكلام فطفقوا يتنازعون بينهم في خلق الله الكفر والضلال للانسان حتى يكون عاجزاً عن الايمان والعمل الصالح هل هو جائز من الخالق عقلا وشرعا وواقع فعلا، أم هو مستحيل عليه وينزه عنه لانه ظلم ينافي العدل والحكمة؟ وأي الآيات فيه يجب تأويلها؟ والحق ان شاء الله ما قلنا فلا تأويل

(ش ٩) قوله تعالى (١١٨ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) نص في أن سنته تعالى في البشر ان يتفرقوا بمقتضى الغريزة الى شعوب وقبائل ويكونوا مختلفين في العقول والافهام والمنازع، وفي اللغات والاديان والشرائع، ومتنازعين في المصالح والمنافع

﴿ الفصل الثالث في سنن الاجتماع والعمران وفيه بضعة عشر شاهداً ﴾

(سنة الله في توبة الامم من الذنوب كالافراد)

(ش ١) أمر القرآن الامم كالافراد باستغفار الرب والتوبة اليه من كل ذنب في الآيات ٣ و ٥٢ و ٩٠ وجعلها سبباً وشرطاً لما وعدها به من التمتيع المادي والفضل المعنوي في الاولى ومن إدرار الغيث وزيادة القوة في الثانية بصراحة المنطوق، وما في معناهما من حفظ النعم بدلالة المفهوم في الثالثة فالآيات الثلاث، بيان لسنة من سنن الاجتماع وهو أن الصلاح والاصلاح سبب لارتقاء الاقوام والامم وحفظها كما انه سبب لارتقاء الافراد ، والخطاب هنا للاقوام لا للافراد ، وما كل فرد يعاقب على ذنوبه في الدنيا ، ولكن كل أمة تعاقب على ذنبها في الدنيا ، وعقابها نوعان فصلناهما من قبل (أحدهما ديني) وهو ما تقدم من اهلاك أقوام الرسل بتكذيبهم لهم وظلمهم لانفسهم حسب انذارهم ، ومثاله عقاب الحكام المخالفي شرائعهم وقوانين حكومتهم (وثانيهما أثر طبيعي) اجتماعي لذنبها الذي يتحقق بفشوه فيها كما بيناه في تفسير هذه السورة وغيرها مفصلا ، ونذكره في شواهد هذا الفصل مجملا ، وقد كانت هذه السنة معروفة للمهتدين بالقرآن من سلفنا الصالح ، ومن الآثار المروية عن العباس (رض) انه لما قدمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على نفسه في صلاة الاستسقاء لتذكير المؤمنين بالنبي ﷺ لقربه وشبهه به فتخشع قا[ل] الحق كان مما قاله العباس في دعائه: اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة ... أل[خ]

أما كون الظلم والبغي والفساد في الارض سبباً لانحطاط الامم وضـ[ـعفها و]هلاكها ، فسيأتي في آخر هذا الفصل، وأما كونها سبباً لقلة المطر والقحط أو الطوفا[ن] ...نع والجوائح فليس مما ثبت في علم الاجتماع لان الانقلابات الجوية لا يعرف لها ... رغم ... عادى اتصالا بالذنوب الشخصية ولا القومية التي توصف بالاجتماعية . ولقد ... سورة هذه المسألة في العلاوة الرابعة لحادثة الطوفان (في ص ١٠٩ — ١١٤ ج ١٢ تفـ[ـسير])

(ارتقاء الامم باحسان الاعمال واتقانها)

(ش٢) قلنا في أول الفصل الذي قبل هذا ان قوله تعالى في الآية السابعة (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فيه ارشاد الى سنة من سنن الاجتماع ونقول هنا في بيانها ان من ضروريات هذا العلم ان ارتقاء الشعوب في مصالحها القومية والوطنية وفي عزتها الدولية هو أثر طبيعي لاحسان أعمالها في أسباب المعاش والثروة والقوة الحربية والتكافل والتعاون على المصالح والمقومات العامة لها ، ولا يتم ما ذكر الا بالصدق والعدل والامانة والاستقامة ، ولا تكمل هذه الا بالايمان بالله واليوم الآخر

(عقاب الامم له آجال طبيعية)

(ش ٣) قلنا أيضا ان في قوله تعالى (٨ ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه) سنة اجتماعية ونقول هنا في بيانها ان المراد بهذه السنة ان هذا العذاب له أجل عند الله معلوم ، وزمن في كتاب نظام الخلق معدود ، وهو ما يبلغ به ذنبها حده في الافساد . وقد علمت آنفا انه لا يقع عقاب الا بذنب ، ولكن الامم الجاهلة لا تعقل هذا ، وانما يعقله بعض حكمائها وقد ينذرونها وقوعه في وقته فلا تغني عنهم النذر شيئا كما يعلم من قصص الرسل وسنبسطه قريبا

(أول أتباع الرسل والمصلحين الفقراء)

(ش٤) قوله تعالى حكاية عن قوم نوح (٢٧ وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) الآية هو نص في سنة الله في السابقين الى اتباع الرسل وكذا غيرهم من المصلحين كما بيناه في تفسير الآية وفي هذه الخلاصة ، وتتمته في الشاهد التالي وهو

(فلاح الجماعات والامم بتكافل المصلحين فيها)

(ش ٥) قوله عليه السلام في جوابه لهم (٢٩ وما أنا بطارد الذين آمنوا) الآية مبني على سنن الاجتماع في الزعامة والعصبية وتأليف الجماعات التي تحدث الانقلابات في الامم ، وكون ثباتها وظفرها رهنا بايمان الجماعة التي تألفت لأجله إيمان عقلي ، ووجدان قلبي ، وتكافل عملي ، ومنه ولاية بعضهم لبعض بصفة يكون فيها خير قدوة للافراد بتفضيله أدنى المؤمنين منهم على أعظم الكبراء من غيرهم ، فأما الرسل عليهم السلام فقد هداهم الوحي إلى هذه السنة كما تقدم في

بيان سنته تعالى في عداوة كبراء الدنيا من المتكبرين لهم ، وأما زعماء الأمم في القرون الاخيرة فقد هدتهم اليها عبر التاريخ والتجارب إلى أن دون علماء فلسفة التاريخ علم الاجتماع وفصلوا فيه سننه فعملوا به ، وكان إمامهم حكيمنا العربي ابن خلدون (رح

(تنازع رجال المال ودعاة الاصلاح)

(ش ٦) في قصة شعيب مع قومه مسألة من أهم مسائل الاجتماع في العا المدني وهي التنازع بين رجال المال ورجال الاصلاح في حرية الكسب المطلق وتقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة فيه ، فقوم شعيب كانوا يستبيحون تنمية الثروة بجميع الطرق الممكنة حتى التطفيف في المكيال والميزان ، فاذا كالو أو وزنوا للناس نقصوا وأخسروا ، وإذا اكتالوا عليهم لانفسهم استوفوا وأكثروا، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم في كل أنواعها ، وكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك كله ويوصيهم بالقسط فيه واجتناب أكل أموال الناس بالباطل والقناعة بالحلال ، وكانت حجتهم حرية الكسب مقرونة بحرية الاعتقاد كما حكاه الله عنهم بقوله (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء) وتقدم الاستشهاد بهذه الآية في الكلام على رذيلة التقليد ورذيلة استحلال أكل أموال الناس بالباطل ، والكلام على فضيلة حرية الاعتقاد ومنع الاكراه في الدين ، ونذكره شاهداً على كون هذا التنازع بين أهل الحق والفضيلة وبين أهل الباطل والرذيلة ، من سنن الاجتماع المعروفة ، والانبياء ينصرون والفضيلة بالوعظ والارشاد المؤيدين بالحجة ووسائل الاقناع ، لا بالقوة و الاكراه ، ومن كان له منهم شريعة مدنية كموسى ومحمد عليهما الصلاة والس كانت جامعة للوازعين : وازع النفس بمقتضى الايمان ، ووازع الشرع الاعتداء على حقوق الناس ، وما زال التنازع المالي أعقد مشاكل الاجتماع ، و بعض علماء الاقتصاد ان الاصلاح المالي أعظم أسس الاسلام ، ولاجله كبراء قريش بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتقدم تفصيل هذا في خلاصة التوبة وفي كتاب الوحي المحمدي

(سننه تعالى فى جعل العاقبة للمتقين)

(ش ٧) قوله تعالى (٤٩ إن العاقبة للمتقين) هو الاساس الاعظم لسنن الاجتماع في فوز الجماعات الدينية والسياسية والشعوب والأمم في مقاصدها وغلبها على خصومها ومناوئيها ، كما أنه هو الاساس الراسخ لفوز الافراد في أعمالهم الدينية والدنيوية من مالية واجتماعية ، فهذه الجملة البليغة آية من آيات كتاب الله الكبرى في جمع الحقائق الكثيرة، في المقاصد المختلفة في كلمة وجيزة ، ولئن سألت أكثر علماء الدين في الازهر وأمثاله ممن لا بضاعة لهم في علم القرآن إلا مثل تفسير البيضاوي وما دونه كالجلالين وحواشيه وكذا تفسير الآلوسي الجامع لخلاصة هذه التفاسير ، فقلت لهم ما معنى كون العاقبة للمتقين؟ وما التقوى التي جعلها هذا النص علة لكون العاقبة لهم على قاعدتكم في تعليق الحكم على المشتق؟ ليقولن أوسعهم اطلاعا: إن التقوى فعل الطاعات وترك المعاصي، أو امتثال الاوامر واجتناب النواهي، وان الله وعد هؤلاء بحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وهذا تفسير مجمل مبهم يمكن اختصاره بأن تقول :المتقون هم المسلمون الصالحون، وماذا عسى أن يقول قارئو هذه التفاسير على قلتهم غير هذا أو ما في معناه وقد قصر كل مؤلفيها فيما يجب من البيان التفصيلي لها في تقوى الافراد والجماعات وتقوى الامة ؟ فانه لم يشر أحد منهم إلى معناها العام وهو اتقاء كل ما يفسد العقائد والاخلاق والروابط الخاصة والعامة وتحري ما يصلحها بهدي الكتاب والسنة وما أرشد إليه من سنن الله تعالى في حياة الامم وموتها ، وقوتها وضعفها ، وبقاء دولها وزوالها ، وكون هذه السنن مطردة في جميع الشؤون العامة من منزلية ومدنية ومالية وحربيــة وسياسية ، لا تبديل لها ولا تحويل ، ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل ، وبهذا كله تكون العاقبة المرجوة لهم في السيادة والسعادة ، وقد بينا هذا المعنى في مواضع من هذا التفسير لعل أجمعها وأدقها بالاجمال تفسير قوله تعالى (٢٩:٨ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) الآية[1] ومن التفصيل له ما ترى في هذه الشواهد

(١) راجع تفسيرها في ص ٦٤٧-٦٥٠ من جزء التفسير التاسع

(نهي اولى الاحلام عن الفساد يحفظ الامة من الهلاك)

(ش٨) قوله تعالى (١١٦ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض) جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الامم بظلمهم وإفسادهم في الارض الاعلام بأنه لو كان فيهم جماعات وأحزاب أولوا بقية من الاحلام والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك لما فشا فيهم، وأفسدهم وإذن لما هلكوا، فان الصالحين المصلحين في الارض هم الذين يحفظ الله بهم الامم من الهلاك ماداموا يطاعون فيها بحسب سنة الله، كما أن الاطباء هم الذين يحفظ الله بهم الامم من فشو الامراض والاوبئة فيها مادامت الجماهير تطيعهم فيما يأمرون به من أسباب الوقاية قبل حدوث المرض، ومن وسائل العلاج والتداوي بعده، فاذا لم يمتثل الجمهور لأمرهم ونهيهم فعل الفساد فعله فيهم، وقد فهم الوعاظ والفقهاء من خلفنا الجاهل خلاف ما كان يفهمه السلف الصالح من بركة الصالحين المتقين وحفظ الله الامم بهم، فظنوا ان المراد بهم الذين يكثرون من الصيام والقيام وقراءة الاوراد والاحزاب، كما قال الشاعر، وضرب الشيخ احمد بن حجر الهيتمي المثل بقوله في الزواجر

لولا أناس لهم ورد يقومونا ... وآخرون لهم سرد يصومونا
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحراً ... فانكم قوم سوء لا تطيعونا

كلا، ان من أصحاب الاوراد من يقوم ليله بورد من تشريع مبتدع هو به عاص لله تعالى لعبادته بغير ما شرعه، فكان ممن قال فيهم (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم) أي بهلاكهم وفي الحديث «رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه الا السهر»(١) كم من مضل هو مصداق لحديث «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً» (٢) وكذلك كان دراويش مهدي السودان، وأمثالهم من المسلمين الجاهلين لهداية القرآن، فنكل بهم الافرنج بمساعدة الفاسقين من المسلمين واستولوا على بلادهم. وقد علمنا من أخبار هذا المهدي أنه كان على علم وبصيرة

---

(١) رواه ابن ماجه بهذا اللفظ واحمد والحاكم بتقديم وتأخير
(٢) رواه احمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفا وابن جرير عنه مرفوعا

في صلاحه و لكن قواده لم يكونوا بعده مثله، وصلاح دراويشه لا بصيرة فيه ولا علم ،

كلا أن المراد بالصالحين الذين يحفظ الله بهم الامم هم الذين قال الله فيهم (٢١:١٠٥ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) وهم المتقون الذين قال فيهم (٧:١٢٨ ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وقال (٢٤:٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية ، وقد تقدم الكلام فيهم قريبا ، وان الله لا يحفظ الامم بذواتهم وبركة أجسادهم ، ولا بعباداتهم الشخصية القاصر نفعها عليهم ، بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وطاعة الامة لهم

نعم ان الله لا يهلك الامة كلها بعذاب الاستئصال مادام فيها جماعة من الصالحين ولكنه يعذبها بذنوبها فيما عدا ذلك مما فصلناه في علاوة قصة الطوفان الرابعة

(الطغيان والركون الى الظالمين سبب الحرمان من النصر)

(ش ٩) قوله تعالى (١١٣ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) وقوله بعدها (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) فيهما من سنن الله تعالى في الاجتماع أن الطغيان والركون الى الظالمين من أسباب هلاك الامم وحرمانهم من النصر على أعدائهم، وهذا يشترك مع الظلم في شواهده الآتية

﴿ الشواهد ٩ ـ ١٥ على اهلاك الامم بالظلم ﴾

(في الآيات ١٠٠ — ١٠٢ و١١٢ و١١٣ و١١٦ و١١٧)

أولها في هذا السياق قوله عز وجل لرسوله خاتم النبيين (١٠٠ تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) والثانية (١٠١ وما ظلمناهم) أي باهلاكهم بل أنذرناهم عاقبة ظلمهم (ولكن ظلموا أنفسهم) ظلما عاما فكان هلاكهم عاما، وكان أكبر ظلمهم الشرك ، فكانوا يدعون آلهتهم أن تدفع عنهم العذاب فاتكلوا عليها في دفع ما أنذرهم الرسل (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء) الآية

هذا معنى لا ينكره فيه أحد يدعي التوحيد والايمان بالقرآن ، ولكن كثيراً من الجاهلين بعقائد القرآن اذا بينت لهم مايخالف تقاليدهم منها أنكروه، وأول ما ينكرونه أساسها الاعظم وهو توحيد الله ومعنى الشرك به منها، إذ هم يظنون أن شرك أولئك الاقوام عبارة عن عبادة أصنام وأوثان من الجماد يتكلون عليها لذاتها، فاذا قيل لهم إن أصله الغلو في الصالحين ولاسيما الميتين منهم واعتقاد تصرفهم في الكون ودعاؤهم في طلب النفع ودفع الضر، وان مثله أو منه ما كان يحكى عن مسلمي بخارى أن شاه نقشبند هو الحامي لها فلن تستطيع الدولة الروسية الاستيلاء عليها، وما كان يحكى عن مسلمي المغرب الاقصى من حماية مولاي ادريس لفاس وسائر المغرب أن تستولي عليها فرنسة ، أنكروا على القائل إن هذا كذلك، وقالوا انما هو توسل بجاه الاولياء عند الله ، وليس من المنكر أن يدفعوها بكراماتهم. فكرامة الاموات ثابتة كالاحياء ، وقد بينا لهم جهلهم هذا بتبديل الاسماء، ومخالفته لكتاب الله تعالى وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح من الامة في فتوحاتهم وتأسيس ملكهم وحفظه، وخصصنا اخواننا أهل المغرب الاقصى بالانذار منذ أنشيء المنار ، وأرشدناهم إلى تنظيم قواتهم الدفاعية العسكرية ، وطلب الضباط لهم من الدولة العثمانية ، وإلى العلوم والفنون المرشدة إلى القوة والثروة والنظام، وإلا ذهبت بلادهم من أيديهم قطعا. فقال المغرورون لهم من أهل الطرائق القِدَد بلسان حالهم أو مقالهم : إن صاحب المنار معتزلي منكر لكرامات الاولياء ، وما هو بمعتزلي ولا أشعري، بل هو قرآني سني، وها هي ذي فرنسة استولت على بلادهم كما أنذرهم، وظهر ان أكبر مشايخ الطريق نفوذاً ودعوى للكرامات بالباطل كالتجانية كانوا ومازالوا من خدمة فرنسة ومساعديها على فتح البلاد واستعباد أهلها أو اخراجهم من دين الاسلام الى الالحاد أو النصرانية من حيث يدرون أو لا يدرون

يجهل أمثال هؤلاء وغيرهم من الذين يظنون ان الشرك بالله تعالى خاص بعبادة الاصنام والاوثان ان أصل هذا الشرك هو الغلو في تعظيم الصالحين والتبرك أو التوسل بأشخاصهم لابطال سنن الله تعالى، وأولهم قوم نوح فقد كانت آلهتهم (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) رجالا صالحين غلوا في تعظيمهم بعد موتهم ووضعوا لهم الصور والتماثيل للتذكير بهم كما رواه البخاري عن ترجمان

القرآن عبد الله بن عباس (رض) فكانوا يعتقدون ان أولئك الصالحين هم الذين ينفعون ويضرون ، ويدفعون العذاب بكراماتهم أو بشفاعتهم عند الله لا تماثيلهم

بل نرى هؤلاء وأمثالهم من الذين يلجؤن إلى قبور الصالحين لدعائهم أو مايسمونه التوسل بهم في مثل ذلك يجهلون جميع عقائد القرآن وسنن الله تعالى فيه التي أجملناها في خلاصة هذه السورة من التوحيد ووظائف الرسل — إلى هذه السنن في اهلاك الظالمين ، وامثالها في غير هذه السورة . وأكبر مصائب الاسلام أن افتتان المسلمين بالصالحين الذي اتبعوا فيه سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ قد كان سبباً لالحاد فريق كبير من الذين يتعلمون علوم العصر ومنها سنن الخلق والاجتماع ومروقهم من الدين باعتقادهم ان الاسلام دين خرافي هو الذي أضاع ملك المسلمين ، حتى ان حكومة الترك الحاضرة تركت الاسلام الحق المنزه عن الخرافات وعادى رئيسها ومؤسسها القرآن والسنة ولغتهما وحروفهما بما لم يسبق له نظير في عهد الجاهلية والصليبيين (فظلت أعناقهم له خاضعين)

وخلاصة معنى الآية الثانية (١٠٢) أن أخذ الله للقرى الظالمة عند استحقاقهم له في المستقبل سيكون على نحو أخذه لها في الماضي أليماً شديداً لا هوادة ولا رحمة ولا محاباة

وخلاصة الثالثة والرابعة (١١٣و١١٤) أمر الله لرسوله بالاستقامة هو ومن تاب معه كما أمر ، ونهيهم عن الطغيان والافراط فيه ، وعن الركون إلى الظالمين من المشركين ، المشبهة حالهم في قريتهم (مكة) لحال أولئك الظالمين من أهل القرى المهلكة ، لأجل أن ينجيهم من العذاب اذا وقع عليهم ، كما أنجى أتباع أولئك الرسل قبيل اهلاك قومهم ، لأن سنته تعالى في عباده واحدة

وخلاصة الخامسة (١١٦) ان الوسيلة لمنع وقوع العذاب بالامم الظالمة هو وجود أولي بقية فيها ينهون عن الفساد في الارض فيطاعون ، إذ بفقدهم يتبع الظالمون ما أترفوا فيه فيكونون مجرمين فيهلكون ، ان لم يكن باستئصالهم فبذهاب استقلالهم

وخلاصة السادسة (١١٧) أنه لم يكن من شأن الله تعالى ولا من سنته في عباده أن يهلك القرى بظلم منه وأهلها مصلحون في أعمالهم وأحكامهم ، وهذا هو الاساس الاعظم لعلم الاجتماع في حياة الامم وموتها وعزتها وذلها ، فراجع تفسيرها

إن علماء الصحابة (رض) والتابعين وأئمة الامصار الذين ورثوا لغة القرآن بالسليقة وسنة النبي وبيانه له بالاتباع ، كانوا يفهمون هذه السنن الالهية في الخلق ويهتدون بها ، وإن لم يضعوا لها قواعد علمية وفنية لتفقيه من بعدهم فيها، ثم زالت سليقة اللغة من علماء المولدين فصاروا يفسرون القرآن بقواعد الفنون التي وضعوها للغة والدين بقدر معارفهم الممزوجة بما ورثوا وما كسبوا من الشعوب التي اهتدت بالاسلام ، ولم يكن علم الاجتماع مما دونه أحد ، فلهذا لا نرى في تفاسيرهم شيئا من هذه السنن الخاصة بسياسة الامم ، بل تنكبوا هداية القرآن فيها فكانت عاقبة أمرهم ما نشكو منه ونحاول تلافيه

﴿ الشاهد ١٦ في الاختلاف في الدين ﴾

ترى في الآيتين (١١٨ و ١١٩) * بيان سنة الله تعالى في اختلاف الامم في الدين كاختلافهم في التكوين والعقول والفهوم وحكمة جعلها في خاتمة السورة أنها أهم ما فيها من العبر للمؤمنين بالقرآن ، وهو أكمل هداية وهبها الله للانسان، لتكون كافلة كافية له الى آخر الزمان، ذلك بأن ماقبلها كله من سنن الاجتماع المبينة لاسباب فساد الافراد والامم، وقد أرشدهم القرآن لاتقائها فهو جامع لوصف أمراض البشر كلها ولوصف علاجها فمن آمن به وتدبره من الافراد والجماعات الصغرى (البيوت والفصائل والعشائر) والكبرى (الشعوب والقبائل) عمل به، ومن عمل به سلم من الفساد والهلاك حتما، وانما ينحصر الخوف عليهم في ترك العمل به، وهذا الترك اذا كان من بعض الافراد فخطبه سهل لانه إما أن يكون من جهله بالحكم الذي خالفه ودواؤه التعليم ، وإما ان يكون من فساد تربيته ودواؤه النصيحة والارشاد ، وكل منهما مفروض على اخوانه المسلمين ، فان لم يقبل النصيحة بالقول فعلاجه من جماعة المؤمنين ومن حكومتهم معروف ، وكذا اذا كان الترك من الجماعات الكبيرة أو الصغيرة للجهل أو لأسباب مالية أو عداوة شخصية، أو عصبية دنيوية ، علاج كل ذلك في القرآن ظاهر

وانما البلاء الاكبر والموت الاحمر والخطر الاسود المظلم فهو اختلاف الشيع والاحزاب في الدين والزيغ عن القرآن باتباع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

(*) هما آيتان في عد الكوفيين وآية واحدة في عد غيرهم وهو الراجح في المعنى

تأويله ، فهذا الذي أشير اليه في هاتين الآيتين بحرمان أهله من رحمة الله في قوله (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك) والمراد بهذه الرحمة في الدنيا ماوعد به المؤمنين واختصهم به في آيات كثيرة منها ماهو في رحمته المطلقة كقوله (إنه بهم رءوف رحيم * وكان بالمؤمنين رحيما) ومنها ماهو خاص برحمته بكتابه الاخير الذي أكمل به دينه وأتم على المؤمنين نعمته ، كقوله فيه (وهدى ورحمة للمؤمنين) ومنها ماهو خاص برحمته برسوله خاتم النبيين وهو وصفه تعالى إياه بما وصف به نفسه في قوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) فهذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين بالله الاول الآخر وبكتابه الاخير وبنبيه الخاتم ﷺ لا تتم لأفرادهم الا بتمام الاهتداء والاتباع لما كلفوه بقدر الاستطاعة الشخصية ، ولا تكون لجماعتهم وهي الامة إلا باعتصامها بحبل الله وعروة الوحدة الوثقى باجتناب السواد الاعظم منها لما نهوا عنه من التفرق والتنازع في الاصول القطعية من النصوص والسنة العملية ، ورد الاختلاف والتنازع في غير القطعي الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم الى ترجيح أولي الامر في المصالح العامة من السياسة والقضاء وترجيح الافراد في المسائل الاجتهادية الخاصة ، وقد فصلنا هذا في مواضعه ، فالحق فيه ظاهر ، ولكن تنفيذه يتوقف على وجود الجماعة التي أمرنا الرسول ﷺ باتباعها وعدم مفارقتها قيد شبر ، وهي جماعة (أولي الامر) وأهل الحل والعقد ، وهم الذين يثق بهم السواد الاعظم من الامة . وينوط بهم الشرع نصب الأئمة (الخلفاء) والسلاطين عليها وعزلهم ، وقد فقدوا من أمتنا باستبداد الظالمين من ملوك العصبيات المختلفة بعد ان قضى عليها الاسلام وتبرأ الرسول ﷺ ممن دعا الى عصبية وممن قاتل على عصبية . فالواجب على المصلحين وضع نظام لاعادة حكم الاسلام وقد بسطناه في (كتاب الخلافة أو الامامة العظمى)

وأختم هذه الخلاصة بحديث « شيبتني هود وأخواتها » رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر وأبي جحيفة مرفوعا وأشار في الجامع الصغير الى صحته . وروي عن بضعة نفر من الصحابة بزيادة « قبل المشيب » وبزيادة « وأخواتها من المفصل » في بعضها وبتسمية الواقعة والحاقة والمرسلات وعم يتساءلون وغيرها من سور قيام الساعة في بعض . وأسانيدها حسنة فليتدبرها المؤمنون .

١٢ – سورة يوسف عليه السلام

هي مكية وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وما قيل من أن الثلاث الاولى منها مدنيات فلاتصح روايته ولا يظهر له وجه وهو يخل بنظم الكلام، وقد راجعت الاتقان فاذا هو ينقله ويقول : وهو واه جداً فلا يلتفت اليه ، ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المصري ويزاد عليه الآية السابعة .

والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل (ع م) والاستدلال في كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالا على رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ بآيتين متشابهتين، ففي آخر قصة نوح من الاولى (١٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وفي آخر الثانية (١٠٢ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وإشارة التأنيث في الاولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة وقيل للسورة، وإشارة التذكير في الثانية لقوله تعالى في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) والفرق بين قصتها وقصص الرسل في التي قبلها وفي سورة الاعراف وغيرها ان تلك قصص للرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم، لانذار مشركي مكة ومتبعيهم من العرب، وقد كررت بالاساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الاعجاز التي تقدم بيانها في مباحث الوحي المحمدي ثم في بحث التحدي بعشر سور مثله مفتريات . وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده واكتهل فتي، وأرسل ودعا الى دينه، وكان مملوكا ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسن الادارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة كما تجمله في أولها وتفصله إن شاء الله في خاتمتها . وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت الى تمام المئة في تاريخ يوسف وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لاجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه والعبرة العامة بقصص الرسل (ع م)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الٓر ، تِلْكَ آيَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ الْغَـٰفِلِينَ

فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا وبالحكيم هنالك ،وهما في أعلى ذروة من البيان ، وأقصى مدى من الحكمة والإحكام، اختير في كل من السورتين مايناسبها ، فسورة يونس موضوعها أصل الدين وهو توحيد الالوهية والربوبية وإثبات الوحي والرسالة باعجاز القرآن والبعث والجزاء وهي من الحكمة . وهذه موضوعها قصة نبي كريم تقلب في أطوار كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها ، فالبيان بها أخص .

﴿ ١ ـ الر ، تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين الظاهر بنفسه في حقيته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر ، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا، وقال مجاهد : بين الله حلاله وحرامه ، وقال الزجاج : مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام . تقول العرب أبان الشيء فعلا لازما بمعنى ظهر واتضح . وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله من غيره مما شأنه أن يشتبه به ، ويجوز الجمع بينهما هنا كما قلنا آنفا

﴿٢ـ إنا أنزلناه﴾ أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه ﴿ قرآناعربيا ﴾ أي يبين لكم بلغتكم العربية مالم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والادب والسياسة ﴿لعلكم تعقلون﴾ معانيه أيها العرب، وماترشد اليه من مطالب الروح

ومدارك العقل ، وتزكية النفس ، وتثقيف مدارك الوجدان والحس ، واصلاح الاجتماع العام ، المراد بهاصلاح الحال ، وسعادة المآل ، والقرآن اسم جنس يطلق على بعضه كالسورة الواحدة وقيل انه المراد هنا ، وعلى جملته كلها

﴿٣ ـ نحن نقص عليك﴾ أيها الرسول المصطفى ﴿أحسن القصص﴾ أي نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بيانا وأسلوبا وإحاطة، أو أحسن مايقص ويتحدث عنه موضوعا وفائدة، ويجوز الجمع بين المعنيين. فالقصص مصدر أواسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها، لانه من قص الاثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً ، كأنه قال نقصه عن اقتصاص وإحاطة ، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول ، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الاخبار والاحاديث ﴿بما أوحينا اليك هذا القرآن﴾ أي بايحائنا اليك هذه السورة من القرآن ، إذ هو الغاية العليا في حسن فصاحته وبلاغته وتأثيره وحسن موضوعه ، ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أي وان الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه من قصتك أنت انك كنت من قبل ايحائنا إياه اليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الاميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الانبياء وأقوامهم ، وبيان ما كانوا عليه من دين وتشريع كيعقوب وأولاده في بداوتهم ، ولا ما كانت الامم فيه من ترف وحضارة كالمصريين الذين وقع يوسف بينهم، وحدث لهم ماحدث في بعض بيوتاتهم العليا ثم في بيت الملك وادارة نظام الدولة

(٤) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٥) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى

آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ،
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان ماوقع بين يوسف في طفولته ، وأبيه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فاستدل أبوه برؤياه على أنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، فتعلق به أمله وشغف به قلبه ، فكان مبدأ لكل ماحدث له من الوقائع المحرقة ، ومن العاقبة المشرقة ، فهذه الرؤيا لايظهر تأويلها الا في آخر هذه الرواية ، وأصحاب القصص المنتحلة في عصرنا يحتذون أسلوب قصة يوسف في سورته هذه بوضع خبر مشكل خفي يشغل فكر القاريء في أولها ، ويطال بانتظار وقوع مايحل اشكاله ، ويفسر مآله ، فلايصيبه الا في آخر القصة ، وقد قال النبي ﷺ « ان الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » رواه أحمد والبخاري وغيرهما ، وفي رواية «الكريم بن الكريم» الخ

﴿ ٤ ـ إذ قال يوسف لأبيه ياأبت ﴾ هذا شروع في بيان أحسن القصص فهو بدل منه يشتمل عليه . والاكثرون يعدونه بدء كلام جديد يقدرون له متعلقا: اذكر أيها الرسول اذ قال يوسف لأبيه :ياأبت الخ والتاء هنا بدل من ياء المتكلم وهو مسموع من العرب في نداء الاب والام والفصيح كسرها وسمع فتحها وضمها أيضا ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴾ في المنام بدليل مايأتي بعد ، ثم بين الصفة التي رأى عليها هذه الجماعة السماوية بقوله ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ والسجود التطامن والانحناء الذي سببه الانقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم وأصله قولهم : سجد البعير ـ إذا خفض رأسه لراكبه عند ركوبه ، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما ، واستعمل في القرآن بمعنى انقياد كل المخلوقات لارادة الله تعالى وتسخيره وهذا سجود طبيعي غير إرادي ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية من الساجد للتقرب الى من يعتقد أن له عليه سلطانا ذاتيا غيبياً فوق سلطان الاسباب المعهودة . وكان الاصل في التعبير

عن سجود هذه الكواكب التي ليس لها إرادة أن يقول رأيت كذا وكذا ساجدة لي ، ولكنه أراد أن يخبر والده أنه رآها ساجدة سجودا كأنه عن إرادة واختيار كسجود العقلاء المكلفين فأعاد فعل رأيت وجعل مفعوله ضمير العقلاء وجمع صفة هذا السجود جمع المذكر السالم ، فعلم أبوه أن هذه رؤيا إلهام ، لا يمكن أن تعد من أضغاث الاحلام ، التي تثيرها في النوم الخواطر والافكار ، ولا سيما خواطر غلام صغير كيوسف يخاف أبوه أن يأكله الذئب ، وفي سفر التكوين أنه كان قد بلغ السادسة عشرة وهو بعيد

٥ـ ﴿ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ يا بني تصغير لكلمة ابن في نداء العطف والتحبب ، وقص الرؤيا على فلان كقص القصة معناه أخبره بها على وجه الدقة والاحاطة كما تقدم آنفا ، وقد يفهم منه المعبر البصير المعنى المناسب للرائي القاص أو المعنى الذي تؤول اليه في المستقبل إذا كانت رؤيا حق كما يقع للانبياء عليهم السلام قبل وحي التكليم ومقدماته ، وقد فهم هذا يعقوب واعتقد أن يوسف سيكون نبياً عظيما ذا ظهور وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته ما سمعه ويفهموا ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا لاهلاكه فنهاه أن يقص رؤياه عليهم وعلله بقوله ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي إن تقصصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للايقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية ، كما يفعل الاعداء في المكايد الحربية ، يقال كاده إذا وجه اليه الكيد مباشرة ، وكاد له اذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا ، أو لمنفعته ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لابقاء أخيه عنده (كذلك كدنا ليوسف) وسيأتي بيان هذه المقابلة

﴿ إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة بينهما لا تفوته فرصة لها فيضيعها . هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عند ما تعرض له داعية من هوى النفس وشرها الحسد الغريزي في الانسان ، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) وفي قصته من سفر التكوين

أن يوسف قص رؤياه على أبيه وإخوته جميعا من أول وهلة . وما قصه الله هو الحق الذي روي بالتواتر القطعي وسفر التكوين غير مروي بالاسانيد المتصلة المتواترة، ولا دليل على أن أصله وحي من الله تعالى، ولكنه كتاب قديم التاريخ له قيمة لا تعصمه من الخطأ

٦ ـ ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ أي ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك ، يجتبيك ربك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم فتكون من عباده المخلصين (بفتح اللام كما وصفه الله فيما يأتي قريبا) فالاجتباء افتعال من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك ، والجباية جمع الشيء النافع كالماء في الحوض والمال للسلطان ولي الامر ﴿ ويعلمك من تأويل الاحاديث ﴾ أي يعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤى وتعبيرها أي تفسيرها بالعبارة والاخبار بما تؤول اليه في الوجود، وهو تأويلها كما سيأتي حكاية لقول يوسف لابيه (هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) أو ماهو أعم من ذلك من معاني الكلام ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، وقال بعض المفسرين وتبعه غيره إن الرؤيا حديث الملك إن كانت صادقة وحديث الشيطان إن كانت كاذبة، وهذا القول يخالف الواقع فان رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر ، وانما سميت رؤيا لانها عبارة عما يرى في النوم كما أن الرؤية اسم لما يرى في اليقظة فهما كالقربة والقربى وفرق بينهما للتمييز، وقد يسمع رائيها أحاديث رجل يحدثه ولكن تأويل رؤياه يكون لجملة ما رآه وسمعه لا لما سمعه فيها فحسب ، كما يقصه بحديثه على من يعبره له . أي يعبر به من مدلول حديثه اللفظي إلى مايؤول اليه، وقد يكون قريبا كرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك، وقد يكون بعيداً كتأويل رؤيا يوسف نفسه ، ولفظ الاحاديث اسم جمع سماعي كالأباطيل . والرؤيا الصادقة ضرب من إدراك نفس الانسان أحيانا لبعض الاشياء قبل وقوعها باستعدادها الفطري ، إما بعينها وهو قليل ، وإما بمثال يدل عليها وهو المحتاج إلى التأويل، وسنبين الفرق بين الرؤيا الصادقة وبين أضغاث الاحلام ، ورأي علماء الافرنج ومقلديهم فيها في خلاصة السورة الاجمالية إن شاء الله تعالى ،

وتعليم الله التأويل ليوسف إيتاؤه إلهاما وكشفا للمراد منها أو فراسة خاصة فيها، أو علما أعم منها، كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن (١٢ : ٣٦ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي) روي عن ابن زيد انه قال في تأويل الاحاديث: تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس، وقال الزجاج تأويل أحاديث الامم السالفة والكتب المنزلة

زعم الزمخشري وتبعه مقلدوه ان هذه الجملة كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل وهو يملك ويتم نعمته عليك وبنى هذا على ما فهمه من دلالة الرؤيا على الاجتباء فقط، وما هذا الفهم إلا من تأثير قواعد النحو، والذي نجزم به ان يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما مجملا كل مابشر به ابنه رائيها، وأما كيد اخوته له اذا قصها عليهم فقد استنبطه استنباطا من طبع الانسان، وعداوة الشيطان. فلما حذره من الاستهداف لذلك باثارة حسدهم، ثنى عليه ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه الخاص به، ومن تأويل الاحاديث وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس الى رفعة قدره وعلو مقامه، فهو معطوف على الاجتباء مشترك معه في البشارة

ثم عطف عليه ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ وهم أبواه وإخوته وذريتهم (وأصل الآل أهل بدليل تصغيره على أهيل، وهو خاص في الاستعمال بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل الملك ويقال لغيرهم أهل) باخراجهم من البدو، وتبوئهم المقام الكريم بمصر، ثم بتسلسل النبوة في أسباطهم الى أجل معلوم ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ أي من قبل هذا العهد أو من قبلك ﴿ ابراهيم واسحق ﴾ هذا بيان لكلمة أبويك وهما جده وجد أبيه، وقدم الاشرف منهما، وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم يا ابن عبد المطلب بل قالها هو أيضا، وهذا التشبيه مبني على ما كان يعلمه يعقوب من وعد الله لابراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وانما علم من رؤيا يوسف انه

هو حلقة السلسلة النبوية الاصطفائية بعده من أبنائه ، فلهذا علل البشارة بقوله ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يصطفيه حكيم باصطفائه، وبإعداد الاسباب وتسخيرها له، وكان هذا العلم من يعقوب بما بشر الله به أبويه لها ولذريتهما، وبدلالة رؤيا يوسف على أنه هو حلقة السلسلة الذهبية لهم ، هو السبب كما قلنا لزيادة حبه له وعطفه وحرصه عليه، الذي هاج ما كان يحذره من حسد اخوته وكيدهم له، ولكونه لم يصدق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص ايمانه بما أعده الله له ولهم به، ولكن علمه بذلك كان اجماليا لا تفصيليا ، وقد جاءت قصته من أولها الى آخرها مفصلة لهذا الاجمال ، تفصيلا هو من أبدع بلاغة القرآن ، وزاد بعض المفسرين في التشبيه إنجاء إبراهيم من النار وإنجاء اسحق من الذبح ، ولكن التحقيق أن الذبيح إسماعيل لا اسحق كما يدل عليه قوله تعالى بعد قصته من سورة الصافات (وبشرناه باسحق) وكون القصة كانت في الحجاز وهي الاصل في اضاحي منى هناك ، وإنما الذي نشأ في الحجاز اسماعيل لا اسحق كما هو معلوم بالتواتر

---

(٧) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٨) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ

هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما في صفة القرآن وكونه تنزيلا من الله دالا على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلا عما جاء فيه لا يدري منه شيئا ، ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى (١٠٢ ذلك من أنباء الغيب) الخ

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما إجماليا كليا كما بيناه آنفا، وبنى عليه ان حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته، وبشره بحسن عاقبته، ونتيجة هاتين القضيتين ماقاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له (١٠٠ ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) الخ

فمثل هذا الترتيب المنطقي العقلي البديع يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والاحاطة بدقائقها ، ثم على وضع ترتيب يتسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكاملة، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لأجلها، فتجعل الاولى براعة مطلع ، والآخرة براعة مقطع ، فقل لمن جهل سيرة محمد ﷺ وتاريخه : إن محمدا لم يكن قارئا ولا كاتبا ، ولا خطيبا ولا شاعرا ، ولا مؤرخا ، ولا راويا، ولا حافظا للشعر ولا ناثرا ، بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ماجاء في القرآن، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئا، فنهي عن ذلك عندما عرض له في أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى (٧٥ : ١٦ لاتحرك به لسانك لتعجل به ١٧ إن علينا جمعه وقرآنه ١٨ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ١٩ ثم إن علينا بيانه) وبقوله (٢٠ : ١١٤ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما) وقوله (سنقرئك فلا تنسى) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلما ضمن ربه له أمن ضياع شيء منه بعدم حفظه عند تلقيه ، أو نسيانه بعده ، زال خوفه ، وترك الاستعجال بقراءته

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المكية حتى الطول منها كسورة الانعام فلم يكن يدري من هذا الترتيب والنسق لها ولا من موضوعها شيئا قبل وحيها ، ولا يحيط به إلا ان يكمل له تلقيها عن الروح الأمين عليهما السلام ، ولكن العجب أن يغفل عنه أو يجهله أحد من المفسرين فرسان البلاغة الفنية ، والآن وقد بينته لقارىء هذا التفسير ليفطن لدلالة السورة بنظمها وبلاغتها على إعجاز القرآن اللفظي ، وبما فيها من التشريع وعلم الغيب على إعجازه المعنوي، وبالاعجازين كليهما على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ،

أشرع في تفسير القصة متبرئا من حولي وقوتي إلى حول الله وقوته ، وهي :

٧ ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم ، للسائلين عنها،من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها،لانهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فان للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فاخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل الى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله،ولولم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لاخفاء هذا الامر ،ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وولاه وجعله على خزائن الارض،ولولم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه واخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقا، وباطنها مشرقا ، وبدايتها شرا وخسرا ، وعاقبتها خيرا وفوزا ،وصدق قول الله عز وجل (والعاقبة للمتقين)

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة ، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له ، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله (وإنه لذو علم لما علمناه) الآية ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان . ومن علم يوسف بتأويل الاحاديث ، ومن رؤيته لبرهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على

أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة ، في القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني ، وهي أخفى مما قبلها ، وأحق بالسؤال عنها .

وقيل ان المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاؤا مكة وسألوا النبي ﷺ سؤال امتحان عن نبي كان بالشام أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة ، وروي ان بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف ، وروي ان بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الأحد عشر التي رآها يوسف في منامه ولم يكن يعرفها فنزل عليه جبريل فلقنه اياها فجاءت موافقة لما في التوراة ، وذكروا هذه الاسماء في تفاسيرهم ، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد ﷺ ولا يصح من هذه الروايات شيء بل هي من الاسرائيليات ، وليس في التوراة ذكر لأسماء هذه الكواكب ، وقصة يوسف في القرآن موافقة بالجملة مافي سفر التكوين ومخالفة له في بعض دقائقها وسنذكر من ذلك غير ماذكرنا آنفا

---

٨ ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أي ان في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدؤا فيه بقولهم جازمين مقسمين : ليوسف وأخوه الشقيق له واسمه بنيامين ، أحب الى أبينا منا كلنا(١) ﴿ونحن عصبة﴾ أي يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما والحال اننا نحن عصبة عشرة رجال أقوياء أشداء معتصبون نقوم له بكل مايحتاج اليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿ان أبانا لفي ضلال مبين﴾ انه لفي تيه من المحاباة لهما ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالا بينا لايخفى على أحد ، اذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لايقومان له بخدمة نافعة ، على العصبة أولي القوة والكسب والنجدة . وهذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين وخطأ كبير ، لعل سببه اتهامهم اياه بافراطه في حب أمهما من قبل ، فيكون منشأه الاول اختلاف

---

(١) الاخبار باسم التفضيل مفرداً كما هنا يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثا ، والمعرف بأل تجب فيه المطابقة وبالاضافة يجوز فيه الوجهان.

الامهات بتعدد الزوجات ولا سيما الاماء منهن (*) وهو الذي أضلهم عن غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الاولاد وضعافهم وكانا أصغر أولاده ، فقد سئل والد بليغ : أي ولدك أحب اليك ؟ قال صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يشفى ، وفقيرهم حتى يغنى (واشك في هذه الاخيرة)

ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداراة الاولاد وتربيتهم على المحبة والعدل واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول اهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى ، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقا ، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الاخلاق والتقوى والعلم والذكاء . وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا ، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم الا من علمه بما يجب فيه . ولكن ما يفعل الانسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟ كلا

دلائل العشق لا تخفى على أحد   كحامل المسك لا يخلو من العبق

﴿ ٩ ـ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ﴾ أي اقتلوه قتلا لامطمع بعده ولا أمل في لقائه ، أوانبذوه كالشيء اللقا الذي لا قيمة له في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا أو عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة الى أبيه سبيلا إن هو سلم فيها من الهلاك ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فيكن كل توجهه اليكم ، وكل اقباله عليكم ، بخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشارككم في عطفه وحبه ، وهذه الجملة من فرائد

(*) كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولدا ذكرا وهم (١) رأوبين بكر يعقوب (٢) وشمعون (٣) ولاوي (٤) ويهوذا (٥) ويساكر (٦) وزبولون وهؤلاء من ليئة بنت خاله لابان (٧) ويوسف (٨) وبنيامين من راحيل بنت خاله الأخرى وهما أصغر اولاده (٩) ودان (١٠) ونفتالي من بلهة جارية راحيل (١١) وجاد (١٢) واشير من زلفة جارية ليئة. وهؤلاء الاولاد ولدوا له وهو في فدان ارام يرعى غنم خاله لابان مهرا لابنتيه ليئة وراحيل واجرا لما زاده من خدمته في رعيها وعاد بهم بعد انقضاء الاجل وبما أخذ من غنم خاله إلى أرض كنعان إلا بنيامين فقد ولد في كنعان

درر الكلام البليغ بتصويرها حصر الحب وتوجه الاقبال والعطف بصورة الضروريات التي لا اختيار للرأي ولا للارادة فيها ، لا من ظاهر الحس ، ولا من وجدان النفس ، بعد وقوع هذه الجناية التي تقتضي إعراض الوجه ، وأعراض الكراهة والمقت ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ أي من بعد يوسف أو بعد قتله وتغريبه ﴿ قوما صالحين ﴾ تائبين الى الله من هذه الجريمة ، مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها ، وعدم التصدي لمثلها ، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم ، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى ولا يزال ينزغ له ويسول ، ويعد ويمني ويأول ، حتى يرجح داعي الايمان ، أو يجيب داعي الشيطان ، وهذا الذي غلب على اخوة يوسف فكان ، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام ، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله :

١٠ ﴿ قال قائل منهم ﴾ أبهمه القرآن لان تعيينه بتسميته لا فائدة منها في عبرة ولا حكمة ، وانما الفائدة في وصفه بأنه منهم ، وهي أنهم لم يجمعوا على جناية قتله ، وقال السدي انه يهوذا ، وفي سفر التكوين انه رأوبين ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴾ الجب البئر غير المطوية أي غير المبنية من داخلها بالحجارة وهو مذكر والبئر مؤنثة وتسمى المطوية منها طويا ، وغيابته بالفتح ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلى فيه لاخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خلل عرض له ، وعلم من التعريف انه جب معروف كان هنالك حيث يرعون ، وجواب ألقوه ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ وهم جماعة المسافرين الذين يسيرون في الارض يقطعون الارض من مكان إلى آخر لأجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الاقطار البعيدة فيتم لكم الشق الثاني مما اقترحتم وهو إبعاده عن أبيه ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ما هو الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب ، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها ، فعلام اسخاط الله باقترافها والغرض يتم بما دونها ؟ وفي سفر التكوين ان رؤبين مكر بهم اذ كان يريد أن يخرجه من الجب ويرجعه الى أبيه ، وانهم وضعوه في البئر وكانت فارغة لا ماء

فيها ، فمرت بهم سيارة من تجار الاسماعيليين (العرب) مسافرة الى مصر فاقترح عليهم يهوذا اخراجه وبيعه لهم اذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا ، فهذا مادار بينهم وأجمعوه من أمرهم

---

(١١) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ
(١٢) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٣) قَالَ إِنِّي
لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ
(١٤) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ

هذا بيان مستأنف لما كادوا به أباهم بعد ائتمارهم بيوسف ليرسله معهم وهو الحق ، وفي سفر التكوين ان أباهم هو الذي أرسله اليهم بعد ذهابهم

١١ ﴿ قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف ﴾ يعنون أي شيء عرض لك من الشبهة في أمانتنا فجعلك لاتأمنا على يوسف ؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ماكان من رؤيا يوسف ويظهر انهم قد علموا بها ، كما انه شعر منهم بالتنكر له على حد قول الشاعر * كاد المريب بأن يقول خذوني * ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ أي والحال إنا لنخصه بالنصح الخالص من شائبة التفريط أو التقصير ، أكدوا هذه الدعوى بالجملة الاسمية المصدرة بان وتقديم « له » على خبرها واقترانه باللام . ولولا شعورهم بارتيابه فيهم لما احتاجوا الى كل هذا التأكيد

١٢ ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ أي أرسله معنا غداة غد اذ نخرج كعادتنا الى مراعينا في الصحراء يرتع معنا ويلعب . وقريء في المتواتر أيضا نرتع ونلعب بنون الجماعة وهي مفهومة من قراءة الياء فان المراد من خروجه معهم مشاركته اياهم في رياضتهم وأنسهم وسرورهم بحرية الاكل واللعب والرتوع وهو

أكل ما يطيب لهم من الفاكهة والبقول وأصله رتع الماشية حيث تشاء . قال الزمخشري في الكشاف (نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها وأصل الرتعة الخصب والسعة اهـ وأما لعب أهل البادية فأكثره السباق والصراع والرمي بالعصي والسهام إن وجدت.

وسيأتي ان لعبهم كان الاستباق بالعدو على الأرجل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ مادام معنا نقيه من كل سوء وأذى ، أكدوا هذا الوعد كسابقه مبالغة في الكيد

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) أرسله معنا غداً نرتع ونلعب . قال نسعى وننشط ونلهو . وعن ابن زيد [يرتعي بالياء وكسر العين قال يرعى غنمه وينظر ويعقل ويعرف مايعرف الرجل] وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن هارون قال كان أبو عمرو يقرأ (نرتع ونلعب) بالنون فقلت لأبي عمرو كيف يقولون [نرتع ونلعب] وهم أنبياء ؟ قال لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقد توسع بعض المفسرين في هذه المسألة وعدوها مشكلة لظنهم ان اللعب غير جائز وقوعه من الانبياء . والتحقيق ان من اللعب ما هو نافع فهو مباح أو مستحب ، ومنه ملاعبة الرجل لزوجه وملاعبتها له كما ورد في الحديث الصحيح ، وأن اخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده كما حققناه في محله ، وإن من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح في نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لاخيهم والائتمار بقتله وتعمد إيذائه وفجيعة أبيهم به وكذبهم عليه وغير ذلك من كبائر المعاصي !!

١٣ ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي قال أبوهم جوابا لهم : اني ليحزنني ذهابكم به بمجرد وقوعه ، والحزن ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه ، وفعله من باب قتل في لغة قريش وتعديه تميم بالهمزة واللام في قوله ليحزنني للابتداء

﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ والخوف ألم النفس مما يتوقع من مكروه قبل أن يقع ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ أي في حال غفلة منكم عنه واشتغال عن مراقبته وحفظه بلعبكم ، قيل لو لم يذكر خوفه هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولعله قاله من باب الاحتياط أو الاعتذار بالظواهر ، وإن كان يعلم حسن عاقبته في الباطن ، على

عليه هذا كان مجملا مبهما ومقيدا بالاقدار المجهولة كما أشرنا اليه من قبل

١٤ ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي والله لئن اختطفه الذئب من بيننا وأكله والحال اننا جماعة شديدة القوى تعصب بنا الامور، وتكفى بيأسنا الخطوب ﴿إنا إذن لخاسرون﴾ وخائبون في اعتصابنا أو هالكون لا يصح أن نعد من الاحياء الذين يعتد بهم ويركن اليهم، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط

أجابوه عما يخافه بما يرجون أن يطأمنه، وأما حزنه فلا جواب عنه لانه في حد ذاته لا بد منه وليس في استطاعتهم منعه، إذ هو لازم لفراقه له ولو فراقا قليلا فيه منفعة ليوسف في صحته بترويض جسمه في ضحى الشمس وهبوب الرياح وحركة الاعضاء في زمن قصير يعود بعده فيزول حزنه ويكون سروره مضاعفا لو صدقوا

---

(١٥) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٦) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٧) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٨) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

هذه الآيات الاربع في بيان ما نفذوا به عزمهم بالفعل، وما اعتذروا به لأبيهم من كذب، وما قابلهم من تكذيب وصبر، واستعانة بالله عز وجل: قال

١٥ ﴿فلما ذهبوا به﴾ في الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباه عن امساكه

عنده ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ أي أزمعوه وعزموا عليه عزما اجماعيا لا تردد فيه بعد ما كان من اختلافهم قبل في قتله أو تغريبه ، وجواب « لما » محذوف للعلم به مما قبله ومما بعده وتقديره نفذوه بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿ وأوحينا اليه ﴾ عند إلقائه فيه وحيا إلهاميا علم أنه منا مضمونه: وربك ﴿ لتنبأنهم بأمرهم هذا ﴾ معك إذ يظهرك الله عليهم ويذلهم لك ويجعل رؤياك حقا ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يومئذ بما آتاك الله ، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك ، أو بهذا الوحي في الجب وهو الرتبة الاولى من مراتب التكليم الالهي للانبياء بعد التمهيد له بالرؤيا الصادقة . وقد هون الله تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن ، وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا مالا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الاسرائيليات المنفرة من الاسلام والمسلمين

١٦ ﴿ وجاؤا أباهم عشاء يبكون ﴾ أي جاءوه في وقت العشاء إذ خالط سواد الليل بقية بياض النهار فجاءه حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يبغون وقد بينه تعالى بقوله:

١٧ ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي ذهبنا من مكان اجتماعنا الى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره ، فالاستباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق ومنه (فاستبقوا الخيرات) فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب ، وقوله الآتي في هذه السورة (واستبقا الباب) كان يقصد به يوسف الخروج من الدار هربا من حيث تقصد امرأة العزيز باتباعه إرجاعه، وصيغة المشاركة لا تؤدي هذا المعنى ، ولم يفطن الزمخشري علامة اللغة ومن تبعه لهذا الفرق الدقيق ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ من فضل الثياب وماعون الطعام والشراب

(مثلا) يحفظه إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذي يرهق به قوانا ﴿ فأكله الذئب ﴾ إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي بمصدق لنا في قولنا هذا لاتهامك إيانا بكراهة يوسف وحسدناله على تفضيلك إياه علينا في الحب والعطف ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ في الامر الواقع أو نفس الامر ، أو ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذا الخبر لشدة وجدك بيوسف

١٨ ﴿ وجاؤا على قميصه بدم كذب ﴾ المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاؤا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلا على كذبهم ، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه ، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل، ومنه * فهن به جود وأنتم به بخل * وقال « على قميصه » ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعا متكلفا ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقا والدم متغلغلا في كل قطعة منه ، ولهذا كله لم يصدقهم ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره : إن الذئب لم يأكله بل سهلت لكم الامارة بالسوء أمراً إمراً ، وكيداً نكراً ، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه ، أي هـذا أمركم وأما أمري معكم ومع ربي ﴿ فصبر جميل ﴾ أو فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله ، القانطين من رحمة الله ، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها غيره أحدا منكم ولا من غيركم

هذا هو الفصل الاول من قصة يوسف وهو صفوة الحق من أحسن القصص بما فيه من الدقة والعبرة ، وقد شوهه رواة الاساطير والمفتريات الاسرائيلية بما ظنوا انه من أخبار التوراة وما هو منها ومن شاء فليقرأ هذا الفصل من قصة يوسف في سفر التكوين ليرى الفرق البعيد بين كلام الله وكلام البشر ، وليعلم المغرور

بما نقله المفسرون من الاسرائيليات فيها كالسدي الكبير الذي هو أقل كذبا وأكثر إتقانا لاساطيره من السدي الصغير، أن كل ما فيها من الزيادة لا أصل له عند أهل الكتاب، ولا هو مروي عن نبينا ﷺ فهو كذب صراح (*)

(*) الفصل أو الاصحاح ٣٧ من سفر التكوين

وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان ٢ هذه مواليد يعقوب. إذ كان يوسف ابن سبع عشرة سنة وكان يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه. وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة الى أبيهم ٣ وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصا ملونا ٤ فلما رأى إخوته ان أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ٥ وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له ٦ فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ٧ فها نحن حازمون حزما في الحقل واذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ٨ فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا، وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه ٩ ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على اخوته، فقال إني قد حلمت حلما أيضا واذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لي ١٠ وقصه على أبيه وعلى اخوته فانتهره أبوه وقال له ماهذا الحلم الذي حلمت؟ هل نأتي انا وأمك واخوتك لنسجد لك الى الأرض ١١ فحسده اخوته وأما ابوه فحفظ الأمر ١٢ ومضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم (١) ١٣ فقال اسرائيل ليوسف أليس اخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك اليهم، فقال له ها أنذا ١٤ فقال له اذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً، فأرسله من وطاء حبرون (٢) فأتى الى شكيم ١٥ فوجده رجل واذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلا ماذا تطلب ١٦ فقال انا طالب اخوتي أخبرني أين يرعون؟ ١٧ فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون لنذهب الى دوثان، فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان ١٨ فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه ١٩ فقال =

(١) شكيم هذه في محل نابلس اليوم (٢) هي مدينة الخليل والوطاء الوادي.

(١٩) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ
هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَشَرَوْهُ
بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ

= بعضهم لبعض هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم ٢٠ فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ٢١ فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله ٢٢ وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً، لكي ينقذه من أيديهم ليرده الى أبيه ٢٣ فكان لما جاء يوسف الى إخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذي عليه ٢٤ وأخذوه وطرحوه في البئر، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ٢٥ ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا واذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر ٢٦ فقال يهوذا لأخوته ما الفائدة ان نقتل أخانا ونخفي دمه ٢٧ تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه اخونا ولحمنا فسمع له اخوته ٢٨ واجتاز رجال مديانيون تجار، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف الى مصر ٢٩ ورجع رأوبين الى البئر واذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ٣٠ ثم رجع الى اخوته وقال الولد ليس موجوداً وانا الى أين أذهب ٣١ فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص في الدم ٣٢ وأرسلوا القميص الملون وأحضروه الى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا؟ ٣٣ فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله، افترس يوسف افتراسا ٣٤ فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة ٣٥ فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال اني أنزل الى ابني نائحا الى الهاوية وبكى عليه أبوه ٣٦ وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط

هاتان الآيتان في استعباد قافلة من التجار ليوسف (ع . م) والاتجار به

١٩ ﴿ وجاءت ﴾ ذلك المكان الذي كانوا فيه ﴿ سيارة ﴾ صيغة مبالغة من السير (كجوالة وكشافة) أي جماعة أو قافلة وفي سفر التكوين أنهم كانوا من الاسماعيليين أي من العرب ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ المختص بورود الماء للاستقاء لهم ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسله ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف فلما خرج ورآه ﴿ قال يابشرى هذا غلام ﴾ يبشر به جماعته السيارة . قرأها الجمهور يابشراي بالاضافة إلى ياء المتكلم والكوفيون بدونها وأمال ألفها حمزة والكسائي . ونداء البشرى معناه أن هذا وقتها وموجبها فقد آن لها أن تحضر ، ومثله قولهم : ياأسفا ويا أسفي ، وياحسرتا وياحسرتي . إذا وقع ما هو سبب لذلك . فاستبشر به السيارة ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ أي أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم ، والبضاعة ما يقطع من المال ويفرز للاتجار به ، مشتق من البضع وهو الشق والقطع ومنه البضعة والبضع من العدد وهي من ثلاث الى تسع والبضعة من اللحم وهي القطعة . وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة أو ان الضمير في أسروه لاخوة يوسف فهو خلاف الظاهر ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله إخوة يوسف فلكل منهم ارب في يوسف : السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به ، وإخوة يوسف أمرهم مع أبيهم في اخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب إياه معلوم وانه كيد باطل ، وحكمة الله تعالى فيه فوق كل ذلك

---

٢٠ ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ شرى الشيء يشريه باعه واشتراه ابتاعه ، أي باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله على انه ليس له مثل ، هو دراهم لادنانير ، معدودة لاموزونة ، وإنما يعد القليل ويوزن الكثير ، وكانت العرب تزن ما بلغ الأوقية وهي أربعون درهما فما فوقها وتعد مادونها ، ولهذا

يعبرون عن القليلة بالمعدودة ، والبخس في اللغة الناقص والمعيب (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وروي تفسيره هنا بالحرام وبالظلم لانه بيع حر فيكون وصفه بدراهم معدودة مستقلا لا تفسيراً لبخس وظاهر النظم ان الذين شروه هم السيارة. وفي سفر التكوين أن إخوته قرروا بيعه للاسماعيليين ، وقد أخرجه من الجب جماعة من مدين وباعوه لهم وقد بعد ذكرهم ، ويحتمل أن يكون لفظ شروه قد استعمل بمعنى اشتروه وهو مسموع ، ويكون المراد انهم اشتروه من اخوته بثمن بخس ثم باعوه في مصر بثمن بخس أيضا، وهو ادماج من دقائق الايجاز ، وأما الثمن البخس الذي بيع به ففي سفر التكوين أنه كان عشرين (شاقلا) من الفضة وقدر علماء التاريخ القديم الشاقل بخمسة عشر غراما من الوزن العشري اللاتيني المعروف في عصرنا فيكون ثمنه ٣٠٠ غرام من الفضة ، وهي تقرب من ٩٤ درهما من دراهمنا اليوم، وعن ابن مسعود (رض) أنه عشرون درهما ولعله سمعه عن اليهود

فظن أن العشرين عندهم هي الدراهم عند العرب ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لانه حر، والثمن لم يكن مقصودا لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه

حادثة يوسف مع امرأة العزيز

(٢١) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(هاتان الآيتان تمهيد للقصة في وجهة نظر مشتريه فيه وتمكين الله له وتعليمه وغلبه على أمره وإيتاؤه حكما وعلما وشهادته بإحسانه)

٢١ ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ﴾ لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب ، ولكن وصفه النسوة فيما يأتي بلقب العزيز وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى ادارة الملك في مصر فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك ، وللمفسرين أقوال في اسمه واسمها واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها . وفي سفر التكوين انه كان رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون ، وان اسمه فوطيفار ، ووصف فيه بالخصي ولكن الخصيان لا يكون لهم أزواج فقيل في تصحيحه لعله لقب لا يقصد به هذا المعنى . وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة اذا وصى امرأته باكرام مثواه ، والمثوى مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي (كرمى يرمي) ثواء أي أقام ، فتضمنت هذه الوصية اكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص باقامته بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم ، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ فيكون قرة عين لنا ، ووارثا لمجدنا ومالنا ، اذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته ، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو ان يكون له ، وروي أنه كان عقيما . وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده ، وكانت صالحة ملهمة ، وأما العزيز فكان ذكياً صادق الفراسة فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه ، وذكائه وحسن خلاله ، على ان حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته ، خير متمم لحسن استعداده الفطري ، إذ لا يفسد أخلاق الاذكياء الا البيئة الفاسدة وسوء

القدوة ، وما كان الا صادق الفراسة ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ أي وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هـذا العزيز مبدأها ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك فيكون وسيلة للوصول اليه ﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث ﴾ كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الامور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين ، وقوله للملك (اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم) وقول الملك له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي على كل أمر يريده ويقدره فلا يغلب على شيء منه بل يقع كما أراد ، فكل ما وقع ليوسف من اخوته ومن مسترقيه وبائعيه ومن توصية الذي اشتراه لامرأته باكرام مثواه ومما وقع له مع هذه المرأة وفي السجن قد كان من أسباب ما أراده تعالى له من تمكينه في الارض ، وان كان ظاهره على خلاف ذلك ، ويجوز أن يكون المعنى أن الله غالب على أمر يوسف فهو يدبره ويلهمه الخير ولا يكله الى تدبير نفسه واتباع هواه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ انه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الامور ، كما استدل اخوة يوسف بابعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعده قوما صالحين. ويقابل الاكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام، فقد كان يعلم ان الله غالب على أمره ، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة ، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المخبوءة في مطاوي الاقدار كما قلنا من قبل

بدئت هذه القصة ببيان إيتاء الله الحكم والعلم ليوسف عند استكمال سن الشباب وبلوغ الاشد ، وان هذا العطاء جزاء منه سبحانه له على إحسانه في سيرته منذ سن التمييز لم يكن مسيئاً في شيء قط ، وختمت بشهادته تعالى بما كان من اقتناع العزيز ببراءته من الخطيئة والتياث امرأته بها وحدها قال عز وجل :

٢٢ ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أي رشده وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ أي وهبناه حكما إلهاميا وعقليا بما يعرض له أو عليه

من النوازل والمشكلات مقرونا بالحق والصواب، وعلما لدنيا وفكريا بحقائق ما يعنيه من الامور ، وهذه السن في عرف الاطباء تتم في خمس وعشرين سنة، ولأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال فمن عكرمة أنها ٢٥ سنة وعن ابن عباس انهـا ثلاث وثلاثون سنة ولعله أخذه من قوله تعالى في كمال البنية الانسانية (حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة)فجعلها درجتين بلوغ الاشد وبلوغ الاربعين وهي سن الاستواء كما قال في موسى (٢٨ : ١٤ فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) فالاول مبدأ استكمال النمو العضلي والعصبي والثاني مستواه ، وبه يتم الاستعداد للنبوة ووحي الرسالة وقد ثبت عن علماء النفس والاجتماع ان الانسان يظهر استعداده العقلي والعلمي بالتدريج حتى اذا بلغ خمساً وثلاثين سنة لا يظهر فيه شيء جديد من العلم الكسبي غير ما ظهر من بدء سن التمييز الى هذه السن ، وإنما يكمل ما كان ظهر منه اذا هو ظل مزاولا له ومشتغلا بتكميله ، وقد بينا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٠ : ١٦ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وفصلناه في كتاب الوحي المحمدي وقد ظهر حكم يوسف وعلمه

بعد بلوغ أشده في مصر كما يأتي تفصيله في مواضعه ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الاحسان، الثابتين عليه بالاعمال، الذين لم يدنسوا فطرتهم ولم يدسوا أنفسهم بالاساءة في أعمالهم ، نؤتيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل ، والعلم الذي يزينه ويظهره القول الفصل ، فيكون لكل محسن حظ من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه ، وما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله ، وجودة فهمه وفقهه ، غير ما يستفيده بالكسب من غيره ، لا يؤتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم ، وقال ابن جرير الطبري : وهذا وان كان مخرج ظاهره على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ يقول له عز وجل كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من اخوته ما لقي ، فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الارض الخ وأقول لا شك أن هذه السنة في جزاء المحسنين عامة ولكل محسن منها بقدر إحسانه ، وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف وغيره من الانبياء عليهم السلام

(٢٣) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٤) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٥) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(مسألة المراودة والهم والمطاردة)

٢٣ ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه وما عللها به من حسن الرجاء فيه، وما يليه الله تعالى من عنايته به وتمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الارض، يقول ان هذه المرأة التي هو في بيتها نظرت اليه بغير العين التي نظر اليه بها زوجها، وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراده الله من فوقهما، هو أراد ان يكون قهرمانا أو ولداً لهما، والله أراد أن يمكن له في الارض ويجعله سيد البلاد كلها، وهي أرادت ان يكون عشيقا لها: وراودته عن نفسه أي خادعته عنها وراوغته لأجل ان يرود أو يريد منها ما تريد هي منه مخالفا لارادته هو وإرادة ربه، والله غالب على أمره، قال في المصباح المنير: أراد الرجل كذا ارادة وهو الطلب والاختيار، وراودته على الامر مراودة ورواداً من باب قاتل طلبت منه فعله وكأن في المراودة معنى المخادعة لان المراود يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه. وقال الراغب:

المراودة أن تنازع غيرك في الارادة فتريد غير ما يريد ، أو ترود غير ما يرود ، وذكر شواهد الآيات في هذه القصة ومنها قول إخوة يوسف له (سنراود عنه أباه) أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل أخاه معنا . وقال في أساس البلاغة: وراوده عن نفسه خادعه عنها وراوغه ، وقال في الكشاف المراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التمحل لمواقعته إياها اه ولو رأت منه أدنى ميل اليها وهي تخلو به في مخادع بيتها لما احتاجت إلى مخادعته بالمراودة، ولما خابت في التعريض له بالمغازلة والمهازلة، تنزلت إلى المكاشفة والمصارحة ، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها لم يشاركها فيه ،
﴿وغلقت الابواب﴾ أي أحكمت اغلاق باب المخدع الذي كانا فيه وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء وباب الدار الخارجي، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم أقبل وبادر ، وزيادة «لك» بيان للمخاطب كما يقولون هلم لك وسقيا لك. واقتصر على هذا في التنزيل، وهو منتهى النزاهة في التعبير، والله أعلم بما زادته من الاغراء والتهييج الذي تقتضيه الحال ، ونقل رواة الاسرائيليات عنها وكذا عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة أنه كذب فان مثله لا يعلم الا من الله تعالى أو بالرواية الصحيحة عنها أو عنه ولا يستطيع أن يدعي هذا أحد كما يأتي قريبا. وهيت اسم فعل قرىء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبضمها كحيث ، وروي انها لغة عرب حوران ، وكان سبب اختيارها انها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم، وهو ما لم يعقله أولئك الرواة لما يخالفه ويناقضه ﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله معاذاً وأتحصن به فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، كما قال بعد ان استعانت عليه بكيد صواحبها من النسوة (وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين)

وجملة قال معاذ الله الخ بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال تقديره: وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له ؟ وهو كما قالت

مريم ابنة عمران للملك الذي تمثل لها بشراً سويا (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وعلل هذه الاستعاذة بقوله ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أي إنه تعالى ولي أمري كله أحسن مقامي عندكم وسخركم لي بما وفقني له من الامانة والصيانة فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم ، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة وان كان حرا مظلوما في الحقيقة ، كما يقال رب الدار ، وكان من عرفهم اطلاقه على الملوك والعظماء كما يأتي في قوله عليه السلام لساقي الملك في السجن (إذكرني عند ربك) ولكن الله عاقبه انه لم يذكر حينئذ ربه ، فكان نسيانه له سببا لطول مكثه في السجن كما يأتي ، ثم إنه قال لرسول الملك . اذ جاءه يطلبه لأجله (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) وعلى هذا القول وقد جرى عليه الجمهور يكون الضمير في « انه » ما يسمونه ضمير الشأن والقصة أي إن الشأن الذي أنافيه هو ان سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في اقامتي عندكم وأوصاك باكرام مثواي فلن أجزيه على إحسانه بشر الاساءة وهو خيانته في أهله ، وهذا التفسير تعليل لرد مراودتها بعد الاستعاذة بالله منها ، لا تعليل الاستعاذة نفسها كالأول ، والفرق بينهما دقيق لما بينهما من العموم في الاول والخصوص في الثاني . ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال

﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ لانفسهم وللناس كالخيانة لهم والتعدي على أعراضهم وشرفهم ، لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الامامة الصالحة والرياسة العادلة ، ولا في الآخرة بجوار الله ونعيمه ورضوانه . . وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالايمان بالله والامانة للسيد صاحب الدار والتعريض بخيانة امرأته له المتضمن لاحتقارها ماأضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام ، مضاعفة لنار الغرام ، وهو مابينه تعالى بقوله مؤكداً بالقسم لانه مما ينكره الاخيار من شرور الفجار :

٢٤ ﴿ ولقد همت به ﴾ أي وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ،

ومراودة عن نفسها لامراودة ، حتى ان حماة الانوف من كبراء الرجال ، ليطأطؤن الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال ، ويبذلون لهن مايعتزون به من الجاه والمال ، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وأزواجهم ولا يأبون ان يسموا أنفسهم عبيداً لهن ، كما روي عن بعض ملوك الاندلس :

نحن قوم تذيبنا الاعين النجـ ... ـل على أننا نذيب الحديدا
فترانا لدى الكريهة أحرا ... راً وفي السلم للملاح عبيداً

ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله ، وفي جلاله وكماله ، وفي إبائه وتألهه ، قد عكس القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الاميرة (الارستقراطية) من عرش عظمتها وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادمها ، بما هونه عليها : قرب الوساد ، وطول السواد (١) والخلوة من وراء الاستار والابواب ، حتى انها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها ، فيصد عنها علواً ونفاراً ، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً ، معتزاً عليها بالديانة والامانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها وزوجها وحقه عليها أعظم ، ان هذا الاحتقار لا يطاق ، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام ، هذا ماثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت ، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها ، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها في كل زمان ومكان ، وأكثر ما ترويه لنا منه قضايا المحاكم وصحف الاخبار ، وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ، ماهو مصداق قوله تعالى (والله غالب على أمره) وهو إما النبوة التي تملي الحكم

(١) السواد بالفتح شخص الانسان وبالكسر مصدر ساوده اذا ساره فقرب سواده من سواده أي شخصه من شخصه . والكلمة لابنة الخص اعتذرت بها عن نفسها بعد ان فتنت فقيل لها : لم ... وأنت سيدة قومك ؟ فقالتها فارسلتها مثلا يجب أن يعتبر به الذين يتساهلون في السماح لنسائهم بالخلوة بالرجال من الخدم فضلا عن غيرهم

والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الاشد ، وشاهده قوله تعالى (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى في آيتي العصا واليد (فذانك برهانان من ربك) وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا اليه ، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الاحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه ، لا صورة أبيه متمثلة في سقف الدار ، ولا صورة سيده العزيز في الجدار ، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن ، وأمثال هذه الصور التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع ، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحاح ولا فيما دونها ، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ، ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة ولا سيما قوله في أوله (وكذلك نجزي المحسنين) وما فسر النبي ﷺ به الاحسان ، وقوله في تعليله

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ما أرادته به أخيراً من السوء وما راودته عليه قبله من الفحشاء ، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية في نفسه ، فلا يصيبه شيء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم ، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم (٣٨ : ٤٥ واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار ٤٦ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ٤٧ وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) وقد قلنا في أول القصة ، إن يوسف هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية ، وان أباه بشره بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له (وكذلك يجتبيك ربك) فالاجتباء هو الاصطفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (المخلصين) بكسر اللام . والقراءتان متفقتان متلازمتان فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له ، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية

والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء فانه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه اليهما فيصرف عنهما، وهمه لأول وهلة بدفع صيالها هم بأمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها واهانته لها فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف المواثبة، والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته مالم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضي، وتبعته هي مرجحة المقتضي على المانع حتى صار جزما، واستبقا باب الدار، وكان من امرهما مايأتي بيانه في الآية التالية، ونقدم عليه رأي الجمهور في الهم من الجانبين

﴿ رأى الجمهور فى همت به وهم بها وبيان بطلانه ﴾

ذهب الجمهور المخدوعون بالروايات الى أن المعنى انها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولامانع منها، وهم هو بمثل ذلك ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها، ولم يستح بعضهم ان يروى من أخبار اهتياجه وتهوكه فيه ووصف انهماكه وإسرافه في تنفيذه، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه، ما لايقع مثله الا من أوقح الفساق المسرفين المستهترين، الذين طال عليهم عهد استباحة الفواحش وألفتها حتى خلعوا العذار، وتجردوا من جلابيب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى وحلل الآداب، كأهل مدنية هذا العصر من الرجال والنساء في مواخير البغاء السرية، ومايقرب منه في حمامات البحر الجهرية، حتى كادوا يعيدون للعالم فجور مدينة (بومباي) الرومانية، التي خسف الله بها وأمطر عليها من براكين النار مثلما أمطر على قرية قوم لوط من قبلها، فان مثل هذا الذي افتروه في قصة هذا النبي الكريم لا يقع مثله ممن ابتلي بالمعصية أول مرة من سليمي الفطرة، ولا من سذج الاعراب الذين لم تغلبهم سورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطرى وإيمانهم وحيائهم من نظر ربهم اليهم،

فضلا عن نبي عصمه الله ووصفه بما وصف وشهد له بما شهد، وقد بلغ ببعضهم (كالسدي) الجهل بالدين والوقاحة وقلة الادب ان يزعموا ان يوسف عليه السلام لم ير برهانا واحدا بل رأى عدة براهين من رؤية والده متمثلا له منكرا عليه، وتكرار وعظه له، ومن رؤية بعض الملائكة ونزولهم عليه باشد زواجر القرآن بآيات من سوره، فلم تنهنه من شبقه، ولم تنهه عن غيه، حتى كان أن خرجت شهوته من أظافره، ومعنى هذا أنه لم يكف إلا عجزاً عن الامضاء، أفبهذا صرف الله عنه السوء والفحشاء، وكان من عباد الله المخلصين، وأنبيائه المصطفين المجتبين الاخيار ؟

ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا هذه الروايات الاسرائيلية الحمقاء، حماية لعقيدة عصمة الانبياء، فانه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها في أنفسهم، وتسليمهم لهم ان الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة، إلا من خالف قواعد اللغة فقال ان قوله تعالى (وهمّ بها) جواب لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) ومن قال إن جوابه محذوف دل عليه ماقبله، فهو على هذين القولين لم يهم بشيء، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها، وتأوله بعضهم بأن همه بالفاحشة بمقتضى الداعية الفطرية لاينافي العصمة وانما ينافيها طاعتها بدليل ما صح في الحديث ان من هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه، وان امتناعه عنها بترجيح داعية الايمان وطاعة الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الايمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفا عنها لقبحها، ولهم تأويلات من هذا ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها،

والتأويل الاخير أوله مقبول وآخره مردود، فههنا مرتبتان إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحا لها خوفا من الله تعالى، وهي مرتبة الصالحين الابرار، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقا في شهوده، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الاخيار، الذين اذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع، بالصورة المحرمة في الشرع، عارضها من وجدان الايمان، وتجلي الرحمن، ماتغلب به روحانيتهم الملكية، على طبيعتهم الحيوانية، وهذا مما قد يحصل لمن دون الانبياء منهم، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم، وينعكس نوره عن

بصائرهم فيلوح لأبصارهم ، كما أشرنا اليه في تفسيره آنفا ؟

وهذه المرتبة درجات منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال، أوفقد الشعور بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع فيغلب أقواها أضعفها . حتى ان من الاباحيين والاباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها، لاخوفا من الله ولاحياء منه لانه غير مؤمن به أو بعقابه، بل وفاء لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه

حدثنا مصور سوري كان زير نساء فاسق أنه كان في بعض الولايات المتحدة الامريكانية فأعلن في بعض الجرائد أنه يطلب امرأة جميلة لاجل أن يصورها كما يشاء بجعل معين من المال وهذا معهود عند الافرنج، فجاءه عدة من الحسان اختار إحداهن وخلا بها في حجرته الخاصة وأوصد بابها ، وأمرها بالتجرد من جميع ثيابها، فتجردت فطفق يصورها على أوضاع مختلفة من انتصاب وانحناء ، وميل والتواء، وإقبال وإدبار ، وهو لايفكر في غير إتقان صناعته ، فعرض لها دوار في رأسها ، فجلست على أريكة للاستراحة فجلس بجانبها، وأنشأ يلاعبها ويداعبها وهي ساكنة ساكتة ، فتنبه في نفسه من الشعور ما كان غافلا أو نائما ، فراودها عن نفسها ، فتمنعت بل امتنعت ، فعرض عليها المال فأعرضت ، فقال لها أنت حرة في نفسك ولكني أرجو منك أن تجيبيني عن سؤال على هو مابيان سبب هذا الامتناع ؟ قالت سببه أني عاهدت رجلا يحبني وأحبه على أن يكون كل منا للآخر لايشرك في الاستمتاع به أحداً ، ولا يبتغي به بدلا ، فقال لها اني أهنئك وأحترم وفاءك هذا ، ثم أتم صناعته ونقدها الجعل المعين فأخذته وانصرفت

والراجح عندي ان هذه المرأة لم تشته مواتاة هذا الرجل فتجاهد نفسها على الامتناع ، وان المانع من اشتهائه توطين نفسها على الوفاء لعشيقها الاول حتى لم تعد تتوجه الى الاستمتاع بغيره ، وتوجيه النفس الى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان الأعلى على الارادة ، وتربية الارادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل باتفاق الحكماء والصوفية ، ويسمي هؤلاء سالك طريق الحق مريدا ،

والواصل إلى غايته مرادا ، أي مجتبي مختارا، وهولا يكون على كماله الا لاصحاب الايمان اليقيني الوجداني ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، كما قال استاذنا في رسالة التوحيد ، ولقد عجبنا أن أنكر علينا بعض المحرومين عن هـذا ممن نمدهم بحق من الصالحين قولنا في المقصورة الرشيدية فيمن امتنع من رقية صدر فتاة حسناء:

أنت فتى خاف مقام ربه ... مازال ينهى نفسه عن الهوى
لم يقترف فاحشة قط ولم ... يعزم ولا همّ بها ولا نوى
بغرة منها وصفو نية ... في معزل تشهيه اقصى ما اشتهى
مما يمنيه به شيطانه ... من حيث لا يطمع منه في خنا
لكنه استعصم راويا لها ... ما امر الله به وما نهى

إذ ظن المنكر فيه انه فضل نفسه على يوسف عليه السلام ، وأين هذا من ذاك (*)

وجملة القول ان أعظم مزايا البشر في قوة الارادة فلولاها لكان الانسان كالحيوان الاعجم عبد الطبيعة ، ولذلك كانت المراودة احتيالا لتحويل الارادة وجعلها خاضعة للمراود ، وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى ، وفوق ذلك عناية الله تعالى (فتأمل وتدبر)

فاذا كان في أهل الاباحة والحرية المطلقة من تملك إرادتها ولا تلين لمراودها، ولا يغريها المال وهو المعبود الاكبر لامثالها في بلادها فيحملها على نقض عهدها في مثل تلك الخلوة وذلك التجرد بين يدي مصورها ،ولقد كان من أجمل الشباب، وأبرعهن في تصبي النساء ، أفيكثر أو يستغرب في رأي أولئك الرواة أن يكون يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم في وراثته الفطرية والادبية ومقام النبوة عن آبائه الاكرمين، وما اختصه به ربه وكونه هو الغالب على أمره من تربيته وعنايته، وما شهد له به من العرفان والاحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعي السوء والفحشاء، وما قص علينا من شهادة تلك المرأة له على نفسها بقولها (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أي استمسك بعروة العصمة الوثقى التي لا انفصام لها ، ثم ما شهد له به صواحبها من المراودات من قولهم (حاش لله ما علمنا عليه

(*) راجع هذه المسألة في ص ٥٤٥ من جزء التفسير التاسع وما قبلها وما بعدها

من سوء) أي أدنى شيء سيء، ثم ما أيدت به شهادتهن من قولها (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أيكثر عليه أو يستغرب منه أن يكون أملك لنفسه من تلك المرأة الاباحية، أو بمنجاة من الهم الذي زعموه، وصوروه بشر ما تصوروه، أو بما صوره لهم مضلوهم من زنادقة اليهود ليلبسوا عليهم دينهم، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم ؟ ثم يكون منتهى شوط المنكرين عليهم أن يتأولوا تفسيرهم تأويلا، والقرآن يتبرأ منه بلغته وأسلوبه وأدبه وهدايته والعبرة المرادة منه لخاتم رسله والمؤمنين به، ولا يغرنك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين، فلو لم يكن لنا من الادلة على وضعها عليهم او تصديقهم لقول بعض اليهود فيها إلا بطلان موضوعها في نفسه، وكونه من علم الغيب في القصة التي لم يعلم رسول الله منها غير ما قصه الله عليه في هذه السورة كما صرح به في الآية (١٠٢) آخرها ـ لو لم يكن لنا من أدلة وضعها غير هذا لكفى، فكيف وهي مخالفة للقرآن في لغته كمخالفتها له في هدايته أيضا

رد قول الجمهور في تفسير همها وهمه عليه السلام

فأنا أرد على جميع من فسروا هم المرأة بغير ما اخترته لا همه وحده، وأقول لولا الغرور بالروايات الباطلة لم يخطر لاحد منهم غيره، أرد عليهم بعبارة القرآن في مدلولها اللغوي فهو حجة عليهم فأقول :

أجمع أهل اللغة على ان الهم انما يكون بالاعمال، لا بالشخوص والاعيان، وتحقيق معناه أنه مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي فلم يقع لرجحان المانع، وهو الموافق لقول علماء الاصول في التعارض الأعم، ولكن رجحان المانع هنا قد يكون بإرادة صاحب الهم ومنه هم يوسف، وقد يكون من غيره ومنه هم هذه المرأة: كان همهما واحدا وهو البطش بالضرب أو ما في معناه، وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هي بهربه، وهاك الشواهد على القسمين

حكى الله عن المشركين في سورتي الانفال والتوبة أنهم (هموا باخراج الرسول) ﷺ من بلده مكة ولكنهم لم يفعلوا لانهم خافوا ان يستجيب له غيرهم من العرب فيقوى أمره فرجحوا المانع بارادتهم، وحكى عن المنافقين أنهم (هموا بما لم ينالوا) إذ حاولوا أن

يشردوا به بعيره في العقبة منصرفه من غزوة تبوك ، فلم ينالوا مرادهم عجزا منهم وحفظا من ربه له ﷺ وفي معناه قوله تعالى له (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) ولكنه قدم هنا لولا فكان دليلا على أنهم فكروا في ذلك وما قاربوا. وقال في بعض المؤمنين (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تتركا المضي مع الرسول للقتال يوم أحد جبنا واتباعا لعبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين ، ولكن غلب عليهما داعي الايمان فلم تفشلا وهو المعبر عنه بقوله تعالى (والله وليهما) فرجحتا المانع من الفشل بالمقتضي للجهاد

وفي المسند والصحيحين وغيرها عن ابن مسعود ان النبي ﷺ هم أن يأمر رجلا يصلي بالناس ثم يأمر من يحرق على المتخلفين عن صلاة الجمعة بيوتهم – وفي حديث ابي هريرة عند أبي داود والترمذي « ثم آتي قوما يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم » يعني ﷺ انهم يستحقون هذا حتى كاد يفعله ولكنه امتنع ترجيحا المانع على المقتضى

إذا علم هذا فمن الجلي أنه لايصح تفسير (ولقد همت به) بهذا المعنى الذى أثبتناه بشواهد الكتاب والسنة الا بما قررناه ، وان ماقاله الجمهور باطل لمخالفته له ، بل للغة القرآن وهدايته ، وإنما خدعتهم به الروايات الباطلة ، وبيانه من وجوه (أولها) ان الهم لايكون الا بفعل للهام والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه ، وهذا التمكين هو الذي يثبت به دخول الزوجية الذي تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر في الفقه (ثانيها) أن يوسف عليه السلام لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمي قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هما لها ، فان نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضا ، (ثالثها) لو أن ذلك وقع لكان الواجب في التعبير عنه ان يقال : « ولقد هم بها وهمت به » لان الاول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقي ، والهم الثاني متوقف عليه لايتحقق بدونه (رابعها) أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ماطلبته طلبا جازما مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضي له ، فاذن

لايصح ان يقال إنها همت به مطلقا حتى لو فرض جدلا انه كان قبولا لطلبه ومواتاة له ، اذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، وهو الذي يصح فيما حققناه من إرادة تأديبه بالضرب على أهون تقدير ، فهذا هو المتبادر من نص اللغة ومن السياق وأقربه قوله عز وجل

٢٥ ﴿ واستبقا الباب ﴾ أي فر يوسف من أمامها هاربا الى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها ترجيحاً للفرار على الدفاع الذي لايعرف مداه ، وتبعته تبغي إرجاعه حتى لايفلت من يدها وهي لاتدري أين يذهب اذا هو خرج ولا مايقول وما يفعل ، وتكلف كل منهما ان يسبق الآخر ، فادركته ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ إذ جذبته به من ورائه فانقد ، قالوا إن القد خاص بقطع الشيء أو شقه طولا والقط قطعه عرضا ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب ، وكان النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد واستمر هذا الى زماننا ، ولم يقل سيدهما لان استرقاق يوسف غير شرعي وهذا كلام الله عز وجل لا كلام الرجل المسترق له ، ولعله كان قد تبناه بالفعل ، فلما دخل ورآهما في هذه الحالة المنكرة ﴿ قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أي شيئا يسوءك مهما يكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه تنكير (سوءا) ﴿ إلا ان يسجن ﴾ أي الا سجن يعاقب به ﴿ أو عذاب أليم ﴾ موجع يؤديه ويلزمه الطاعة . وكان هذا القول مكراً وخداعا لزوجها من وجوه.

(أحدها) إيهام زوجها ان يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءه ويسوءها

(ثانيها) انها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده كبيعه مثلا

(ثالثها) تهديد يوسف وإنذاره مايعلم به أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها ، فماذا قال يوسف في دفع التهمة الباطلة عنه وإسنادها اليها بالحق؟ ولولاه لاسبيل عليها ذيل الستر؟

(٢٦) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ (٢٧) وَإِنْ

كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٨) فَلَمَّا
رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ
(٢٩) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ
مِنَ الْخَاطِئِينَ

﴿ آيات تحقيق زوجها في القضية ﴾

هذه الآيات الأربع في تحقيق القضية وعلم زوجها به براءة يوسف وثبوت خطيئتها وبدىء ببيان جوابه الصريح المنتظر بعد اتهامها إياه بالتلميح وهو

٢٦ ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ فامتنعت وفررت كما ترى . فصارت النازلة أو القضية باختلاف قوليهما موضوع بحث وتحقيق وتشاور بين زوجها وأهلها لم يبين لنا التنزيل تفصيله لأن المقصود من القصة فيه بيان نزاهة يوسف وفضائله للعبرة بها وإنما علمنا أن هذا وقع بالفعل ، كما نعلم أنه كان متوقعا بحكم العادة والعقل ، من قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ أي أخبر عن مشاهدة أو علم كالمشاهدة ، وقيل حكم مستدلا بما ذكره وقد اختلفوا في هذا الشاهد كعادتهم في المبهمات التي يكثر فيها التخيل والاختراع هل كان صغيرا أو كبيرا أو حكيما أو من خاصة الملك أو حيوانا ناطقا روي عن مجاهد أنه قال ليس بإنسي ولا جان هو خلق من خلق الله : مع قول الله إنه من أهلها ، ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والضحاك أنه كان صبياً في المهد يؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم » وابن جرير عن أبي هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهد » وهذا موقوف والمرفوع ضعيف ، وقد أختاره ابن جرير وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا رد ، وأما هذه الشهادة وفسرها بعضهم بالحكم فهي قوله

﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدام ﴿ فصدقت ﴾ في دعواها انه أراد بها سوءاً فانه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه تجاذبها فانقد قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفر فتبعته وجذبته تريد ارجاعه ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أي من خلف ﴿ فكذبت ﴾ في دعواها انه هجم عليها يريد ضربها ﴿ وهو من الصادقين ﴾ في قوله انه فر منها هاربا وهذه الشهادة ظاهرة على التفسير المختار الذى قررناه، ومشكلة على قول الجمهور كما صرح به بعض المدققين

٢٨ ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن ﴾ أي ان هذا العمل ومحاولة التنصل منه بالاتهام من كيدكن المعهود منكن معشر النساء، فهو لم يخص الكيد بزوجه فيقال إنه أمر شاذ منها يجب التروي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحد أهلها، وهو لا يتهم في التحامل عليها وظلمها، بل هو سنة عامة فيهن في التفصي من خطيئاتهن، فقد أثبت خطيئتها مستدلا عليها بالسنة العامة لهن في أمثالها ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ لا قبل للرجال به ولا يفطنون لحيلكن في دقائقه

قال بعض المفسرين: ولربات القصور منهن القدح المعلى من ذلك لأنهن أكثر تفرغا له من غيرهن، مع كثرة اختلاف الكيادات اليهن. وههنا يذكرون قوله تعالى (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) يستدلون به على ان كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، ولا دلالة فيه وإن فرضنا ان حكاية قول هذا أقرار له، فالمقام مختلف وانما كيد النسوان بعض كيد الشيطان، ثم التفت اليها والى يوسف قائلا

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ الكيد الذي جرى لك ولا تتحدث به ولا تخف من تهديدها لك ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أيتها المرأة وتوبي إلى الله تعالى ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ أي من جنس المجرمين مرتكبي الخطايا المتعمدين لها

ولهذا غلب فيه جمع المذكر فلم يقل من الخاطئات . وقد استدل الكرخي بقول هذا الوزير الكبير لزوجه على أنه كان قليل الغيرة وسيأتي مايؤيده، وزعم أبو حيان في البحر أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وانها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لايبقى . وهذا كلام غير مبني على علم صحيح ، فاما سبب عدم نشوء الاسد في هذا القطر فهو خلوه من الغابات والادغال التي يعيش فيها ، وأما كونه اذا أدخل لايبقى، فان صح بالتجربة في الماضي فسببه عدم وجود المأوى له، وها نحن أولاء نرى الاسود والفهود والنمور تعيش وتتناسل في حديقة الحيوان بالجيزة، وانما أشرنا الى هذا للرد على زاعميه والاطالة فيه ليست من موضوع التفسير

---

(٣٠) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣١) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٢) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٣) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ

(حادثة مكر النسوة بامرأة العزيز ومراودة يوسف)

هذه الآيات الخمس في حادثة النسوة من كبار بيوتات مصر اللاتي مكرن بامرأة العزيز لتجمعهن بهذا الشاب الذي فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكماله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ، ودعته إلى نفسها فردها وأباها ، خشية وطاعة لله ، وحفظا لأمانة السيد المحسن اليه ، أن يخونه في أعز شيء لديه ، لعله يصبو اليهن ، ويجذبه من جمالهن الطارىء المفاجيء له ، مالم يجذبه من جمالها الذي ألفه قبل أن يبلغ أشده ، وكان نظره اليها نظر الرقيق الى سيدته ، أو الولد إلى والدته ، وقد جاءت في السورة بأبدع صورة من الايجاز والبلاغة ، وأعلى تعبير من الادب والنزاهة ، وهو :

٣٠ ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ النسوة جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن لان الفائدة في العبرة محصورة في أن عملهن عمل جماعة قليلة يعهد في العرف ائتمارهن واتفاقهن على الاشتراك في مثل هذا المكر المنكر ، في مدينة كبيرة كعاصمة مصر ، التي بلغت منتهى فن الحضارة ، وما تقتضيه من التمتع بالشهوات والزينة ، ولفظ النسوة مفرد مذكر فيجوز تذكير ضميره للفظه وتأنيثه لمعناه

ومن غريب فتنة الروايات الباطلة أن يدعي بعضهم أن اللواتي أجبن دعوتها الآتية منهن كن أربعين امرأة ، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات كلهن بجمع القلة ، وكذا ماعلم بقرينة الحال والمقال من أنهن من بيوتات كبار الدولة ، فان نساء البيوت الدنيا وكذا الوسطى لايتسامين بعد الانكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك ، إلى الوصول اليها بالمكر والحيلة ، لمشاركتها في فتنتها بل نعمتها ، أو سلب عشيقها منها ، ويؤيد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن ، وكان من الطبيعي المعهود أن يعرفن نبأها معه ، ويكون حديثهن الشاغل لهن في مجالسهن الخاصة ، وكان خلاصته

الوجيزة المؤدية لمرادهن منه ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ هذا خبر يراد به لازمه وهو التعجب والانكار الصوري من النواحي أو الجهات الأربع (١) كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الاكبر في علو مركزها (٢) كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه وشأن مثلها إن سخت بعفتها أن تكون مراوَدة عن نفسها لامراوِدة لغيرها كما تقدم (٣) أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها (٤) أنها بعد ان افتضح أمرها وعرف به سيدها وزوجها ، وعاملها بالحلم، وأمرها باستغفار ربها ، لاتزال مصرة على ذنبها ، مستمرة على مراودتها ، وهو ما أفاده قولهن (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أي قد اخترق حبه شغاف قلبها أي غلافه المحيط به ، وغاص في سويدائه ، فملك عليها أمرها ، حتى انها لاتبالي ما يكون من عاقبة تهتكها ، واللائق بمقامها الكتمان، ومكابرة الوجدان ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي إنا لنراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب . وهن ماقلن هذا إنكارا للمنكر وكرها للرذيلة ، ولا حبا في المعروف ونصرا للفضيلة ، وإنما قلنه مكرا وحيلة ، ليصل اليها فيحملها على دعوتهن ، وإرائتهن بأعين أبصارهن ، مايبطل مايدعين رؤيته بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عذلنها عليه ، فهو مكر لارأي

٣١ ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ وكان من المتوقع أن تسمعه لما اعتيد بين هذه البيوتات ، من التواصل بالزيارات ، واختلاف الخدم من كل منها الى الآخر ، وهن ما قلنه الا لتسمعه فان لم يصل اليها عفواً ، احتلن في إيصاله قصدا ، فكان ما أردنه ﴿ أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾

أي دعتهن الى الطعام في دارها ، ومكرت بهن كما مكرن بها ، بأن أعدت وهيأت لهن ما يتكئن عليه اذا جلسن من الكراسي والأرائك وهو المعتاد في دور الكبراء قال تعالى في صفة الجنة (متكئين فيها على الأرائك) وكان ذلك في حجرة مائدة الطعام ، وأعطت كل واحدة منهن سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم أو فاكهة، وروي عن بعض مفسري السلف تفسير المتكأ بالطعام الذي يتكأ عليه أي يعتمد عليه لأجل قطعه كالجامد والشديد القوام ، دون الرخو كالموز الناضج من الفاكهة والحساء من الطعام ، والاتكاء على الشيء هو التمكن بالجلوس عليه أو الاعتماد عليه باليد أو اليدين ، قال في المصباح المنير : وتوكأ على عصاه اعتمد عليها واتكأ جلس متمكنا وفي التنزيل (وسررا عليها يتكئون) أي يجلسون وقال (وأعدت لهن متكأ) أي مجلسا يجلسن عليه . قال ابن الاثير : والعامة لا تعرف الاتكاء الا الميل في القعود معتمدا على أحد الشقين ، وهو يستعمل في المعنيين جميعا ، يقال اتكأ اذا أسند ظهره أو جنبه الى شيء معتمدا عليه ،وكل من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه وروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير تفسير المتكأ هنا بالاترج أو الاترنج [1] لانه لا يقطع الا بالاتكاء عليه ، وفي السنة أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يأكل وهو متكيء ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ أي أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة أو مخدع في داخل حجرة الطعام التي كن فيها محجوبا عنهن ، ولو كان في مكان خارج عنها لقالت ادخل عليهن ، فعلم من هذا أنها تعمدت أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه عالمة بما يكون لهذه الفجاءة من تأثير الدهشة، وهو ما حكاه التنزيل عنهن من قوله تعالى

---

(١) الاترج بالجيم المشددة ويقال اترنج وترنج ثمر من جنس الليمون الحامض كبير مستطيل بشكل بطيخ الشام يسميه العوام الكبّاد (بتشديد الباء) حامضه في جوفه قليل وسائره يؤكل بعد ازالة قشرة سطحه اللاصقة بحجمه الذي يؤكل اذا نضج

﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ أي أعظمنه ودهشن لذلك الحسن الرائع، والجمال البارع، وغبن عن شعورهن ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ بدلا من تقطيع ما يأكلن، ذهولا عما يعملن، بأن استمرت حركة السكاكين الارادية بعد فقد الارادة على ما كانت عليه قبل فقدها، ولكنها وقعت على أكف شمائلهن وقد سقط منها ما كان فيها من استرخائها بذهول تلك الدهشة فقطعتها أي جرحتها، ولولا استرخاؤها لأبانتها، والظاهر ان مضيفتهن تعمدت جعلها مشحوذة فوق المعهود في سكاكين الطعام مبالغة في مكرها بهن، لتقوم لها الحجة عليهن بما لا يستطعن انكاره، واختلف المفسرون في هذا القطع هل كان قطع إبانة انفصلت به الكف من المعصم أو الاصابع من الكف؟ أم قطع جرح أطلق فيه لفظ بدء الشيء على غايته من باب المبالغة، وهو ما يسميه علماء البيان بالمجاز المرسل؟ الاكثرون على الثاني وهو مستعمل الى اليوم بالارث عن قدماء العرب فيمن يحاول قطع شيء فتصيب السكين يده فتجرحها يقول كنت أقطع اللحم أو الحبل (مثلا) فقطعت يدي، كأنه يقول كاد ما اردته من قطع اللحم يكون بيدي مما أخطأت، ولا يقال فيمن جرح عضوا منه أو من غيره كالطبيب قاصدا جرحه إنه قطعه إلا إذا بالغ فيه، يقال أراد أن يجرح رجله ليخرج منها شظية نشبت فيها فقطعها، يريد أنه بالغ فكاد يقطعها، وقد أشار الزمخشري الى مثل هذا القيد في استعمال القطع بمعنى الجرح فقال: كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي» يريد فاخطأت فجرحتها حتى كدت أقطعها ﴿ وقلن حاش لله (١) ما هذا بشرا ﴾ اي قلن هذا تعجبا وتنزيها لله تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر وهو مالم

١) كلمة حاش لله قرئت في السبع المتواترة بالالف (حاشا) و بدونها على ظاهر رسم المصحف الامام وهي حرف تفيد معنى التنزيه والبراءة في باب الاستثناء. يقال أخطأ القوم حاشا زيد وزيدت فيه اللام للخطاب كما تقدم في : هيت لك.

يمهد له في الناس مثل، إنه ليس بشرا مثلنا ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ أي ماهذا إلا ملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الابصار وتخلب الالباب (كما كان يصورهم صناعهم الرسامون والنحاتون أرواح الملائكة والآلهة بالصور والتماثيل لتكريمها وعبادتها) وأحسن كلمة رويت في الآية عن مفسري السلف قول ابن زيد بن أسلم المدني : أعطاهن أترنجا وعسلا فكن يحززن الترنج بالسكين ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسبن الا أنهن يحززن الاترنج قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن (حاشا لله ماهذا بشرا) ماهكذا يكون البشر ماهذا إلا ملك كريم اهـ ففسر قطع الايدي بحزها والحز أقل ما يحدثه السكين كالفرض في الخشبة ، وهنا يتساءل المتسائلون: ماذا قالت لهن، وقد غلب مكرها مكرهن ؟ وصار خالها وحالهن كما قال الشاعر :

أبصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا ما لامك الناس في هواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه

٣٢ ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ أي حينئذ قالت لهن ما يعلم شرحه من قرينة الحال، لما جاء في التنزيل من الايجاز والاجمال: اذا كان الامر ما رأيتن بأعينكن، وما أكبرتن في أنفسكن ، وما فعلتن بأيديكن ، وما قلتن بألسنتكن ، فذلكن هو الامر البعيد الغاية الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في عذلي عليه ، إذ قلتن من قبل ما قلتن، فالمشار اليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها ، أو يوسف البعيد في حقيقته البديع في صورته عما تصورونه به، فما هو عبراني أو كنعاني مملوك ، وخادم صعلوك ، قد شغف مولاته المالكة لرقه حبا وغراما ، فهي تراوده عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو أكبر من ذلك وأعظم ، هو ملك روحاني ، تجلى في شكل انساني، أوتي

من روعة الجمال ماخلب ألبابكن في الوهلة الاولى من ظهوره لكن ، فما قولكن في أمري معه وافتناني به، وانما ترعرع في داري،وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري ، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وأخلوبه في ليلي ونهاري ، فأراه بشراً سويا ، إنسيا لاجنيا، وجسداً لاملكا روحانيا ، فأتراءى له في زينتي ، وأعرض على نظره ماظهر وما خفي من محاسني ، فيعرض عنها احتقاراً ، فأتصباه بكل ماأملك من كلام عذب يخلب اللب ،ولين قول وخشوع صوت يرقق القلب،فلا يصبو إليّ ، وأمد عيني إلى محاسنه جامعة فيها كل ما يكنه قلبي من صبابة وشوق وخلاعة ، مع فتور جفن ، وانكسار طرف ،وطول ترنيق وتحديق ، فلا يرفع إلي طرفا ، ولا يميل نحوي عطفا ، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجاليها ، والعبادة الالهية بأكمل معانيها ، أمثل هذا الملك القاهر يسمى عبداً طائعا ، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة ، تأمر بل تشير فتطاع ، وينكر عليها ان تراود فترد ، ثم تريد إظهار سلطانها فتعجز ؟ لقد انكشف القناع ، فلا أمر لمن لايطاع

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشؤا عليها ، كأنه يطلب مزيد الكمال منها

هٰهنا أقول : والله ما عجبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم وأن قالت له «هيت لك» فقال « أعوذ بالله » فكم قال هذا من ليس له مقامه في معرفته بالله ومراقبته لله ، وقد روي أن رجلا راود أعرابية في ليلة ليلاء ، وقال انه لايرانا غير كواكب هذه السماء ، فقالت وأين مكوكبها ؟

وإنما عجبي بل اعجابي بيوسف عليه السلام أن نظره إلى الله أو نظر الله اليه لم يدع في قلبه البشري مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حبا ، لتصبيها له قبل أن يخونها صبرها فتنفره بمصارحتها ، وان من أقوى غرائز البشر حب الانسان لمن يعتقد أنه يحبه، وان كان مشغول القلب عنه بحب من لايحبه، كما قيل

ونظرة المحبوب للمحب والله عن انسان عين القلب

وأما الخالي فلا يكاد يسلم من تأثير التحبب في استمالته كما قالت علية بنت المهدي العباسي * تحبب فان الحب داعية الحب * فالحب أقوى غرائز البشر، وأكبر ما يفتن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وان من الحب لصادقا وكاذبا، وان من العشق لعذريا عفيفا، وشهويا فاسقا، وان مفاسده في الحضارة لكبيرة، وان فتنته لعظيمة، وسنعقد له فصلا في باب العبرة بالقصة في اجمال تفسير السورة ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ به، أقسم لكن آكد الايمان، ولتسمع ذلك منه الاذنان ﴿ ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ أي الأذلة المقهورين، تعني ان زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن وهو المدبر له المتولي لأمره، ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله كولده، وهذا أشد مما أنذرته أولا إذ قالت لزوجها عند التقائهما به لدى الباب (ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) هنالك أنذرته أحد العقابين: سجن غير مؤكد، أو عذاب أليم نكرة غير معرف، قد يكون ذلك السجن المطلق بأخف صوره وأقلها، والعذاب المنكر بأهون أنواعه وألطفها، فذاك بحبسه في حجرة من الدار، وهذا بلطمة يحتدم بها ما في خديه من الاحمرار، وهنا أنذرته الجمع بينهما، وأكدت السجن بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وفسرت العذاب بالصغار الذي تأباه الانفس الكبيرة، واكتفت فيه بالنون الخفيفة(١) وهو أشق على مثل يوسف من العذاب الاليم بالاعمال الشاقة، لانها أهون على كرام الناس من الهوان والصغار باحتقار النفس، وفعله صغر كتعب، وأما صغر كضخم فهو خاص بصغر الجسم، ومن الاول قوله تعالى (٩: ٢٨ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

وفي هذا التهديد من ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير على علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ماحقه أن يخيف يوسف من تنفيذ إرادتها، ويثبت عنده عدم غيرته عليها، كما هو شأن كثير من الوزراء المترفين، ولاسيما العاجزين عن

(١) وكتبت في المصحف الامام (وليكونا) بالالف (كنسفعا) على حكم الوقف لشبهها بالتنوين

إحصان أزواجهن، والمحرومين من نعمة الاولاد منهن، وماذا فعل يوسف وما قال وقد علم ان هذه المرأة الماكرة قد عيل صبرها، وهتكت سترها، وكاشفت نسوة كبار بلدها بما تسر وما تملن من أمرها؟ ورأى أنهن تواطأن معها على كيدها، وراودنه عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو تواطؤ لا قبل لرجل به، إلا بمعونة ربه وحفظه

---

٣٣ ﴿ قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه ﴾ أي قال: أي ربي، الغالب على أمري، العالم بسري وجهري، ان الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش أحب الى نفسي وآثر عندي على ما يدعونني اليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهن عن حبك، وبقربهن عن قربك، وبمغازلتهن عن مناجاتك، وإنما يفسر ويشرح هذا بما يعلم من سياق القرآن، ومن طباع الرجال والنسوان، ومن التاريخ العام، والسنن الاجتماعية والاخلاق والعادات، وسيرة الصالحين والانبياء، دون حاجة الى ما لا سند له ولا دليل عليه من الروايات ودسائس الاسرائيليات، ومنه أنه ليس في السجن إلا الاعتبار بأحكام الملوك وأعوانهم من الوزراء والقضاة على من يسخطون عليهم بحق أو بغير حق، مما يزيدني إيمانا بقضائك، وصبراً على بلائك، وشكراً لنعمائك، وعلما بشئون خلقك، ويفتح لي باب الدعوة الى معرفتك وتوحيدك، والاستعداد لاقامة الحق، ونصب ميزان العدل، فيما عسى أن تخولني من الامر، اذا مكنت لي كما وعدتني في الارض

هذا ما يتبادر الى الفهم من توجيه التفضيل في الحب تدل عليه حالة يوسف وسابق قصته ولاحقها بغير تكلف ولا تحكم، كما هو دأبنا في كل ما نفسر به هذه القصة وغيرها، وهو يصدق في جعل اسم التفضيل هنا لا مفهوم له أو على غير بابه كما يقال، فليس المراد ان ما يدعونني اليه محبوب عندي والسجن أحب إلي منه، وانما معناه ان هذين الامرين اذا تعارضا وكان لا بد من أحدهما فالسجن آثر وأولى بالترجيح لان ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة، وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهن، فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن، فهو أي اسم التفضيل من قبيل قول المحدثين في بعض الاحاديث الضعيفة

هو أصح ما في هذا الباب ، يعنون أقوى ما فيه وإن كانت كلها غير صحيحة ، بل هو كقوله الآتي (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)

وقيل يجوز أن يكون المراد من التفضيل ترجيح الاحب بمقتضى الايمان وحكم الشرع، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع، فان الانبياء والصلحاء كسائر البشر يحبون النساء ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع ، وشره الاعتداء على نساء الناس ، ولما قال النبي ﷺ للفقراء « وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال « أرأيتم اذا وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ كذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر » رواه مسلم من حديث أبي ذر . وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله حيث لا ظل إلا ظله في موقف القيامة « ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب الى نفسها فقال اني أخاف الله » وهو حديث متفق عليه . وذلك بأن للمرأة ذات المنصب سلطانا على قلب الرجل فوق سلطان الوضيعة في طبقتها وان كانت جميلة الصورة فيثقل على طبعه وتضعف ارادته أن يرد طلبها فكيف بها اذا جمعت بين سلطان الجمال وسلطان المنصب ثم ذلت له ودعته الى نفسها ؟

(فان قيل) إن المرأة إذا ابتذلت نفسها فبذلتها للرجل بذلا ، وتحول دلها عليه مهانة وذلا ، فانه يحتقرها ، وتتحول رغبته فيها رغبة عنها (١) وكلما تمنعت عليه ازداد حبا لها وشوقا اليها ، كما قال الشاعر :

---

(١) قد جرى بحث علمي خلقي في هذه المسألة في محفل أدبي من استاذي المدارس فقلت اني استغرب أن يهبط فساد الفطرة البشرية ببعض الفساق فيقودهن الى مواخير البغاء كيف لا يقرفون من رؤية من فيها وإن تصور حالهن أو رؤية تبذلهن لحقيق بأن ينفر الطبع السليم من جنس النساء ، فقال استاذ خبير بحال هذه الطبقات صار بعد ذلك من كبار رجال وزارة المعارف : إن افسد هؤلاء الفاسقين الأرذلين فطرة لا يكاد يغشى هذه المواخير الا وهو سكران ، لا يشعر بشيء يمتاز به الانسان على الحيوان ، وانما اذكر امثال هذه المسائل في تفسير القرآن الشريف لانه هداية وعبرة لجميع المكلفين فيجب أن يكون للدعاة الى هدايته علم بكل ما ابتلوا به من فساد في الجملة ، وهذه السورة من سوره هي المبينة للقدوة العليا في موضوع افتتان الرجال بالنساء والنساء بالرجال .

أحب شيء الى الانسان ما منعا   منعت شيئا فأكثرت الولوع به

(قلنا) نعم ان هذا مقتضى الطبع السليم كما ان رد ذات الجمال والمنصب من ضعف الرجل أمام المرأة، ولكن المراودة قلما تبلغ من هؤلاء حد الوقاحة في الصراحة فتكون منفرة، وقد علمت انها احتيال ومراوغة لتحويل الارادة، وان لنساء الأكابر في الامصار التي أفسدتها الحضارة كيداً فيها وخداعا، وإن لأستاذهن الشيطان مسالك من إغوائهن والاغواء بهن يخر أقوى الرجال تجاههما صريعا، ولكن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وعناية ربهم بهم تغلب غوايته ومكر النسوان، وقد لجأ يوسف عليه السلام إلى هذه العناية، إذ عرض له كيد بضع نسوة من ذوات الجمال والمنصب لا بضاعة لهن إلا أبضاعهن، فقال ﴿وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ يعني إن لم تحول عني ما ينصبنه لي من شراك الكيد، وعددنه من شباك الصيد، لم أسلم من الصبوة اليهن، وهي الميل إلى موافقتهن على أهوائهن، يقال صبا يصبو صبواً وصبوة إذا مال إلى اللهو وما يطيب للنفس من اتباع الهوى، ومنه ريح الصبا وهي التي تهب على بلاد العرب من مشرق الشمس لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها، حتى ان تغزل شعرائهم بها ليضاهيء تغزلهم بعشيقاتهم رقة وصبابة، ولاسيما اذا اقترنا وامتزجا كقول بعضهم:

فقد كاد رياها يطير بلبه   خذا من صبا نجد أمانا لقلبه
اذا هب كان الوجد أيسر خطبه   وإياكما ذاك النسيم فانه

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيعملون السوء بجهالة وهي ما يخالف مقتضى الحلم والأناة أو مقتضى العلم والحكمة، فان من يعيش بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات المترفات مثلي لا مفر له من الجهل إلا بعصمتك وحفظك بما هو فوق الاسباب المعتادة، وهذا نص صريح منه (ع.م) بأنه ما صبا اليهن، ولا أحب أن يعيش معهن، وإنما بين مقتضى الاستهداف لكيد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يديم له ما عوده في قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)

٣٤ ﴿فاستجاب له ربه﴾ مادعاه به وطلبه منه الذي دل عليه هذا الابتهال

والالتجاء اليه وطوى ذكره إيجازاً ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ فلم يصب اليهن ، فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهن ﴿ إنه هو السميع ﴾ المجيب لمن أخلص له الدعاء ، جامعا بين مقامي الخوف والرجاء ﴿ العليم ﴾ بصدق إيمانهم ، وبما يصلح من أحوالهم ، فعطف استجابة ربه له وصرف كيدهن عنه بالفاء الدالة على التعقيب وتعليلها بأنها مقتضى كمال صفتي السمع والعلم ، دليل على أن ربه عز وجل لم يتخل عن عنايته بتربيته ، اقصر زمن يهتم فيه بأمر نفسه ومجاهدته ، ومؤيد لقوله تعالى في أول سياق هذه الفتنة (والله غالب على أمره)

٣٥ ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ بدا هذه من البداء (بالفتح) لا من البدو الطاق، أي ثم ظهر لهم من الرأي ما لم يكن ظاهرا من قبل، ومنه كلمة سيدنا علي البليغة [فما عدا مما بدا] أي فما عداك وصرفك عما كنت فيه مما بدا لك الآن وكان خفيا عنك قبله، ولذلك عطفت الجملة بثم التي تفيد الانتقال مما كانوا فيه الى طور جديد بعد التشاور والتروي في الامر ، وضمير [لهم] يرجع الى أهل دار العزيز وامرأته ومن يعنيه أمرهما كالشاهد الذي شهد عليها من أهلها، والمراد بالآيات ماشهدوه واختبروه من الدلائل على أن يوسف إنسان غير الأناسي التي عرفوها في عقيدته وإيمانه وأخلاقه من عفة ونزاهة واحتقار للشهوات والزينة والإتراف المتبع في قصور هذه الحضارة، ومن عناية ربه الواحد الأحد به كما يؤمن ويعتقد ، فمن هذه الآيات أن تفنن سيدته في مراودته لم يحدث أدنى تأثير في جذب خلسات نظره، ولا في خفقات قلبه ، بل ظل معرضا عنها متجاهلا لها ، حتى اذا ماصارحته بكلمة [هيت لك] اقشعر جلده ، واستعاذ بربه، رب آبائه الذين يفتخر باتباع ملتهم ، وعيرها بالخيانة لزوجها (ومنها) أنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها وهي سيدته ، وما منعه من ذلك الا ما رأى من البرهان في دخيلة نفسه، مؤيدا لما يعتقده من صرف ربه السوء والفحشاء عنه (ومنها) أنها لما اتهمته

بالتعدي عليها وأرادوا التحقيق في المسألة شهد شاهد من أهلها هو جدير بالدفاع عنها ، بما تضمن الحكم عليها بأنها كاذبة في اتهامها اياه بارادة السوء بها، وانه صادق فيما ادعاه من مراودتها اياه عن نفسه (ومنها) مسألة انتشار خبرها معه وخوض نساء المدينة في افتتانها به وإذلال نفسها ببذلها له مع إعراضه عنها (ومنها) مسألة أمكر هؤلاء النسوة وأعمقهن كيداً معه، إذ حاولن رؤيته وتواطأن عن مراودته، ودهشتهن مما شاهدن من جماله ، حتى قطعن أيديهن بدلا مما في أيديهن وهن لا يشعرن . فجميع هذه الآيات تثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها من هؤلاء النسوة مثار فتنة للنساء لا تدرك غايتها ، وان الحكمة والصواب في أمرها هو تنفيذ رأيها الاول في سجنه – وإن كانت سيئة النية ماكرة فيه – لإخفاء ذكره ، وكف ألسنة الناس عنها في أمره ، فأقسموا ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ أي الى أجل غير معين حتى يكونوا مطلقي الحرية في طول مكثه وقصره وإخراجه، ويروا ما يكون من تأثير السجن فيه وحديث الناس عنه . وهذا القرار يدل على أن هذه المرأة كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير تقوده بقرنيه كيف شاء هواها ، وانه كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات . وقد أعجبني فيه قول الزمخشري على قلة ما أعجبني من أقوال المفسرين في هذه القصة التي شوهتها عليهم الروايات الاسرائيلية المخترعة والعناية باعرابها . قال في تفسير ما رأوا من الآيات: وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه في الذروة والغارب[1] وكان مطواعة لها ، وجملا ذلولا زمامه في يدها ، حتى أنساه

١) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده، والذروة بالكسر والضم أعلى الشيء والمراد هنا أعلى سنام البعير، والغارب ما بين العنق والسنام منه وهو الذي يلقى عليه الخطام وهو بالكسر حبل يوضع في عنقه ويثنى في خطمه أي أنفه ليقاد به بسهولة . وأصل هذا الفتل فيهما ان يجيء الرجل بالخطام فيخفيه عن البعير لئلا يمتنع من وضعه ويأخذ يفتل ذروته وغاربه فيلذ له ذلك حتى يأنس به فاذا تمكن منه وضع له الخطام وقاده به فانقاد

ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه لالحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت في أن يذلله السجن ويسخره لها اه

وجملة القول في هذه الحادثة ان يوسف (ع.م) كان أكمل مثل للعفة والصيانة والامانة من أولها الى آخرها ، وهي في سفر التكوين ناقصة ومخالفة لما هنا في دعوى المرأة ، والله اعلم من مؤلف سفر التكوين المجهول بما كان وبما ينفع الناس **

﴿ عبارة سفر التكوين في الحادثة من الاصحاح ٣٩ ﴾

*) وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي ٨ فأبى وقال لامرأة سيده هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه الى يدي ٩ ليس هو في هذا البيت أعظم مني . ولم يمسك عني شيئا غيرك لانك امرأته . فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطيء الى الله ١٠ وكان اذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها

١١ ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت ١٢ فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي . فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى خارج ١٣ وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب الى خارج ١٤ انها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا دخل الي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ١٥ وكان لما سمع اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج الى خارج

١٦ فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده الى بيته ١٧ فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل الي العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني ١٨ وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب الى خارج

١٩ فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمي ٢٠ فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه . وكان هناك في بيت السجن

٢١ ولكن الرب كان مع يوسف وبسط اليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ٢٢ فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن . وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ٢٣ ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده لان الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه اه

(٣٦) ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين (٣٧) قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون (٣٨) واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون

(سيرة يوسف عليه السلام فى السجن)

هذه الآيات الثلاث في إظهار معجزة النبوة ، والتمهيد لدعوة الرسالة

٣٦ ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ هذا عطف على مفهوم ما قبله أي فسجنوه ودخل معه السجن بتقدير الله الخفي الذي يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق : فتيان مملوكان تبين فيما بعد انهما من فتيان ملك مصر . روي عن ابن عباس ان أحدهما خازن طعامه والآخر ساقيه ، فماذا كان من شأنه معهما ؟ ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ﴾ أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراها في اليقظة الآن وهي انني أعصر خمرا ، أي عنبا ليكون خمرا لا ليشرب الآن ، وقراءة ابن مسعود وأبي في الشواذ «أعصر عنبا» تفسير لا قرآن ، وما كل العنب يعصر لأجل التخمير فما نقل من أن عرب غسان وعمان يسمون العنب خمرا فمحمول على هذا النوع المخصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختماره ، دون ما يؤكل في الغالب تفكها لكبر

حجمه واكتناز شحمه وقلة مائه، ولكل منهما أصناف ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه﴾ الطير جمع واحده طائر، وتأنيثه أكثر من تذكيره، وجمع الجمع طيور وأطيار ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي قال له كل واحد منهما نبئني بتأويل ما رأيت، أي بتفسيره الذي يؤول اليه في الخارج إذا كان حقا لا من أضغاث الاحلام، ويصح إعادة الضمير المفرد على الكثير كاسم الاشارة بمعنى المذكور أو ماذكر، ومنه قول الراجز: فيها خطوط من سواد وبلق ... كأنه في الجسم توليع البهق

﴿إنا نراك من المحسنين﴾ عللوا سؤالهم إياه عن أمر يهمهم ويعنيهم دونه، برؤيتهم إياه من المحسنين بمقتضى غريزتهم الذين يريدون الخير والنفع للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة ولا هوى، وقيل من المحسنين لتأويل الرؤى، وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأوا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ماوجه اليه وجوههما، وعلق به أملهما. وهذا من إيجاز القرآن الخاص به

افترص يوسف (ع . م) ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله وإصغاءهما لقوله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤاهما فبدأ حديثه بما هو أهم عنده وهو دعوتهما وسائر من في السجن إلى توحيد الله عز وجل، فعلم من هذا أن وحي الرسالة جاءه بعد دخول السجن فحقق قوله (رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه) كما أن وحي الالهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجب على ما سبق، وحكمة هذا من ناحيته عليه السلام ظاهرة بما بيناه من أن الله تعالى جعل له في كل محنة ظاهرة، منحة باطنة، وفي كل بداية محرقة، نهاية مشرقة، تحقيقا لما فهمه أبوه من اجتباء ربه له الخ. وحكمته من ناحية دعوة الدين ان أقوى الناس وأقربهم استعدادا لفهمها والاهتداء بها: هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها هم المترفون والمتكبرون، بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه والثقة بقوله وهي إظهار ما من الله به عليه من تعليمه ماشاء من أمور الغيب وأقربها الى اقتناعهم مايختص بمعيشتهم، فكان هذا مايقتضيه المقام وتوجيه الرسالة من جوابهم، وهو:

٣٧ ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ وهوما لا تدرون من حيث لا تدرون،

وإني وإياكم في هذا السجن لمحجوبون ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ أي أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهي اليه بعد وصوله اليكما: أنبئكما بكل هذا من شأن هذا الطعام قبل أن يأتيكما ، روي أن رجال الدولة كانوا يرسلون الى المجرمين أو المتهمين طعاما مسموما يقتلونهم به وأن يوسف أراد هذا، وما قلته يشمل هذا إذا صح ، وهو ما يفهم من تسمية إنبائهما به تأويلا ، فان التأويل الاخبار بما يؤول اليه الشيء وهو فرع معرفته ، ولذلك قال بعضهم إنه سماه تأويلا من باب المشاكلة لما سألاه عنه من تأويل رؤياهما ، وقال بعضهم ان المراد لاتريان في النوم طعاما يأتيكما إلا نبأتكما بتأويله، وهو بعيد . وفسر الزمخشري ومن قلده تأويله [ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل والاعراب عن معناه] اه وهو تكلف سرى اليه من مفهوم التأويل في اصطلاح علماء الكلام وأصول الفقه لا من صميم اللغة ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ أي ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي بوحي منه إلي، لا بكهانة ولا عرافة ولا تنجيم ، ولا ما يشبهها من طرق صناعية أو تعليم بشري يلتبس به الحق بالباطل ، ويشتبه الصواب بالخطأ ، فهو آية له كقول عيسى لبني إسرائيل من بعده (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ خالق السموات والارض وما بينهما كما يجب له من التوحيد والتنزيه ، أي تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان المنتحلة على كثرة أهلها ودعوتهم اليها ، وليس المعنى أنه كان متبعا لها ثم تركها ، فقوله تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟) أي بعد موته فلا يبعث ، ليس معناه أنه كان سدى قبله ، فترك الشيء يصدق بعدم ملابسته مطلقا ، وبالتحول عنه بعد التلبس به ، ويفرق بينهما بقرينة الحال أو المقال أو كليهما كما هنا . والتبادر أنه أراد بهؤلاء القوم الكنعانيين وغيرهم من سكان أرض الميلاد التي نشأ فيها ، والمصريين الذين هو فيهم وبينهم ، فانهم اتخذوا من دون الله آلهة معروفة في التاريخ أعظمها الشمس واسمها عندهم (رع) ومنها

فراعنتهم والنيل وعجلهم (أبيس) وإنما كان التوحيد خاصا بحكمائهم وعلمائهم ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي وهم الآن يكفرون بالمدى الصحيح للآخرة فان المصريين وان كانوا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء الذي دعا اليه الانبياء إلا أنه فشا فيهم تصوير هذا الايمان بصور مبتدعة ومنها ان فراعنتهم يعودون الى الحياة الاخرى بأجسادهم المحنطة ويعود لهم السلطان والحكم ولهذا كانوا يدفنون أو يضعون معهم جواهرهم وغيرها، ويبنون الاهرام لحفظ جثثهم وما معها ، ولعله لهذا أكد الحكم بالكفر بها باعادة الضمير « هم » ليبين ان ايمانهم بالآخرة على غير الوجه الذي جاءت به الرسل فهو غير صحيح

٣٨ ﴿ واتبعت ملة آبائي ﴾ أنبياء الله الذين دعوا الى توحيده الخالص ، وبين أسماءهم من الأب الأعلى الى الادنى بقوله ﴿ ابراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا ، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقينا فكانت يقينا له ولهم ووجدانا ، بقوله ﴿ ما كان لنا ﴾ أي ما كان من شأننا معشر الانبياء (١) ولامما يقع منا ﴿ أن نشرك بالله من شيء ﴾ نتخذه ربا مدبراً أو إلها معبوداً معه لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة) فضلا عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس) أو من الشمس والقمر ، أو مايتخذ لهذه الآلهة من التماثيل والصور ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته في خلقه ﴿ وعلى الناس ﴾ بارسالنا اليهم ننشر فيهم دعوته ، ونقيم عليهم حجته ، ونبين لهم هدايته ﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ نعم الله عليهم ، فهم يشركون.

---

(١) في سفر التكوين الذين يعدونه من التوراة أن عيسو بن اسحق البكر كان يعبد الاصنام وان اباه كان يفضله في الحب على أخيه وتوأمه يعقوب الموحد لله ، وان يعقوب احتال على ابيهما اسحق حتى اعطاه بركة البكورية التي هي حق عيسو لأنه خرج من بطن أمه قبله ، فتأمل الفرق بين هداية القرآن وهدايته !!!

به أربابا وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم ، ثم صرح لهما ببطلان ماهما عليه من الشرك ونبههما إلى برهان التوحيد فقال

(٣٩) يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤٠) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ، إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿ الدعوة الى التوحيد الخالص ببرهانه ﴾

٣٩ ﴿ياصاحبي السجن﴾ أضافهما إلى السجن بمعنى ياساكني السجن أو بمعنى ياصاحبي في السجن كما قيل * ياسارق الليلة أهل الدار * أي سارقهم فيها ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ هذا استفهام تقرير بعد تخيير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد، وكان المصريون المخاطبون به يعبدون كغيرهم من الامم أربابا متفرقين في ذواتهم ، وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونهم بها ، وفي صفاتهم الحسية التي يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنصوبة في المعابد والهياكل ، وفي الاعمال التي يسندونها اليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه «أأرباب متفرقون» أي عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام ، وما يقتضيه بطبعه من التنازع والاختلاف في الاعمال، والتدبير المفسد للنظام ، هو ﴿خير﴾ لكما ولغيركما من الافراد والاقوام ، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع ، وكل ماتحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أم الله﴾ الواجب الوجود ، الخالق

لكل موجود ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿القهار﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة، وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والارضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها، وسبب اختلاف مظاهرها، هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها؟ الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل هو الله الواحد القهار، لارب غيره ولا إله سواه، ولذلك رتب عليه قوله

٤٠ ﴿ما تعبدون من دونه﴾ أي غير هذا الواحد القهار ﴿إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من قبلكم أي وضعتموها لمسميات نحلتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أربابا وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الاله المستحق للعبادة، حتى يقال إنها خير أم هو خير ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي بتسميتها أربابا على أحد من رسله ﴿من سلطان﴾ أي أيّ نوع من أنواع البرهان والحجة فيقال إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبداً له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها او تعظيمها غير مناف لتوحيده، كاستلام الحجر الاسود عند الطواف بالكعبة المعظمة مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر كما ثبت في الحديث — فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي فتكون من أصول الايمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان

وأقول إنه لما قامت هذه الحجة على النصارى ببطلان ثالوثهم الذي اتبعوا فيه ثالوث قدماء المصريين والهنود ادعوا أن له أصلا من الوحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم أو تلاميذه، وأنه بهذا لا ينافي التوحيد فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة، والذي حققه علماء الافرنج المؤرخون تبعاً للمسلمين أنه لا أصل له

من الوحي ، وان كانت الآب والابن وروح القدس لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائس الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت الجامعة لاكثر النصارى، والاحرار العقليون من نصارى الافرنج يرفضونها كلهم وهم ملايين ولكن ليس لهم كنيسة جامعة ، وإنما يقولون في المسيح ماقرره الاسلام فيه وأكثرهم لا يعلمون ذلك ، ولو عرفوا حقيقة الاسلام لكانوا كلهم مسلمين ، ولكنهم سيعلمون ويسلمون اتباعا ، كما أسلموا فطرة وعقلا

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم الحق في الربوبية ، والعقائد والعبادات الدينية، إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ،فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الازمنة والامكنة

ثم بين أول أصل بنى عليها لانه أول ما يجب أن يسأل عنه من عرفها فقال

﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا ، وله وحده فاركعوا واسجدوا ، واليه وحده فتوجهوا، حنفاء لله غير مشركين به ملكا من الملائكة الروحانيين، ولا ملكا من الملوك الحاكمين، ولا كاهنا من المتعبدين، ولا شمسا ولا قمرا ، ولا نجما ولا شجرا، ولا نهراً مقدسا كالكنج والنيل، ولا حيوانا كالعجل أبيس، فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره ، لايمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء ، وأن كل ماعداه خاضع لارادته وسننه في أسباب المنافع والمضار ، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام جنسه ومادة حياة شخصه (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فاليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الانسان أو يجهله من الاسباب، واليه المصير للجزاء على الاعمال يوم الحساب

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي الحق المستقيم الذي لاعوج فيه من جهالة الوثنيين ، الذي دعا اليه جميع رسل الله أقوامهم ومنهم آبائي : ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك حق العلم لاتباعهم أهواء آبائهم الوثنيين،

الذين اتخذوا لأنفسهم أربابا متفرقة ليس لها من الربوبية أدنى نصيب

ومن العجيب أن هذه الحقيقة التي بينها القرآن في مئات من الآيات البينات تتلى في السور الكثيرة بالاساليب البليغة، صار يجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن، فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض مايحبون من النفع فيدعونهم خاشعين راغبين من دون الله، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا اليه جميع الامم، زاعمين ان هذه الدعوة انفرد بها ابراهيم والرسل من ذريته فقط كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والافرنج، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير، فهم يزعمون ان البشر نشئوا على الاديان الوثنية حتى كان اول من دعاهم الى التوحيد ابراهيم ﷺ من زهاء أربعة آلاف سنة، والقرآن حجة عليهم بتصريحه ان الله تعالى أرسل في جميع الامم رسلا دعوهم إلى التوحيد أولهم نوح عليه السلام، فان قومه كانوا أول من عبد الصالحين الميتين واتخذوا لهم الصور والاصنام، وكان البشر قبلهم على الفطرة وتوحيد آدم عليه السلام(١)

(فان قيل) ان يوسف عليه السلام لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معهما فيه إلى غير التوحيد من شرع آبائه فما سبب ذلك؟ (قلت) ان أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لنسخها ولا لتغييرها، وهي في الاصل سماوية وإنما طرأت الوثنية على توحيدهم لله تعالى وأحدثوا تقاليد خيالية في البعث، فهو قد دعاهم الى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله وهو التوحيد والآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، وقد طرأ عليها عندهم ماأشرنا اليه آنفا في تفسير قوله

---

(١) عند كتابة هذا جاءنا الجزء ٨:٦ من مجلة الشبان المسلمين التي صدرت في شهر المحرم سنة ١٣٥٤ فاذا فيه مقالة عنوانها (الاسلام منذ ٨٠٠٠ سنة في وادي النيل) ذكر فيها كاتبها ان سكان مصر الاولين كانوا قبائل همجية على الفطرة وان الوافدين اليها من غرب آسية (اي بلاد العرب) كانوا على شيء من المعارف الدينية وغيرها وهم الذين ادخلوها الى هذه البلاد واهمها التوحيد والبعث

(وهم بالآخرة هم كافرون) يعني كفرهم بأن الجزاء يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الاجساد وبعثهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون، وعقائدهم في هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة وأشهرها انهم كانوا يحنطون أجسادهم لاجل أن تعود اليها الحياة التي فارقتها، وكان ملوكهم يحفظون في أهرامهم وغيرها من قبورهم حليهم وحللهم ومتاعهم لاجل أن يتمتعوا بها في النشأة الاخرى حيث يعودون ملوكا كما كانوا، فهذه أباطيل طرأت على العقائد الاصلية المنزلة، وتقاليدهم هذه منقوشة من مواضع من الاهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور، ومنها ما هو خاص بنعيم العوام ومنه أنهم يتشكلون بالصور التي يحبونها. وتشكل الارواح في الصور هو الاصل العلمي المعقول لعقيدة البعث في هيكل أثيري يلبس جسدا كثيفاً كالجسد الدنيوي كما روي عن الامام مالك رحمه الله، ومنه ما صح في الحديث من تشكل أرواح الشهداء في صور طير خضر تسرح في الجنة. وانما يكون التشكل على أكمله في الجنة جعلنا الله من خير أهلها

وأما الركن الثالث من دين الرسل وهو العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات فكان يوسف عليه السلام يكتفي منه بما كان خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد وفي السجن ثم في ادارته لأمور الملك، وكان يقرهم على سائر شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخذ أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم الاسرائيلية بقول الله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) الخ وبعد أن أدى يوسف رسالة ربه عبر لصاحبيه رؤياهما بقوله

(٤١) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤٢) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

﴿ تاويله لمنامي صاحبي السجن ووصيته للناجي منهما ﴾

٤١ ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ﴿فيسقي ربه خمراً ﴾ يعني بربه مالك رقبته وهو الملك لا ربوبية العبودية فملك مصر في عهد يوسف لم يدع الربوبية والالوهية كفرعون موسى وغيره، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ اي الطير التي تأكل اللحوم كالحدأة، وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما وقد يكون من خواطرهما النومية وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف ويؤكدها قوله ﴿ قضي الامر الذي فيه تستفتيان ﴾ فهذا نبأ زائد على تعبير رؤياهما ورد مورد الجواب عن سؤال كان يخطر ببالهما أو أسئلة في صفة ذلك التعبير وهل هو قطعي أم ظني يجوز غيره ومتى يكون؟ فهو يقول لهما ان الامر الذي يهمكما أو يشكل عليكما وتستفتياني فيه قد قضي وبت فيه وانتهى حكمه . والاستفتاء في اللغة السؤال عن المشكل المجهول ، والفتوى جوابه سواء أكان نبأ أم حكما ، وقد غلب في الاستعمال الشرعي في السؤال عن الاحكام الشرعية ، ومن الشواهد على عمومه (افتوني في رؤياي) وهي مشتقة من الفتوة الدالة على معنى القوة والمضاء والثقة

قلت ان هذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على ما عبر به رؤياهما داخلة في قسم المكاشفة ونبأ الغيب مما علمه الله تعالى وجعله آية لهما ليثقوا بقوله وهم أولو علم وفن وسحر، ومعناها انه علم بوحي ربه أن الملك قد حكم في امرهما بما قاله لامن باب تأويل الرؤيا على تقدير كون ما رأيا من النوع الصادق منها لامن أضغاث الاحلام[وسنبين الفرق بينهما في التفسير الاجمالي لكليات السورة ان شاء الله تعالى]

٤٢ ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ وهو الذي اول له رؤياه بأنه يسقي ربه خمرا ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، فان كانت فتواه بعده عن وحي نبوي كما رجحنا لا تتمة لتأويلها فيجوز أن يكون التعبير عن نجاته

بالظن لان ما علم من قضاء الملك بذلك يحتمل ان يعرض ما يحول دون تنفيذه ، وقد بينا في الكلام على رؤيا يوسف وما فهمه أبوه منها من أمر مستقبله ان علم الانبياء ببعض الامور المستقبلة إجمالي الخ وقال جمهور المفسرين ان الظن هنا بمعنى العلم وفي هذه الدعوى نظر وقد بينا تحقيق الحق في الفرق بين الظن والعلم لغة واصطلاحا في موضع آخر فلا محل لاعادته هنا ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري عسى أن ينصفني ممن ظلموني ويخرجني من السجن ، وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شرابه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي أنسى الساقي تذكر ربه وهو أن يذكر يوسف عنده على حد (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ منسيا مظلوما ، والفاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق، والجاري على نظام الاسباب ، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريبا (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة) أي تذكر ، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج الى حذف وتقدير . ووجهوه بأنه أضاف المصدر اليه لملابسته له، أو انه على تقدير : ذكر إخبار ربه ، فحذف المضاف وهو كثير كما ان الاضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم

وقيل ان المعنى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فعاقبه الله تعالى بإبقائه في السجن بضع سنين(١) وقالوا إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب انه توسل الى الملك لاخراجه ولم يتوكل على الله عز وجل ، وجاؤا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه، لانها تتضمن الطعن في نبي مرسل ، ولكن قبلها على علاتها الجمهور كعادتهم وهو خلاف الظاهر من وجوه:

(الاول) عطف الانساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه ، ومفهومه أنه كان ذاكرا لله تعالى قبله الى أن قاله فلو كان قوله ذنبا عوقب عليه لوجب

(١) استشهدت بهذا القول المشهور في تفسير (إنه ربي أحسن مثواي) وهو خطأ

أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه — أي في تلك الحال — فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى باطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده

(الثاني) أن اللائق بمقامه أن لايقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الاسباب والمسببات كما وقع بالفعل فانه ماخرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملك باخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي خبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فاذا كان قد وصاه بذلك ملاحظا انه من سنن الله في عباده متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه، وعطف الانساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية فلا تكون هي ذنبا ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب

(الثالث) إذا قيل سلمنا انه كان ذاكراً لربه عند ما أوصى الساقي ما أوصاه به ولكنه نسيه عقب الوصية واتكل عليها وحدها (قلنا) إن زعمتم انه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لاتليق بأضعف المؤمنين ايمانا، ولا يدل عليها دليل، بل يبطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وانه صرف عنه السوء والفحشاء، وكيد النساء

وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له عز وجل وذكره فهذا النسيان القليل لايستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الانبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس

(الرابع) جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان (١٥: ٤٢ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى (٧: ٢٠١ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى

(الخامس) ان النسيان ليس ذنبا يعاقب الله تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم

النبيين (٦:٦٨ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) يعني الذين أمره بالاعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله

(السادس) إنهم ماقالوا هذا إلا لأنهم رووا فيها حديثا مرفوعا على قلة جرأة الرواة على الاحاديث المرفوعة المسندة في التفسير وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن ابراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال قال النبي ﷺ « لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول مالبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله » ونقول ان هذا الحديث باطل ، قال الحافظ ابن كثير وهذا الحديث ضعيف جداً : سفيان بن وكيع ضعيف وابراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضا . وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما . وهذه المرسلات ههنا لاتقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم اه

وأقول أولا إن ما قاله في هذين الراويين للحديث هو أهون ما قيل فيهما ومنه أنهما كانا يكذبان، وثانيا إنه يعني بقوله [ههنا] الطعن في نبي مرسل بأنه كان يبتغي الفرج من عند غير الله وهو الجدير بأن لاتحجبه الاسباب الظاهرة عن واضعها ومسخرها وخالقها عز وجل . ويعني بقوله [لوقبل المرسل من حيث هو] ما هو الصحيح عند علماء الاصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل . وسنتكلم على المراسيل في التفسير في الكلام الاجمالي عن روايات هذه السورة وأمثالها في الخلاصة الاجمالية لتفسيرها ان شاء الله تعالى ، وما رواه الكلبي وغيره عن وهب ابن منبه وكعب الاحبار من خطاب الله تعالى وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على الاستشفاع بآدمي مثله فهي من موضوعات الراوي والمروي عنهما جزاهم الله ما يستحقون فتبين بهذا أن التفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدبا

وقد اختلف المفسرون في مدة لبث يوسف في السجن بناء على الاختلاف في تفسير البضع واختلاف الرواة. فالتحقيق ان البضع من ثلاث الى تسع، وأكثر مايطلق على السبع، وعليه الاكثرون في مدة سجن يوسف من أولها الى آخرها ، وما قالوه من أن السبع كانت بعد وصيته للساقي وانه لبث قبلها خمس سنين فلا دليل عليه

(٤٣) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي
فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٤) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٥) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ
بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٦) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ
أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ
(٤٧) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٩) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

(رؤيا ملك مصر وتاويل يوسف لها بالقول والفعل)

كان ملك مصر في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالرعاة [الهكسوس] كما يأتي في التفسير الاجمالي ، وقد رأى رؤيا عجز رجال دولته من الوزراء والكهنة والعلماء عن تأويلها ، فكان عجزهم سبباً للجوء إلى يوسف عليه السلام واتصاله بالملك وتوليه منصب الوزير المفوض عنده كما يبين في الآيات مبدأ وغاية، قال تعالى

٤٣ ﴿ وقال الملك ﴾ هذا السياق عطف على سياق صاحبي السجن وما قالاه في قص رؤياهما على يوسف ﴿ إني أرى ﴾ أي رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية ماثلة

أمامي كأني أراها الآن ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ جمع سمينة وكذا سمين كما يقال رجال ونساء كرام وحسان ﴿ يأكلهن سبع عجاف ﴾ أي سبع بقرات مهازيل في غاية الضعف والهزال، وهو جمع عجفاء سماعا لاقياساً فان جمع أفعل وفعلاء وزان فعل بالضم كحمر وخضر، وحسنه هنا مناسبته لسمان ﴿ وسبع سنبلات خضر ﴾ عطف على سبع بقرات وهي جمع سنبلة كقنفذة مايخرجه الزرع كالقمح والشعير فيكون فيه الحب ﴿ وأخر يابسات ﴾ عطف على ماقبله، واليابس من السنبل ما آن حصاده، واستغني عن إعادة سبع هنا بدلالة مقابله في البقرات عليه ﴿ يا أيها الملأ ﴾ يخاطب رجال دولته وأشراف قومه ﴿ أفتوني في رؤياي ﴾ ما معناها وما تدل عليه فيكون مآلا لها ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة الى أخرى فاللام فيها للبيان والتقوية، فعبرها وعبورها بمعنى تأويلها وهو الاخبار بمآلها الذي يقع بعد

٤٤ ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي هي أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الاحلام أي الاحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم فلا ترمي إلى معنى مقصود، وأصل الاضغاث جمع ضغث بالكسر وهو الحزمة من النبات أو العيدان، والاحلام جمع حلم بضمتين ويسكن للتخفيف وهو مايرى في النوم. يقال حلم كنصر واحتلم، ومنه بلوغ الحلم، والحلم قد يكون واضح المعنى كالافكار التي تكون في اليقظة وقد يكون ــ وهو الاكثر ــ مشوشا مضطربا لايفهم له معنى وهو الذي يشبه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لاتناسب بينها، وهو ماتبادر الى أفهامهم من نوعي البقر والسنابل ﴿ ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾ يحتمل قولهم هذا انهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه الاحلام المختلطة المضطربة وانما يعلمون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة، ويحتمل نفي العلم بجنس الاحلام لانها مما لايعلم أو مما لايكون له معنى بعيد تدل عليه الصور المتخيلة في النوم وتنتهي اليه، كما ينكر أهل العلم المادي الآن أن

يكون لشيء من هذه الرؤى والاحلام تأويل صحيح ، ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها . وسنبين الحق في ذلك في الخلاصة الكلية لتفسير السورة كما تقدم

٤٥ ﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾ أي من صاحبي السجن وهو الساقي أحد أركان القصة ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ أي والحال انه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن وصية يوسف اياه بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك (وأصل ادكر اذتكر ــ افتعال من الذكر أبدلت تاؤه دالا مهملة لقرب مخرجهما وأدغمت فيها الذال المعجمة ، وهو الفصيح ، وقرىء في الشواذ بالذال المعجمة وهي لغة ﴿ أنا أنبؤكم بتأويله ﴾ أي أخبركم به أو بمن عنده علم تأويله ﴿ فأرسلون ﴾ اليه أو الى السجن فهو فيه ، وروي عن ابن عباس ان السجن كان خارج البلد . وفي خطط المقريزي : قال القضاعي سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن فيه المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين ، والآخر موسى ، وقد بنى على أثره مسجد يعرف بمسجد موسى الخ وأمثال هذه الاخبار لا يوثق بها

٤٦ ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أي قال فأرسلوني اليه فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك ، مناديا له باسمه وما ثبت عنده من لقبه [الصديق] وهو الذي بلغ غاية الكمال بالصدق في الاقوال والافعال وتأويل الاحاديث وتعبير الاحلام ، شارحا له رؤيا الملك بنصها ــ وهو بسط في محله بعد إيجاز في محله ــ قائلا ﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ وعلل هذا الاستفتاء بما يرجو أن يحقق ليوسف أمله بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بعلمه فقال ﴿ لعلي أرجع الى الناس ﴾ أولي الامر ، وأهل الحل والعقد ، بما تلقيه إلي من التأويل والرأي ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ مكانتك من العلم فينتفعون به ، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك وما يجب أن يعملوا

بعد العلم به ، فلعل الاولى تعليل لرجوعه اليهم بإفتائه ، ولعل الثانية تعليل لما يرجوه من علمهم بها ، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه

٤٧ ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ﴾ أي قال يوسف مبينا للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ماتدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي ، وهذا ضرب من بلاغة الاسلوب والايجاز ، لاتجد له ضريبا في غير القرآن ، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقي خطاب الآمر المأمور الحاضر ، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأبا مستمرا كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) سبع سنين بلا انقطاع . قال الزمخشري [تزرعون] خبر في معنى الامر كقوله تعالى (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون) وإنما يخرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به ، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الامر قوله ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ أي فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه أي ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة اليه ، الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب ﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع فان الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل ، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان ، والسنبلات السبع الخضر على ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلا لزرع سنة

٤٨ ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ أي سبع سنين شداد في محلهن وجدبهن ﴿ يأكلن ماقدمتم لهن ﴾ أي يأكل أهلهن كل ماقدمتم لهم ، وهو من إسنادهم الى الزمان والدهر ما يقع فيه ، ويكثر إسناد العسر والجوع الى سني الجدب : يقال أكلتنا هذه السنة كل شيء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ، ولا سبدا ولا لبدا ، أي لاشعرا ولا صوفا . وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات ﴿ الا قليلا مما تحصنون ﴾ أي تحرزون وتدخرون للبذر

٤٩ ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ الذي ذكر وهو السبع الشداد ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ أي فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الاغاثة وأوسعها وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة : يقال غاثه يغوثه غوثا وغواثا (بالفتح) وأغاثه إغاثة اذا أعانه ونجاه ، وغوّث الرجل : قال « واغوثاه » واستغاث ربه استنصر وسأله الغوث ، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر اذ يقال غاث الله البلاد غيثا وغياثا اذا أنزل فيها المطر ، والاول أعم وهو المتبادر هنا ، ولا يقال ان الثاني لا يصح ، لان خصب مصر يكون بفيضان النيل لا بالمطر فان فيضانه لا يكون الا من المطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان ، فاعتراض بعض المستشرقين من الافرنج وزعمه أن الكلمة من الغيث وأنها غير جائزة جهل زينه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن ﴿ وفيه يعصرون ﴾ ماشأنه أن يعصر من الأدهان التي يأتدمون بها ويستصبحون كالزيت من الزيتون والقرطم وغيره ، والشيرج من السمسم وغير ذلك ، والاشربة من القصب والنخيل والعنب . والمراد ان هذا العام عظيم الخصب والاقبال ، يكون للناس فيه كل مايبغون من النَّعمة والاتراف ، والانباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الاول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك ، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل ، وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب كتزرعون وتحصنون ، وقراءة الجمهور عطف على يغاث الناس ، وفائدة القراءتين ، بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه ، وحاضر مخاطب بما يكون منه

(٥٠) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥١) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن

نَفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥٢) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ

طلب الملك ليوسف وتمكثه في الاجابة لأجل التحقيق في مسألة النسوة

من المعلوم بالبداهة ان الرسول بلغ الملك وملأه ماقاله له يوسف عليه السلام وأنهم فهموا منه أن الخطب جالل، وان هذا الرجل ذو علم واسع، وتدبير لايستغنى عنه فيما يصفه من حالي السعة والشدة، وقد طوي ذلك ايجازا لانه يعلم من قوله تعالى ٥٠ ﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ لأسمع كلامه بأذني، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسي ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ وبلغه أمر الملك ﴿ قال ارجع الى ربك فاسأله ﴾ قبل شخوصي اليه ووقوفي بين يديه ﴿ مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أي ماحقيقة أمرهن معي، فالبال الامر الذي يهتم به ويبحث عنه، فهو يقول سله عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقته فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت عليها أو عقبها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل منه العفو ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ وقد صرفه عني فلم يمسني منه سوء معهن، وربك لايعلم ماعلم ربي منه،

وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه في سؤاله (منها) دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي مالقي من الشدائد أن يكون صبورا حليما، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لابراهيم الذي وصفه الله بالاواه الحليم؟ وفي حديث أبي هريرة في المسند والصحيحين مرفوعا « ولو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي» وفي لفظ لاحمد «لو كنت أنا لأسرعت الاجابة وما ابتغيت العذر» وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره وكرمه وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من

السجن ، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب .. فهو مرسل لا يحتج به

(ومنها) عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى يظهر براءته ونزاهته (ومنها) وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها (ومنها) مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر مايجبن به (ومنها) أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها لان أمر شغفها به كان وجدانا قاهرا لها ، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعاً عن نفسه ، فهو لم يكن له بد منه

٥١ ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ الخطب الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره ومنه قول ابراهيم للملائكة (فما خطبكم أيها المرسلون) وقول موسى في قصة العجل (فما خطبك ياسامري؟) وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتها عن مورد السقيا (ماخطبكما) وهذه الجملة بيان لجواب سؤال مقدر دل عليه السياق كأمثاله . والمعنى ان الرسول بلغ الملك قول يوسف وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة ، فجمعهن وسألهن : ماخطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه هل كان عن ميل منه اليكن ، ومغازلة لكن قبلها ، وهل رأيتين منه مواتاة واستجابة بعدها ؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع المجرمين ؟ ﴿ قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ﴾ أي معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوءه لا كبير ولا صغير ، ولا كثير ولا قليل ، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول « من » عليها وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه ﴿ قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ﴾ أي ظهر بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل عن محضه ، وهو تكرار من حصه إذا قطع منه حصة بعد حصة (بالكسر) وهي النصيب لكل شريك في شيء ، مثل كبكب وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى ، فهي تقول ان الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف ، لكل منا حصة ، بقدر ماعرض فيها من شبهة ، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه ، فان كان

عواذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي، فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات ؟ ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ وهو لم يراودني ، بل استعصم وأعرض عني ﴿ وانه لمن الصادقين ﴾ فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الاسمى لمن أكرم مثواه وأحسن اليه — على السكوت عنه إلى الآن ، ونحن جزيناه بالسيئة على الاحسان ، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع

٥٢ ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ أي ذلك الاقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه؛ ليعلم الآن ـ إذ يبلغه عني ـ أني لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته ، أو الطعن في شرفه وعفته ، بل صرحت لجماعة النسوة بأني راودته فاستعصم وهو شاهد ، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب، ﴿ وان الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا ، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا ، وهذا تعليل آخر لاقرارها

ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبرئ نفسها من الكيد له بالسجن ، وان ذلك كان من هوى النفس الامارة بالسوء لان المراد منه تذليله لها ، وحمله على طاعتها ،

وفيها وجه آخر وهو انها تقول : ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا ، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي ، وخلى بينه وبيني ، فاستعصم وامتنع ، فبقي عرضه أي الزوج مصونا ، وشرفه محفوظا، ولئن برأت يوسف من الاثم فما أبرئ منه نفسي ، فان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي، وسيأتي ان من رحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الامر السوء وهو أعلى الدرجات، ومنها حفظه إياها من طاعة الامر بوازع منها، وهي دون ما قبلها ، ومنها عدم تيسر عمل السوء، لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حدّ (ان من العصمة ألا تجد)

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ولكن ذهب الجمهور

اتباعا للروايات الخادعة الى أنها حكاية عن يوسف عليه السلام بقول: ذلك الذي كان مني إذ امتنعت من إجابة الملك واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب الخ وانه صرح بعد ذلك بأنه لا يبرىء نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يتبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير. ومن العجب ان ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال العماد ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحا للقول الاول: وهذا هو القول الاشهر والاليق والانسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الامام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة اهـ وشيخ الاسلام ابن تيمية من أعلم المحدثين بنقد الروايات فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند روايات القول الآخر

وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الانساني الاعلى للاقتداء به في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة، وان امرأة العزيز التي اشتهرت في نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة في التاريخ القديم والحديث كان أكبر اثمها على زوجها، وكانت هي ذات مزايا في عشقها الذى كان اضطراريا لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذى بلغ منتهى الكمال في الحسن والجمال، فمن مزاياها انها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعية الجنسية للتسلي عنه بعد اليأس منه، وانها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط. وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب (ماجزاء من اراد بأهلك سوءا) تعني به همه بضربها، وانها في خاتمة الامر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي ايثاراً للحق وإثباتا لبراءة المحق، فأية مزايا أظهر من هذه لمن ابتليت بمثل هذا العشق ؟ وفي تاريخ الفردوسي أديب الفرس أنه صنف قصة غرامية في زليخا ويوسف صور فيها العفة بأجمل صورها، وزليخا (بالفتح) اسم امرأة العزيز في أشهر تواريخنا وقيل إن اسمها راعيل. وسنفصل العبر في القصة، في التفسير الاجمالي للسورة إن شاء الله تعالى

﴿ تم تفسير الجزء الثاني عشر في العشر الاخير من المحرم سنة ١٣٥٤ ﴾
وكان البدء به في صفر سنة ١٣٥٣ والله نسأل توفيقنا لاتمام
سائر هذا التفسير بما يرضاه وله الحمد والمنة

﴿ الفهرس العام لمواد الجزء الثاني عشر من تفسير المنار ﴾

حرف الألف

﴿ سورة هود ﴾

خلاصتها الاجمالية في ستة أبواب

(باب توحيد الله وصفاته وأفعاله)

وهو ثلاثة فصول

ص - ض

ط

ظ

الظلم والظالمون

ع - غ

ف

ل

م

ن

نبيا (ص)

﴿ تم فهرس المواد ويليه فهرس الآيات ﴾

﴿ فهرس الآيات المفسرة في هذا الجزء ﴾

تصويب الخطأ المطبعي فى الجزء ١٢ من التفسير

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٩	١١	بِعِلْمَ	بِعِلْمِ
٦٨	٣	تنظرو	تنظرون
٩٣	١٦	يلوج	يلوح
١١٤	٢	وجئت	أم جئت
١١٧	١٥	ولا تأخروا	ولا تؤخروا
١٢٢	٣	والممددكم	والممدكم
١٢٧	٥	ومَن وراء	ومن وراء
»	٩	لغربته	لغرابته
١٣٣	٦	ولا نخزون	ولا تخزون
»	١٧	ميتهجة	متهيجة
١٤٠	١٨	سورة	من سورة
١٥٩	٥	ينكث	ينكت
١٦٧	٢١	لا يأولون	لا يؤولون
١٧٨	٩	خير	غير
١٨١	٩	المفسد	المفسدة
١٨٤	٢	سلطان	برهان
»	٥	عليه الخروج	الخروج عليهم
١٨٥	(رأس الصحفة)	المرأة البرزة	حق أهل الحل والعقد
١٨٧	١١	إن في ذلك الذكرى	ذلك ذكرى
٢٠٧	٢	تسع مسائل أو عقائد	إحدى عشرة عقيدة
٢٣١	٥	إلاقليلا	إلا قليل
٢٣٦	٤	كل ذلك كان	كان ذلك
٢٦٥	١	علمه	أن علمه
»	٦	يطمأنه	يطمئنه
٢٧٢	٢	وايتاؤه	وايتائه
٢٧٤	٦	فلما بلغ	ولما بلغ
٢٨٣	٢٤	من قولهم	من قولهن
٢٩١	٦	وإرائتهن	واراءتهن
٣٠٤	١٠	رأوا	رأيا